محمد الأسعد

مستشرقون في علم الآثار

كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

حين بدأتُ في أوائل تسعينات القرن الماضي بتجميع وإعداد مادة البحث في ظاهرة الاستشراق في علم الآثار، لاحظتُ أن ما قدّمه العربُ (باستثناءِ قلة تعرضت للتجاهل والجحود) في نطاق علم الآثار، أو التاريخ الذي يستند إلى عاديات علم الآثار، نصوصاً وقطعاً أثرية وآثاراً معمارية، لايكاد يمثل حصيلة أساسية ومؤثرة في هذا الحقل، سواء تعلق الأمرُ بعلم الآثار بعامة أو بعلم آثار الوطن العربي بخاصة. الغلبة ما زالت لعالم الآثار والباحث والصحافي والفضولي الغربي، ونصيب العربي، عالماً كان أو باحثاً أو صحافياً أو ذا فضول معرفي، موسمياً كان أو دائم الحضور، هو اللجوء إلى المتداول في اللغات الغربية، وأكثره شيوعاً، ولا يصل حتى إلى الدراسات المتخصصة القريبة العهد، بل يظل سجين مغالطاتٍ وإشاعاتٍ أثبتها التكرارُ، وسيّجتها حساسياتٌ إقليمية وأفكارٌ مسبقة تبتعد به عن أن يكون صاحبَ فتح جديد، أو ذا قدرةٍ أو جرأةٍ على تبنّي فتوح جديدة.
ومع مواصلة البحثِ والمقارنةِ والتنقيب في المصادر الغربية، وبخاصة في الكتبِ والدوريات المنشورة باللغة الانكليزية، أو المترجمة إليها من لغات غربية أخرى، تبين لي أن أقصى ما يتمكن منه خطابُ هذا العربي، بعد أن تمكنتْ منه وتحكمتْ به سيناريوهات تاريخية تقليدية تستند إلى الأساطير والقصص لا إلى حقائق علم الآثار واللغات والجغرافية الطبيعية والإنسانية، هو أن يقتنص فرصة ما تتيحها له مقولة "إسرائيلية" أو "غربية" تعترف بوجود "عربي" أو شبه وجود في هذا التاريخ الطويل. فينتشي وهو يقلب هذه المقولة ويطرب لها، من دون أن يسأل نفسه عن ما اكتشفه وقدمه هو.
الباحثُ العربي، إذا صحّ أن يُسمّى المتلقطُ باحثاً، لايزال أسيرَ مفاهيم القرن التاسع عشرحول هوية وطنه الحضارية، ولا يزال يتحدث عن "ساميين" و "حاميين" وما إلى ذلك من مصطلحات لاأساس لها من واقع أو تاريخ، بل ولا يزال يستخدم أحياناً أدوات تفسير من أمثال "عقلية سامية شاعرية وروحانية " و"عقلية آرية علمية ومنطقية"، وما إلى ذلك من خزعبلاتِ المدارس العنصرية المولودة في الغرب منذ أكثر من قرنين حتى بعد أن أظهر غربيون محدثون سفاهتها.
والباحثُ العربي، والشاعر والروائي والسياسي، لايعرف، أو لايريد أن يعرف، أحدث مكتشفات علم الآثار في الوطن العربي، ولا يملك استعداداً لإعادة النظر وقراءة نصوص حضاراته القديمة في ضوء مناهج البحث الحديثة، رغم أن عالماً أو اثنين من العلماء العرب الأفذاذ، د.طه باقر ود.كمال الصليبي، نصحوه بأن يباشر هذه المهمة بنفسه ولا يتركها أرضاً مشاعاً لصغار المستشرقين، وضباط المخابرات من كل جنس ولون. بل يصرّ على إشاعة ما شاع من أقاويل صحافية ودعائية حول تاريخ وطنه الذي كُتب في مصنع خطاب استشراق أصبحت آلياته وحوافزه معروفة ومدروسة ومادة للوعي المعاصر في معظم أرجاء العالم الآسيوي والأفريقي والأمريكي اللاتيني، أي في العوالم التي استيقظت من سباتها.
لهذه الأسباب وجدتُ، خلال بحثي في مادة "مستشرقون في علم الآثار" الذي استغرق ما يقارب 25 عاماً، استعداداً لدى بعض العرب للغوص فوراً في المياه الضحلة، مثلما حدث منذ وقت قريب مع

حكاية اعتراف علماء آثار "إسرائيليين" بأن مدينة القدس الكنعانية أقدم بكثير مما تخيله الذين بنوا تاريخهم على أساس روايات شعبية توراتية ليست من التاريخ في شيء، وأن هناك بالفعل "إختلاقاً" لشعب اسمه "شعب إسرائيل" كما أظهر الباحث "الإسرائيلي" شلومو ساند (2008).
إن الحقيقة التي ما تزال خارج تداول الباحثين العرب، وألحَّ عليها باحثون من أمثال الأمريكي توماس تومسن في كتابه "التوراة في التاريخ: كيف يخلق الكتاب ماضياً" (1999)، والاسكتلندي كيث وايتلام في كتابه "اختراع إسرائيل قديمة وإخراس التاريخ الفلسطيني" (1996)، ليس قدم ورسوخ الحضارة العربية الكنعانية فقط، بل والبدء بدراسة آليات خطاب الإستشراق في علم الآثار بالذات، وتحليل سرّ سطوته التي فرض بها صورة متخيلة للتاريخ القديم استمدها من مرويات توراتية لم تعد، باعتراف غربيين، مؤهلة لتكون تاريخاً، ليس في ما يتعلق بفلسطين فقط بل وفي ما يتعلق بالوطن العربي ككل، مع ما رافق هذا من اختلاق لنقوش وعاديات يعرف جامعوها قبل غيرهم أنها ملفقة.
وفي الوقت الذي بدأ فيه تحولٌ مهم في الأوساط العلمية أخرج ما أشاعه هذا الخطاب من دائرة التداول، كما قال لي في رسالة شخصية الباحث الألماني، والمستشرق دارس النصوص اليمانية الشفاهية، د.فرنر داوم، نجد أن مأزق ما يسمى "علم الآثار التوراتي" ما زال بعيداً عن عناية الباحثين العرب ووعيهم، بل ما زالوا غارقين في تكرار مقولاته وتسمياته وفرضياته كحقائق مسلم بها.
مأزق هذا النوع من "العلوم" الذي ينطلق من رؤيا ثابتة ويسعى إلى هدف لايحيد عنه، ولا تهزّ فرضياته ومسلماته مكتشفات جديدة أو مناهج نظر جديدة مهما بلغت درجة علميتها، وحتى لو قوضت مزاعمه، يشبه مأزق إنسان يكتشف بعد تنقيبات مضنية قطعَ صورة أو شظايا صورة، فيحاول تجميعها مفترضاً أنها تطابق صورة مذكورة في أسطورة او خرافة من خرافات عائلته، وحين يتجاوز الإفتراض كل الممكنات ويتحول إلى إيمان، يصبح عدم انطباق صورة الشظايا المجمعة على الصورة العائلية مأزقاً، فيوجه هذا الإنسان جهده نحو إعادة تأويل وتفسير صورة الشظايا العنيدة التي لاتستجيب لصورته العائلية المتوارثة، فيذهب إلى تزوير شظايا ملائمة، وتخيل ما لاتقدمه الوقائع الملموسة أمامه، أي ما هي عليه صورة الشظايا.
ما لايدركه أكثرُ الباحثين، العرب وغير العرب، أن تعبير "الحضارة الإسرائيلية" هو نتاج خيال خصب لا نتاج آثار ملموسة. وهو ليس سوى عبارة شائعة في خطاب الاستشراق التوراتي، لاأساس له من واقع تاريخي، أي أن القائلين به لايستندون إلى مكتشفاتٍ أثرية ملموسة، بل إلى حكاياتٍ وأقاصيص ذات طابع أسطوري وغرض ديني لاتاريخي. وحين ذهبت الباحثة "نادية أبو الحاج" إلى ما يسمى متحف هذه "الحضارة" في القدس، وجدت متحفاً خيالياً، أي أن كل موجوداته إنشاءات بأدوات أشعة الليزر والرسوم الجرافيكية، وسجلت هذا في كتابها "وقائع على الأرض" الصادر عن جامعة شيكاغو بعد مماطلات وعراقيل في العام 2001.
ولايخفى على أبسط إنسان أن الحديث عن حضارة مصرية قديمة مثلا، يستند إلى شواهد مادية هائلة، نقوش ومباني وكتابات وتماثيل ومدافن ..إلخ، وحين نتحدث عن حضارة عربية/إسلامية فلدينا ما يدل عليها من آثار مادية ملموسة، وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة الهندية أو الصينية وغيرها، ولكن حين نسمع عن "حضارة إسرائيلية" لانجد بين أيدينا شيئاً، بل نجد مجرد تعبير لفظي يختلق "وجوداً" لم يكن له وجود، تماماً مثلما اختلق خطاب الاستشراق التوراتي "دولة إسرائيل قديمة" في محاكاة لدول عصر النهضة الأوربية المعاصرة على حد تعبير كيث وايتلام.
إذاً، الأمرُ في حقل علم الاثار والمعارف الجديدة أوسع وأعمق بكثير من مجرد اعتراف "صهاينة" بقدم القدس الكنعانية أو أسبقيتها، فما تكشف عنه التنقيبات المتواصلة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن هو سيادة الطابع العربي الكنعاني في أرض فلسطين، منذ نشأة المدن والاستقرار الحضري فيها، وصولا إلى عصر الاحتلال الروماني، أي انتفاء وجود أي طابع حضاري آخر في هذه المنطقة

من العالم في الألف الثالث والثاني والأول ق.م، وزج حضارة إسرائيلية متخيلة زجّاً ناجحاً في هذا السياق التاريخي ظل عصياً على علماء آثار كثيرين ومؤرخين، وهو ما دفع بعضهم إلى التسليم آسفاً بأن معطيات علوم الآثار واللغات والتاريخ والجغرافية الطبيعية والإنسانية لاتسند الحكايات التوراتية، سواء القديم منها، أوالحديث الذي يختلقه الصهاينة، جاهدين، بإزالة الآثار الفلسطينية وتدميرها وإنشاء آثار مختلقة تحل محلها، وإطلاق أسماء عليها.
والمتابع لأعمال الآثاريين والفضوليين يلاحظ ظاهرة تتكرر مرة بعد أخرى؛ يندفع أحدهم، ومعه الصحافة و"علماء" متخصصون بالتلفيق والتخيل، نحو نسبة هذا الأثر أو التل أو المبنى إلى حدث او حكاية توراتية، ولا يسلم من هذا أكثر المتخيلين شهرة بكشوفه المثيرة من أمثال الأمريكي وليم فوكس أولبرايت، أو الفرنسي أندريه لومييه، ثم يتم تقويض ما تخيله ولفقه على أيدي علماء أكثر دقة وصرامة.. ونزاهة.
كلُّ هذا كان حاضراً في ذهني منذ أن صدرت الطبعة الأولى من كتابي هذا. وبعد أن واصلتُ المتابعة، وكتبت مقالة عن الحجر المسمى "حجر مؤاب" ودراسة "صورة القدس في المخيلة الاستعمارية"، ودراسة "فلسطين المفقودة"، وجدتُ، وأنا بصدد التقديم للطبعة الثانية، أن ما تكشف ويتكشف في أوساط الباحثين في مجال علم الآثار الفلسطينية يوماً بعد يوم يعزّز ما توصلتُ إليه، ولا أحتاج إلى إلغاء أو تعديل أي فصل من فصول الكتاب، بل وجدتُ في إضافة مقالة حجر مؤاب إلى فصل "المشكلة التوراتية"، الفصل الثاني، وإضافة الدراستين عن القدس وفلسطين المفقودة بمثابة الفصلين، السابع والثامن، إثراءً لموضوعة الكتاب الأساسية، أي تخليص الآثار العربية، والفلسطينية منها بخاصة، وتاريخ الوطن العربي بعامة، من القبضة اللاهوتية التوراتية.

محمد الأسعد
2015/8/3

تمهيـــــــــد

يضم هذا الكتابُ سلسلة من الدراسات نُشرت على فتراتٍ متباعدة موضوعها ما أصطلحتُ على تسميته باسم " الإستشراق في علم الآثار". برز هذا المصطلح لأول مرة في مقالة لي نشرتها مجلة "كنعان" (الطيبة، فلسطين المحتلة) في شهر سبتمبرمن العام 1991، وجاء خلاصة قراءة في أدبياتِ بعض علماء الآثار الغربيين. بالطبع لم يكن ذهني خالياً وأنا أقرأ هذه الأدبيات من ملحوظة د. إدوارد سعيد القائلة بأن أغلبية المستشرقين، حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت من الباحثين التوراتيين الذين كانت معرفتهم بالشرق معرفة نصية. وكذلك لم يكن ذهني خاليا أيضا من نقد د. كمال الصليبي لقراءات بعض علماء الآثار التوراتيين لنصوص وآثار حضاراتنا القديمة، وجملة من مراجعات بعض علماء الآثار لما أعتبر ذات يوم "وقائع" تاريخية فإذا بها مجرد تخيلات مصدرها المخيلة الخصبة والأفكار المسبقة.

ولكن مع كثرة أمثال هذه الملحوظات والنقود والمراجعات، لم أجد بين يديّ من درسَ موضوع الإستشراق في علم الآثاربالتحديد، وبهذا المصطلح، مع استثناءٍ فريد من نوعه وجدته في درس قرّره الأستاذ جوي ماك كوريستون من جامعة ولاية اوهايو الأمريكية على طلبته في العام 2001، تحت عنوان الإستشراق وعلم الآثار. وقبل أن أصل إلى الحديث عن هذا الدرس الذي يشير إلى تغير نوعي في النظر إلى علم آثار مايدعى الشرق الأدنى القديم يناقض ما كان شائعاً في النصف الأول من القرن الماضي، سأتحدث عن الطبيعة الإستشراقية في علم آثار وطننا العربي .

لقد تبين لي الآن وبعد، كل هذه السنوات من متابعة عمل علماء الآثارالغربيين ومن اتبعهم من العرب، وما نُشر عن نتائج أعمالهم، كم هو دقيق وصائب توصيف د. إدوارد سعيد لأول بُعد من أبعاد الإستشراق حين قال "إن الشرق موضوع الدراسة كان عالماً نصياً على نطاق واسع، وتم انتاجه عبر الكتب والمخطوطات، وليس عبر العاديات القديمة مثل التماثيل والفخاريات كما هو حال إنتاج اليونان في عصر النهضة، بل وكان حتى التواشج بين المستشرق والشرق نصياً. وحين كان مستشرق يتنقل في بلد اختص به، كان يتنقل وفي ذهنه أحكامٌ مجردة عن "الحضارة" التي يدرسها لاتقبل الإهتزاز، ومن النادر أن اهتم مستشرقون بأي شيء لايبرهن على مصداقية ومشروعية هذه "الحقائق البالية"، وتطبيقها من دون نجاح يُذكر على سكان البلد غير المفهومين، ومن هنا كان الإنتقاصُ والحطُّ من قدرهم ثابتاً من ثوابت الإستشراق" (1).

أعني أن النص، والنص التوراتي تحديداً، لعب الدورَ الأكبر في انتاج ماضي شرقنا العربي، فوضع تاريخه ولغاته وفنونه وآثاره المادية في سياقات غريبة لاتنتمي اليه بقدر ما تنتمي إلى صورة متخيلة مستمدة من المرويات التوراتية، حتى وإن كان هذا الماضي أوسع زماناً ومكاناً من تلك اللحظة العابرة في تاريخه، تلك التي يفترض أنها مرحلة توراتية.

وأعطت هذه الخصوصية علم الآثار في شرقنا العربي طابعاً مغلقاً وثابتاً، فهو فرع آخر غيرعلم الآثار، إنه علم خاص يدعى علم الآثار التوراتي، لاتلمسه أي مكتشفات من أي نوع كان، ولاتغير

ثوابته أي خبرات جديدة مكتسبة، ولاتطورات حديثة في مجال علم الاثار. في أساس هذا"العلم" يكمن عنصران؛ عنصرما يسمونها"الرؤيا" وعنصر مايسمونه " الإحساس" بالهدف. والرؤيا بالطبع هي الرؤيا اللاهوتية، أي رؤية جوهر أصلي في تاريخ هذه الأرض لايتغير، كان يوماً وظلَّ على مرِّ العصور والأحقاب، تمثله مآثرُ شعب التوراة لغة وتاريخاً ومملكة وفنونا.. إلخ. ويُنظر إلى حضارات المنطقة القديمة على أنها مجردَ مشتقاتٍ ثانوية من هذه المآثر. أما الهدف، فهو إستعادة هذا الجوهرالمطمور في تلال المنطقة العربية، وفلسطين خصوصاً، وإعادته إلى الحياة. ومن هنا فوظيفةِ علمِ آثارٍ من هذا النوع، ليس التنقيب عن الآثار القديمة والتعرّف علي هويتها، فهذه الهوية يُفترض أنها معروفة سلفاً في النصِّ التوراتي، بل لرفعها كمستندات تخلق رابطة بين ذلك الجوهر الثابت وبين الكيان الإستعماري الذي أنشأه الغربُ على أرض فلسطين وكوّنه من يهودٍ جلبهم من مختلف الهويات القومية تحت زعم أنهم ورثة ما يسميها في أدبياته "أرض التوراة"، أي الجوهر الثابت على مر العصور.
وبلغ هذا الهوسُ النصِّي حداً مرضياً دفع ببعض علماء الآثار إلى جعل موضوع تقصّيهم وتنقيباتهم المكانَ الممتدَّ من الهند إلى إسبانيا، ومن جنوب روسيا إلى جنوبي الجزيرة العربية، والزمنَ الممتدَّ منذ عشرة الاف عام قبل الميلاد أو أبعد من ذلك بكثير. وأطلقوا على هذا المكان الخيالي وهذا الزمان الغارق في القدم اسم أرض وزمان التوراة. وهو ما عنى بالضرورة محو أمكنة وأزمنة وتواريخ شعوب هذه المنطقة من العالم.
في هذه النظرة اللاهوتية إلى التاريخ على أنه جوهر ثابت لايتغير، تمت صياغة الماضي مرة واحدة وإلى الأبد. فهو "رؤيا" لاتقبل التفسير أو التغيير حتى مع تراكم الخبرة البشرية ونشوء علوم جديدة قد تغير من رؤيتنا للتاريخ وأحداثه، بل وحتى لو كشفت معطياتُ علم الآثار عن أدلة جديدة تناقض تخيلات النص التوراتي. وهنا يتجلّى عملُ هذا النوع من الإستشراق أكثر مما يتجلى في أي مجال آخر؛ تتركز وظيفة المستشرق في تأكيد "الرؤيا" و"الإحساس" بالهدف، سواء اتخذ سمة عالم اللاهوت أو المؤرخ أو الألسني أو عالم الاثار.
البعدُ الثاني من أبعاد هذا النوع من الإستشراق، أو ما بعد- الإستشراق كما أطلق عليه كاتب أمريكي معاصر، هو البعد الإستعماري. وتمثل هذا البعدُ في الدور الذي لعبته البعثاتُ الأثرية الغربية التي تدفقت على الأرض الفلسطينية في أعقاب الإحتلال العسكري البريطاني لفلسطين في العام 1917 من كل حدب وصوب، أمريكية وبريطانية وفرنسية وألمانية. وضمت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية وحدها ثماني جماعات لاهوتية بارزة، مابين بروتستانتية ويهودية وكاثوليكية، وفي هذه المدرسة، التي نشأت في القدس منذ العام 1900، كونت مجموعة من رجال اللاهوت على رأسهم وليم ف. البرايت ونلسون جليك جمعية أطلقوا عليها تسمية "عالم الآثار التوراتي"، وأطلقوا على نشاطهم في فلسطين تسمية "علم الآثار التوراتي". وتركز اهتمام هذه البعثات الأثرية على ما يسمونها الخلفية التاريخية للتوراة.
وألهبت تقاريرُ هذه البعثات الصحفية عن الآثار الفلسطينية التي كانت تقدم في إطار توراتي دائماً وتحت مسميات غير واقعية تختلق روابط بين المدن والقرى الفلسطينية وبين أسماء وأحداث وشخصيات توراتية، مخيلة الجمهور الغربي، وصوّرت إقامة كيان استعماري يهودي كانت تجري على قدم وساق في ظل احتلال بريطاني يسلب أراضي الفلسطينيين ويدمر نسيجهم الإجتماعي اقتصاديا وسياسيا وتعليميا، على أنها تجسيد للرؤيا التوراتية والوعد الآلهي.
هذا البعدُ كان مسكوتا عنه في الصحافة الغربية آنذاك، وسكتت عنه رؤى علماء الآثار واللاهوتيين، ولم يكن مفكرا فيه حتى، ما دامت فلسطين أرضا خالية من السكان كما تقول المرويات التوراتية وتؤكد المخيلة الشعبية في الغرب طيلة الآف الأعوام التي تلت نفي اليهود منها، وكما كانت تصور لوحاتُ الرسامين وتروي كتاباتُ الرحالة الرائجة في القرن التاسع عشر. وفي هذا الجو تلازم البعدُ

اللاهوتي والبعدُ الإستعماري وسارا في سياق واحد وبتوافق تام، الأول كان يستولي، بفرق الإستطلاع والمسح والتنقيب، على الماضي الفلسطيني ويحل محله صورة ماض مختلق، والثاني كان بقواته العسكرية ووحشيته التي فاقت الوحشية النازية يستولي على الحاضر الفلسطيني ويكمل مهمة الأول على أتم وجه.
نحن إذن أمام إستشراقٍ تطبيقي تلازم فيه فرضُ تاريخ على الأرض مع إبادة سكانها الأصليين، لم يصنع صورة " تمثيلية" لهذه الأرض في الذهنية الغربية فقط ، بل واقتلع من الصورة بالقوة المادية والسطوة على مناهج البحث والمعرفة سكانها وتاريخهم المادي والثقافي في الماضي والحاضر، وحوّلها إلى أرض خالية تنتمي إلى ماضي الغرب البعيد، وها هو يعيد امتلاكها، ومنطقه في هذا أن ها هنا كانت ذات يوم إسرائيل القديمة التي قامت بناءً على وعدٍ إلهي، وها هم اليهودُ الذين جمعهم وقذف بهم من مختلف أنحاء العالم يعودون ليعيدوا إليها الحياة.
صورة هذا الإستشراق في علم الآثار تجلّت على أكمل وجه وظلت تتجلى، ليس فقط في صياغة صلات نسب للتاريخ التوراتي بفلسطين ستكشف الإيام في مابعد عن أنه ملفق وزائف، بل في كل مناسبة تكتشف فيها آثارُ مدن عربية دارسة، سواء كانت في العراق أو سوريا أو مصر أو اليمن. فهنا أيضا كان الاثاريون التوراتيون يسارعون إلى نسبة لغات وفنون وعقائد هذه المدن إلى التوراة ومروياتها ولغتها، وكأن الكون يجب أن يظل مذ خلق، أو قبل الخليقة، منسوباً إلى التوراة.
يكتب وليم ف. البرايت في العام 1933 "إن علم آثار فلسطين ليس مملا على الإطلاق، مادام المرءُ يواجه دائماً مكتشفات تربط المنقبين بالبلاد المحيطة بفلسطين. ولكن فلسطين توفر متعة أعظم من هذا لطلبة عادياتها الأثرية، فهي وطن التوراة، أرض اليهود والمسيحيين المقدسة. إن عالم الآثار في فلسطين ليس بعيدا أبدا عن التوراة، إنه مشغول عادة باكتشاف وتفسير مادة تقود مباشرة إلى التاريخ التوراتي".
وتتضمن قائمةٌ بأسماءِ مراجعَ وكتبٍ يوصي البرايت الراغبين بالتعرّف على الآثار الفلسطينية بقراءتها، أسماءً ذات دلالة على هذا الإتجاه، فهي تتضمن كتباً في تاريخ مصر وآشور وتاريخ اسرائيل وجغرافية فلسطين التاريخية والتنقيب عن التاريخ التوراتي واستخراجه، وتقاريربعثة تنقيب جامعة شيكاغو حول حفريات موقع أطلقت عليه اسم "أرماجيدون" اعتباطاً، وتقاريرصندوق استكشاف فلسطين البريطاني، ومجلة مدرسته الأمريكية، ولاينسى التوصية بقراءة كتابه المسمى "علم آثار فلسطين والتوراة" (3)، وكلها كتبٌ ظهرت واختلقت ما اختلقته في ظل غياب أي فكر نقدي مدقق، وجاءت تطبيقاً حرفياً للنهج النصِّي الذي وصفه د. إدوارد سعيد في تناول الموضوع الشرقي.
والآن، ونحن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وبعد ظهور أجيال جديدة من الباحثين وعلماء الآثار، لم تعد الأجيالُ الجديدة ترفض فقط ما غرسته هذه الموجة اللاهوتية من خيالات ولّدها الهوس النصي في النصف الأول من القرن العشرين، وترافق مع حمى احتلال فلسطين وبقية بلدان الوطن العربي، بل رفضت مناهج البحث القائمة على أسس لاهوتية، وبدأت تبحث عن الأدلة التي أخرستها واستبعدتها هذه المناهج، وتعيد تكوين صورة تاريخ واقعي لفلسطين وبقية الأراضي العربية.
ولعل الدرس الفريد من نوعه الذي أشرنا إليه في البداية، والذي قرره إستاذ أمريكي جامعي على طلبته في جامعة ولاية اوهايو جاء نتاج هذا التغير في أساليب واتجاهات البحث. ولذا لم يكن مستغرباً أن يضع هذا الأستاذ كتاب "الإستشراق" لإدوارد سعيد على رأس قائمة القراءات المقررة على طلبته، بالإضافة إلى كتب باحثين آخرين من أمثال نيل سلبرمان ووليم ديفر وجاكوب فنكلشتين وألبرت جلوك.
جاء في وصف هذا المقرر الدراسي:

"لقد تم شجب الإستشراق، وهو مصطلحٌ يصف الشطرَ الأعظم من العلم الغربي بشؤون شرقٍ غريب، وتم التشهير به بوصفه علماً جعل موضوعه الثقافات الأخرى ونفي تاريخها الثقافي شابته عيوب متأصلة. هذا المقرّرُ الدراسي سيعود إلى مكان الإستشراق الأصلي، إلى النظرة الغربية إلى الشرق الأدنى، وسيستخدم قضايا علم الآثار البحثية لتمحيص الإستشراق ودوره في نشوء منظوراتٍ معاصرة إلى الشرق الأدنى القديم. ويغطي المقرّرُ عدداً من الفترات التي تم تجاهلها على الإغلب في علم الآثار الأناسي الغربي، مثل الفترات الإسلامية والصليبية المبكرة، وتمحيص تاريخ العلم الذي ركّزَعلى بعض علوم الآثار وتجاهل بعضها الآخر. ويشدّد المقررُ أيضا على علم آثار "شعوب من دون تاريخ". وسيتناول المقرر بالتمحيص مقارباتٍ مختلفة للماضي وطرائق المعرفة، مع أخذ الشرق الأدنى كمثال بتقديم علم آثار التوراة وعلم آثار القرآن تقديماً مختصراً. وسيقرأ الطلبة أيضا الجغرافيين العرب القدماء الذين توفر كتاباتهم في التاريخ ووصف الشعوب والمنظورات النظرية نظرات بديلة في الفاعليات الثقافية والإجتماعية الماثلة كمتحجرات في السجلات الأثرية. وسيتوّج المقررُ بدراسةِ الممارسة العملية لعلم الآثار المعاصر في الشرق الأدنى، بحيث يتمكن الطلبة من تقييم تأثيرالإستشراق الدائم في علم آثار الشرق الأدنى، سلباً وإيجاباً" (3).
من الواضح أن هاهنا دراسة للإستشراق في علم الآثار، وفي علاقته مع شرقنا العربي بالذات، تصب في تيار إعادة النظر في الأسس المعرفية والمنهجية التي استند إليها المستشرقون، والتوراتيون منهم بخاصة، في تمثيل تاريخنا ولغاتنا وهوية أرضنا العربية تمثيلا كانت التوراة اليهودية فيه هي الملقن، وكان فيه علماء الاثارلايحتاجون لغير هذا الكتاب ليصنعوا تاريخاً يستجيب لمتطلبات حركة إستعمار الأرض العربية في العصور الحديثة.

إشارات:

1- Edward W. Said, Orientalism: Western Conceptions of The Orient, Penguin Books, London, 1995, p.52
2- W. F. Albright, How to study the archaeology of Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No. 52 (Dec, 1933) pp. 12-13-14
3- Dr. Joy McCorriston, Orientalism and Archaeology: Views of the Ancient Near East, Anthropology 649, Winter Quarter 2001

الفصل الأول

كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ

في مقدمة كتابه "بابل والكتاب المقدس" كتب فريدريك ديليتش متسائلا:
"ما الداعي لبذل كل هذا الجهد في تلك البلاد البعيدة والخطرة والوعرة؟ لماذا هذا التنقيب المكلف في التلال المتراكمة منذ آلاف السنين الى عمق المياه الجوفية حيث لا ذهب ولا فضة؟ لماذا التنافس بين أمم على حجز حق التنقيب في البلاد المقفرة؟ ماالذي يدفع بالناس على كلا شاطئ المحيط الى هذا الاهتمام المتزايد والاستعداد للتضحية في سبيل الحفريات في مناطق مملكة بابل وبلاد آشور؟"
وأجاب ديليش باختصار وحسم:
" إن جواباً واحداً يشير، ولو بشكل غير كاف، الى السبب والغرض .. إنه الكتاب المقدس" (1).
كانت نواة هذا الكتاب محاضرة ألقاها ديلتش في برلين في أوائل العام 1902، ثم الحقها بمحاضرة ثانية. وأثارت المحاضرتان عدداً كبيراً من باحثي التوراة الألمان، وحتى القيصر نفسه، فطلب إعادة القائهما في القلعة الملكية، مما ساهم في انتشارهما السريع واتساع دائرة تداولهما(2).
كانت المحاضرتان ثم الكتاب كشفاً جديداً؛ نسبة أصول بعض الوقائع التوراتية المهمة إلى الأدب المكتوب بالخط المسماري(3)، إلا أنهما من جانب آخر قالتا ببساطة أن العهد القديم الذي كان يُعدُّ حتى تلك اللحظة المرجع المعتمد في رؤية ما هوشرقي، أوعربي تحديدا "لايعدو كونه نسخاً للحكمة الآشورية"(4). فكانتا بذلك مساهمة في الإستشراق الألماني الذي حرّرَ بمناهج فقه اللغات المقارن مابين العامين 1830 و 1930 الرؤية العلمية من قبضة اللاهوت، وقوّضَ نزعة "المركزية الأوروبية" بنبذه نماذج الإستشراق الأقدم، وأصبح بإمكان مؤرخ كبير مثل إدوارد مبير القول "أنه بفضل المكتشفات الآشورية مابين 1885- 1908، وُضع كل شيء يعرفه ويعرفه معاصروه عن الشرق القديم بوساطة العهد القديم واليونان موضعَ شك، بل وتم تدميره على الأغلب"(5) .
لقد اكتشف فقهُ اللغات المقارن، بالإضافة إلى العلوم الطبيعية "شرقاً غير توراتي" حسب تعبير سوزان مارتشاند :" وعملت المعارفُ الجديدة بالحضارة الهندية والآشورية والسومرية على تقويض أشكال الإستشراق الأقدم"، أي استشراق الطرائف التوراتية التي سنأتي على ذكرها"، وفتح المجال أمام الباحثين لارتياد شرق غير توراتي" (6) .
ولكن كلُّ هذا لم يكن إلا جانباً واحداً من الصورة، فالإستشراقُ الفرنسي والإنجليزي، والأمريكي لاحقاً، كان يواصل تراثَ الإستشراق القديم ذاته تحت ضغط الحاجات الإستعمارية. وبدلا من أن تنقض المكتشفاتُ الأثرية الملموسة قراءةَ ألواح الحضارات القديمة في ضوءِ شبكة مغلقة من مصادر نصية، توراتية ويونانية ورومانية ورومانسية، وكتابة التاريخ وفق ما تكشف من آثار، تم تحويلها

وتكييفها لتبرهن على صحةِ هذه الشبكة النصية، وتم تشويه نصوص الألواح باعتماد عبرية التوراة مرجعاً، والتنكر للوحدة اللغوية التي طبعت المنطقة العربية بطابع واحد رغم تعدّد لهجاتها.
ويلخصُ هذه النزعة التي عُرفت باسم "المركزية الأوروبية" اللقاءُ الأول بين باريس ولندن بآثار وادي الرافدين. في هذا اللقاء "إستمدّ الغربيون نظرتهم إلى أرض الرافدين من مقالاتِ شعوبٍ أساسية في تعريف الغربيين بأنفسهم، مثل شعبي العصر الكلاسيكي، اليونان والرومان، والعبريين القدماء، أي أنهم لم ينظروا إلى أرض الرافدين بتعابير آدابها هي، بل عبر آداب خصومها التاريخيين" (7) .
إضافة إلى تشكيل "فضاءٍ أخيولي جامح" بتعبير ليندا نوكلن، أسقط فيه فنانون من أمثال ديلاكروا الفرنسي "رغباتهم السادية والشهوانية عليه" إسقاطا لايمثل فقط "سلطة الغربي على الشرق الأدنى، بل وسلطة الرجل الفرنسي على النساء" (8) .
وفي حين كانت القراءة وكتابة التاريخ في سياق الإستشراق الألماني، وتبعا لذلك في الفلسفة والتاريخ، ترفض التمركز الغربي على الذات، ظل سياقُ الإستشراق الفرنسي والإنجليزي متمحوراً حول ذاته إلى درجة أن ما كان يُكتشف يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة "لم يكن له أثر في تصحيح الإنشاءات المتخيلة"(9). وظلت الفنونُ والأبحاثُ والتوجيهاتُ السياسية ومذكراتُ المبعوثين إلى الشرق، أو "الخطاب الإستشراقي" كمؤسسة مشتركة "للتعامل مع الشرق، تعاملا يصفه ويتحدث عنه ويعلمه ويمنح النظرات إليه شرعية ويسوّي أموره ويحكمه "حسب توصيف إدوارد سعيد(10)،"تردّد صدى علاقة السلطة الإمبريالية المهيمنة آنذاك بالشرق"(11) .
فهل تغير السببُ والغرضُ اللذان رافقا ما سيأتي من عقودٍ وصولا الى زمننا الراهن، أي الحين الذي تصدر فيه عنوانُ كتاب ديليتش حرفياً حلقة نقاشية عُقدت في باريس (21 ديسمبر2004) باشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بعد الاحتلال الأمريكي للعراق؟. هذه الحلقة ركزت أيضا على العلاقة بين بابل والتوراة، ولكن في سياق معاكس تماما للسياق الذي طُرحت فيه في برلين، أي في سياق تعريف العراق بتعابير توراتية وليس العكس، فتخللتها قراءاتٌ من التوراة ونقاشٌ حول موضوع النفي والنص التوراتي، في مشهد يذكّر فوراً بمشاهد لوحات "سقوط نينوى" للفنان جون مارتن (1828)، و"موت ساردانابالوس" للفنان ديلاكروا (1827)، و"حلم ساردانابالوس" للفنان فورد مادوكس براون(1871). أي النظر إلى هذا الموضوع الشرقي عبر المراجع والإشارات النصية ذاتها التي أنشأت أشور وبابل عند اللقاء الأول، كأنما لا شيء تغيّرمنذ بداية القرن العشرين وحتى نهايته مع كم السجلات الهائل الذي أظهره التنقيب في مواطن الحضارات القديمة، وكم التصحيحات الذي محا أخطاء ارتكبها المنقبون الأوائل، سواء ما تعلق منها بهوية حضارات المنطقة العربية ولغاتها أو ما تعلق منها بعلاقة المرويات التوراتية بالتاريخ.
لم يتغير شيءٌ بالفعل تقريباً، اللهم إلا بالنسبة إلى بعثات التنقيب غير الغربية مثل البعثات السوفياتية التي نقبت في مصر واليمن، والبعثات اليابانية التي نقبت في العراق، أما بقية البعثات فقد واصلت التقليد الذي انتبه اليه ديليتش وبخاصة البعثات الاميركية والبريطانية. بل وأصبح الغرضُ والسبب المشار اليهما أشد وضوحاً كما نلاحظ في مجموعة "نصوص الشرق الأدنى القديم ذات الصلة بالعهد القديم" لجيمس ب. بريتشارد. فهذه النصوص التي تشمل نصوصاً من الموروثات المصرية والآشورية والبابلية والكنعانية والإرمية (12) والفلسطينية والحتية والسورية كما يقول جامعها: "..مهمة لفهم الشعوب التوراتية وكتاباتها .. أو عالم الشعوب التوراتية" (13)، لا لفهم هذه الشعوب ذاتها التي لم يخلقها النصُّ التوراتي بالتأكيد، ولم يعرف عنها إلا ما تعرفه المرويات الشعبية المتأخرة جداً التي تختلط فيها الوقائع بالأساطير. ولئن كان بريتشارد قد جعل هذه الشعوب المذكورة لاتُعرف إلا بوساطة توراته إلى درجة تسميتها بالشعوب التوراتية، فإن باحثاً آخرهو وليم فوكسويل البرايت، وكأنما في رد مباشر على صفحة شرق بلا توراة التي دشنها الإستشراق الألماني، إخترع علم تنقيب

أطلق عليه اسم "علم الآثار التوراتي"، وجعله لايهيمن على ما يسمونه الشرق الأدنى القديم فقط ، بل على مساحة جغرافية وزمنية واسعة إلى درجة كاريكاتورية. فأصبح المجال الجغرافي والزمني لعلم آثاره هذا يضم حسب تخيلاته :

"كل الأراضي التوراتية الممتدة من الهند إلى اسبانيا، ومن جنوب روسيا إلى جنوبي الجزيرة العربية، ويضم زمنيا تاريخ هذه الأراضي كله منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد، بل وأقدم من ذلك، وصولا إلى الزمن الراهن"(14).

وسيتواصل هذا التقليدُ الذي لايرى معظم جغرافيا وزمان العالم القديم إلا منسوباً لهذه التوراة العجيبة، كما نلاحظ في مقدمات الكتب المنشورة عن نتائج التنقيبات في فلسطين وسوريا والعراق وجنوبي الجزيرة العربية لفلاندرز بيتري والبرايت وليونارد وولي وكاثلين كينون وسانت جون فيلبي ويندل فليبس على سبيل المثال لا الحصر.

ولعلَّ من المفيد أن نلاحظ هنا أيضا، أن ما يُشبه محاولة الإستشراق الألماني الذي أقام الشرقَ في مواجهة غربٍ متمركز على ذاته، وانتزع موضوع الشرق من قبضة اللاهوت التوراتي، وأظهر نسبية معايير عالم الغرب الكلاسيكي، وطور "على أساس عقلاني ومعرفة فقهية عميقة باللغات القديمة نقداً لمراجع الغرب التوراتية والكلاسيكية"(15)، سيعود إلى الظهور بعد ما يقارب قرن من طوفان الإستشراق الغربي، على يد باحثين جدد يعيدون في الربع الأخير من القرن الماضي إنتزاع التاريخ من القبضة اللاهوتية.

ما نستنتجه من الربطِ المسبق بين سعي علمٍ مثل علم الآثار والغاية التي تسبقه، أي تأكيد " توراتية " العالم، حتى وإن سبق مروياتها بآلاف الأعوام، أن هذا الحقل من حقول المعرفة وقع فيه الباحثون منذ البداية في خطأ منهجي. وقادهم هذا الخطأ كما سنرى الى رسم مجريات للتاريخ وأحداثه في الألوف الأربعة التي تسبق الميلاد من منظور "رؤيا" مسبقة و"إحساس" بهدف تسعى إليه، منطلقها، كما وضعه وليم ف. البرايت "أن التوراة تقف في مركز التاريخ" . ويجسد هذا أفضل تجسيد قوله حين دخل القدس في العام 1919 إثر الإحتلال البريطاني "أن الأرض التي انفتحت أمام عينيه هي ذاتها الأرض التي شاهدها الآباء العبريون"(16).

وحين نقرأ التأويلات اللغوية والتمحلات العجيبة التي أوصل إليها هؤلاء الباحثون علم الآثارالمتعلق بوطننا العربي نصاب بدهشة بالغة، ليس من مرور هؤلاء مروراً سريعاً على الأجزاء المهمة من الصورة فقط، بل من الإهمال الذي يكاد يكون مريعاً لكل ما عثروا عليه ولم يجدوا فيه ما يبحثون عنه من دلائل وشواهد مؤيدة لاقاصيص التوراة كتاريخ خارج كونها روايات خيالية.

"كانوا توراتيين" بتعبير لزلي جي. هوبي "تتركز بؤرة اهتمامهم على الطبقات الأرضية التي يتوافق السكنُ فيها مع الفترات التوراتية، فكانوا يهملون أو يستبعدون أية شواهد أثرية على الأزمنة السابقة واللاحقة لهذه الفترة"(17). أي أنهم كانوا يخرسون في الحقيقة التاريخ العربي. والمثال الأكثر دلالة هو عمل نيلسون جليك الذي استكشف في ثلاثينات القرن الماضي مناطق واسعة على جانبي نهر الأردن بحثا عن البقايا القديمة، إلا أنه "لم يشر في تقريره إلى 50% من المواقع التي استكشفها لأنها تنتمي للمرحلة الإسلامية كما ذكر معاوية إبراهيم من جامعة البرموك في اللقاء السنوي أمام جمعية الأدب التوراتي في العام 1986"(18). ويمكن تشبيه هؤلاء بمن دخل مخزناً مكتظاً بالعادياتِ بحثاً عن شيء محدّدٍ في ذهنه، وحين لم يجده خرج ليعلن حقيقة غير مهمة في علم الآثار؛ لم أجدْ ما أبحث عنه. أما ما وجده فعلا فلم يعد ذا قيمة في نظره. وحتى لا يخرج الواحد من هؤلاء صفرَ اليدين اضطر بعضهم الى اختراع علاقات نسب، وتصور أحداثٍ تنسجم مع ما وردَ في التوراة حول حضاراتِ المنطقة العربية التي لم تغفل من دون سبب حكاية "حضارة" تُنسب الى قبيلةٍ بادت تدعى "بني اسرائيل". والسبب بالطبع بسيط، وهو أنه لم يكن لمثل هذه "الحضارة" وجود حيث يفترض الاثاريون التوراتيون ومن لف لفهم.

في بداية التوجه الى المنطقة العربية سجّل تاريخُ علم الآثار الكثيرَ من الطرائف المضحكة. فقد فسّرالمبعوثون المتشبعون بالتاريخ التوراتي الاهراماتِ بوصفها أهراءَ القمح التي بناها "فرعون" مصر، ورأوا في عظامٍ بيضاء على شاطيء البحر الأحمر آثارَ جيش "فرعون" (19). وثمة طرفة أخرى أبطالها الذين أرسلوا "نيبور" وبعثته الدنماركية في القرن الثامن عشر للبحث عن "آثار اسرائيلية" في سيناء وفي بلاد اليمن. فحين ذهبت هذه البعثة إلى سيناء ونقبت في جبل المكاتب، والجبل المفترض أنه جبل الطور (مع أن لفظة الطور تعني الجبل أساسا في اللغة العربية ولهجتها الإرميّة بخاصة) ولم يجد خبير اللغات الملحق بالبعثة سوى الكتابات الهيروغلفية والمنحوتات المصرية القديمة، وأرسلت هذه النتيجة الى الدانمارك، جاء الجوابُ تقريعاً ولوماً للخبير اللغوي "فون هافن" وبعثته بسبب " فشله الواضح في اكتشاف أي أثر لبني اسرائيل في سيناء"!(20).

ويمكن إيراد العديد من هذه الطرائف وما يماثلها بدءاً من القرن الخامس عشر وصولا إلى العصر الراهن. واذا كنا نعذر اولئك الهواة الأوائل، بسبب جدة البحث وعدم اكتمال الأدوات اللازمة قبل فكّ طلاسم اللغات القديمة، فأي عذر يمكن أن يكون للذين لايزالون يتسقطون حرفاً أو نصف كلمة ليهرعوا الى الجمهور الغربي صارخين "وجدنا أثراً لبني اسرائيل"، ثم يظهر فيما بعد أن الأمر لم يكن يعدو سوء تأويل بسب جهل باللغة العربية وفكرة مسبقة لا تثبتها الوقائع .

من الطرائف الحديثة ما أورده الأمريكي "ويندل فيليبس" عن تنقيباته في "بيحان" جنوبي اليمن حين قرأ اسم (علي) في نقش بالخط المسند. ولأنه لا يستطيع أن يجد صوتا مكافئا في لغته لصـــــوت حرف "العين"، ولأن التصويت العبري هاجسه الأساس، فقد لوى الكلمة بلسانه ليّا وقرأها "إيلي". وتدلنا السطورُ التالية من كتاب "فيلبس" إلى طريقة تفكير جملة من المنقبين في خرائب مدننا القديمة، والخريطة الذهنية التي يهتدون بها، فهم لم يكونوا يستنطقون ما يعثرون عليه بقدر ما كانوا يجبرونه على أن ينطق بما يريدون:

"كانت نقول د. جيمي أقدم ما عُرف حتى الآن من آثار مملكة قتبان القديمة، ويرجع تاريخها على وجه الاحتمال إلى القرن التاسع أو العاشر ق.م، وقد تضمنت هذه النقوشُ كذلك ثلاثة أسماء وجدت في التوراة أيضاً هي "نبط" وتعني بالعبرية اسم والد "يربعام" أول ملوك اسرائيل، و"علي" وهو الاسم ذاته "ايلي" وهو الراهب الأكبر الذي ورد ذكره في الفصل الأول من صموئيل الأول، و"ياغور" وهو اسم مكان في اليهودية، وقد بدت لنا العلاقة بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وأراضي التوراة أقرب فأقرب عندما سمعنا هذه الأسماء"(21).

ما يجهله أصحاب الطرائف هؤلاء، وإن كان بعضهم عرفه وتجاهله، هو الوحدة اللغوية التي جمعت بين قبائل الجزيرة العربية (العرب) رغم تعدد لهجاتها من كنعانية الى أكدية (بابلية وآشورية) الى إرميّة ، وتبلورها من ثم في اللغة العربية التي تعتبر الآن اللغة الأم لكل هذه اللهجات. وما يجهله هؤلاء أن قبيلة واحدة من قبائل الجزيرة العربية، بني اسرائيل، كانت احدى القبائل العربية البائدة التي تكلمت اللهجة الكنعانية (شفة كنعان)، حسب نص التعبير التوراتي، وانتهت قراها المنتشرة على سفوح جبال عسير بسبب التنافس الآشوري والبابلي والفرعوني على طريق العطور. وهو موضوع تناوله بتوسع الباحث العربي د. كمال الصليبي في كتابـــــه "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، وعلى أساس بحثه هذا، وهو بحث لغوي يعتمد على فقه ما يسمى اللغات السامية (أي اللهجات العربية) في قراءة النص التوراتي، وعلى دراسة أسماء الأمكنة والتضاريس الجغرافية، يمكن فقط إعادة قراءة الألواح القديمة من آشورية وبابلية وفرعونية قراءة سليمة بعيداً عن الافتراضات المسبقة(22)، وهذا ما فعله، على خطى د. الصليبي جزئياً، الباحث زياد منى، فقرأ في ضوء جديد الأسماءَ الواردة في نقوش معبد الكرنك الفرعونية وبعض أسفار التوراة، وكشف عن خطل ربط هذه الأسماء بالأرض الفلسطينية (23) .

الواضح إذن أن ثمة امتداداً لنزعة الاستشراق هنا في حقل علم الآثار، أي الميل إلى رؤية الشرق من مركز غربي وإعادة تركيبه تاريخاً وحضارة وجغرافيةً وفق رواية منقولة بأخطاء لغوية في الترجمة وفي فهم المجتمعات القديمة في غرب الجزيرة العربية التي كان فيها شيخ القرية يسمى "ملكا" وسكان المدينة "شعبا" والألف والألفين من الناس "جيشا"، والنزاعات القبلية بين أصحاب القرى "تاريخا كونيا". ولو أخذنا بهذا المنطق الذي تشيعه الترجمة اليونانية للتوراة لأصبحت لدينا شعوب بعدد القرى العربية، وملوك بعدد مخاتير القرى، ولأصبح لدينا الشعب "اللداوي" نسبة إلى مدينة اللد والشعب "الرملاوي" نسبة إلى مدينة الرملة والشعب "الخليلي" نسبة إلى مدينة الخليل، كما هو حال التوراة التي لاحظ د. الصليبي كيف يطلق فيها على سكان قرية الكوثه اسم الكوثيين، ويصبح الكوثيون أو "الكوشيون" حسب النطق العبري شعباً، ويطلق فيها على سكان قرية الفلشة اسم الفلشتيين، ويصبحون شعبا يدعى "الفلشتيم" بالعبرية .. وهكذا (24) .
إن رصد النزعة الاستشراقية في حقل علم الآثار يمكن أن يكشف عن أدلة وآلية العقلية الاستشراقية بصورة أشد وضوحا من تجلياتها في الحقول الأخرى، وبخاصة حين تصل بالإستشراق إلى ذروته، فتعلن بلا مواربة أن غاية "المعرفة" هي الإستيلاء على الأرض. ونعرف الان كيف عملت هذه النزعة على إعادة تركيب تاريخ المجتمعات الشرقية، عقائد وآداباً وفنوناً وتاريخاً، بفضل دراسة د. إدوارد سعيد الفذة، حيث " نجد الشرق يكتسب وجوده ويظهر كمجموعة من القيم ليست مرتبطة بوقائعه المعاصرة، بل بسلسلة من الصلات الثابتة كانت له مع ماض غربي بعيد"(25)، وهو ما يمكن أن يقال أيضا عن الأرض الفلسطينية، فهي لاتوجد ولاتظهر إلا بارتباطها بصلات ثابتة بنص توراتي قديم. وهذا هو في الحقيقة مايعنيه عمل المستشرق بالنسبة لوليم ف. البرايت على الأقل، فهو بتعبير تلميذه الباحث فرانك م . كروس:
"ربما كان آخرالمستشرقين المتعددي المواهب والإختصاصات، أي آخر علماء الآثار التوراتيين بالمعنى الذي فهمه البرايت" (26).
حتى الآن لم تدرس آلية عمل هذه النزعة في مجال علم الآثار تحديداً، نزعة التركيب والانشاء والسيطرة على الأرض كما على الماضي، وهي تسجل أحداث الألوف الأربعة التي تسبق الميلاد. ولم تدرس في اللغة العربية الكيفية التي قرأت بها هذه النزعة تاريخ الوطن العربي وحضاراته المتعاقبة ولغاته وعقائده وآثاره على أساس لغة وخريطة التوراة، مع أن الدراسة اللغوية والآثارية كما سنرى لا تظهر وجوداً لما يطلق عليها "أبا إيبان" اسم "الحضارة الاسرائيلية"، ذلك المسمى الذي يخترعه ويتجرأ على أن يدرج في سياقه حضارات المنطقة العربية القديمة، ويجعلها بآثارها ونصوصها وملوكها ومدنها القائمة مادياً مجرد هوامش على أطراف هذا المسمى غير الموجود خارج النص التوراتي(27)، فالمنطقة الممتدة من جنوبي وشرقي الجزيرة العربية، مرورا بوادي الرافدين وسوريا فمصر وحوض المتوسط مكتظة بحضارات ذات هويات محددة ولهجات ذات أصول مشتركة، ولا يوجد في تسلسل تاريخها ثغرة يمكن أن تحتلها الروايات التأويلية التي يلجأ إليها عادة قراء التوراة.
في هذا الصدد يقول د . توماس تومسن :
"أقام الباحثون التوراتيون قبل قرن من الزمان عالما خاصا بهم، ومن جانبه أقام هذا العالم سياقهم الخاص بهم لنصوصهم، وهو سياق استمدوه من التوراة نفسها، وقارب أن يكون شرحاً لمرويات توراتية منتقاة. ولأنه لم يكن معروفاً عالمٌ قديم آخر لفلسطين، فقد بدا هذا التقديم التقليدي لتاريخ أفضل من أن لايكون هناك تاريخ على الإطلاق. ولكن السياق التاريخي الذي ظهركان افتراضاً يفتقر إلى التمحيص النقدي، ويسلم فقط بأن التوراة أسيئت قراءتها ... ولم يبدأ علم الآثار إلا منذ وقت قريب جداً بتكوين تاريخ لفلسطين مستقل عن هذا التحيز اللاهوتي .. ولم تعد مقبولة أو من الممكن قبولها، تلك النتائج التي خلص إليها اولئك الذين علّموا الجيل الحالي، وشكلوا أسسَ خطابِ كلّ ما يُكتب

تقريبا في علم الآثار والتوراة حالياً، فقد تم دحض محاولاتهم إيجاد تكامل بين نتائج علم الآثار الفلسطيني والبحث التوراتي ودراسات الشرق الأدنى القديم في نطاق جميعة أو أطروحة مركّبة من حيث المبدأ والتفصيل"(28) .

ولعل أسوأ ما فعلته هذه النظرة الإستشراقية أنها حرصت على تفتيت الوحدة اللغوية التي تمتعت بها المنطقة العربية منذ أقدم عصورها (أخذة كش هي أقدم نص عربي باللهجة الأكدية مكتوب بالمسمارية اكتشف حتى الآن ويرجع تاريخه الى الألف الثالثة ق . م)، (29).

وجاء ابتكارُ مصطلح "اللغات السامية" بوصفها لغات تحدثت بها من سماها المستشرق النمساوي اللاهوتي شلوتزرفي العام 1781 "شعوبا سامية" ترسيخا لهذا النهج في سياق "الرؤيا" و "الإحساس" بالهدف. فقد ظن صاحب هذا المصطلح أن الأقوام الذين كان مهدهم الجزيرة العربية يتحدرون من أحد أبناء نوح (سام) كما جاء في جدول الأنساب التوراتية، وهي فرضية لاتستند إلى حقيقة تاريخية بل إلى التوراة، وهذه لاتعد تاريخا معتمداً(30). وهكذا حل مصطلح "أسرة اللغات السامية" محل مصطلح "أسرة اللغات العربية" الذي واجهته كما سنرى عقبات وعراقيل خيالية اصطنعتها مصالح سياسية ومطامع استعمارية في تفتيت الوطن العربي لا الأبحاث العلمية. وظلَّ العلماءُ الغربيون طيلة القرنين الماضيين يعتبرون لهجات العربية، من أكدية وكنعانية وإرميّة وحميرية، لغات، رغم إقرارهم بالاصل الواحد. وقادهم هذا الى تأويلات ومعميات لم تبدأ بالانقشاع إلا بانصياع بعض العلماء لحقيقة أن هذه اللهجات لا يمكن أن تفهم حقاً إلا في ضوء معاجم اللغة العربية القديمة، وهي وظيفة لم يكن واضعو هذه المعاجم أنفسهم يحلمون بها(31).

لاحظ ديلتيش أن جوابه عن أسباب الاهتمام بالتنقيب في الأرض العربية غير كافٍ، وهو محقٌّ في ذلك، فهنالك أسباب أخرى لا تتضح إلا إذا تابعنا هذا الولع الغريب بإخراس الهوية العربية لكل ما يرجع إلى الآلاف الأربعة ق. م من قبل علماء آثار يعتبرون أنفسهم من الباحثين، حتى لو كان هذا حجرا أخرجوه من أعماق الجزيرة العربية، وكأنهم يودون القول أن هذا الشعب العربي الذي ينتشر من الأطلسي وحتى جزيرة دلمون البحرينية ومدينة صورالعمانية قد ولد من الهواء فجأة قبل بضع سنوات، ورأفة به أعطوه بضعة قرون. ولمثل هذا الولع تفسيره بالطبع، وهو قطع العربي المعاصرعن هذا العمق التاريخي الذي هو عمقه بالذات وليس عمق البولندي والروماني والهنغاري والأثيوبي والبريطاني والأمريكي، وتحويل العربي الى مجرد طارىء على أطراف الحضارات بينما هو في الحقيقة أحد صناعها وناشريها البارزين .

2

وصل الجامعيُّ البريطاني ماكس مالوان إلى جنوبي العراق في العام 1925، بعد إعداد دراسي لاعلاقة له بعلم الآثارالتطبيقي، ملتحقاً ببعثة التنقيب التي يشرف عليها ليونارد وولي كمساعد ومتدرب. ويعترف مالوان في مذكراته بأن المصادفات وحدها هي التي قادته الى أن يُصبح منقباً عن الآثار. فبعد أن أكمل امتحاناته في جامعة اكسفورد نهض متأخراً في صباح يوم جميل من

أيام الصيف وراح يتمشى عبر الساحة المربعة بحثا عن طعام الفطور، وهناك التقى مصادفة بقسيس كنيسة الكلية وكان عالماً بارزاً في اللاهوت.
قال القسيس: "مالوان .. ما هي خططك للمستقبل؟"، فاجاب مالوان: "ربما أصبح موظفاً في الهند أو أدرس القانون اذ أن أبي لا يريد أن أعمل في التجارة"، فقال " وأنت ما الذي تريده؟ "، قال مولوان "أريد شيئاً واحدا هو الآثار، فقد شغفتُ بهذا الموضوع وأنا أستمع الى جاردنر يتحدث عن اكتشافاته في أولمبيا، أريد الذهاب الى الشرق والتنقيب عن الآثار هناك". وعندها قال القسيس "اذهب وقابل عميد الكلية فقد يساعدك".
وسارت العملية حسب رواية مالوان بسهولة، و"وافق وولي على التحاقي بالعمل بعد مقابلتي إياه على الرغم من افتقاري التام للخبرة". وفي الوقت الذي دهش فيه وولي عندما اكتشف أن مالوان كان قد اشترى تقريره الأول عن "اور"، والخاص باكتشاف معبد القمر، وقرأه من دون أن يعلم السبب الذي جذبه الى شراء التقرير، كان السبب، كما يقول مالوان، اسم المؤلف؛ كان "مؤلفه يحمل اسم وولي، وهو اسم بطلي نفسه لاعب الكريكت الشهير في فريق كنت"!(32) .
وهكذا قادت سلسلة من المصادفات السريعة مالوان إلى "أور"، مؤمناً كما يقول بأنه "إذا وُلد المرءُ في برج ملائم فإن الفرصة تواتي من هم مستعدون لها، وينبغي لكل شخص أن يُحكم الامساك بحظهِ بكلتا يديه"(33).
ولكن المثير والمدهش، بعد كل هذه المقدمات، تلك العبارة التي سجّلها مالوان بعد وصوله بفترة قصيرة حين كتب، "كانت الرفوف في غرفة الجلوس تضم مكتبة صغيرة، ولكننا كنا آنذاك نصنع التاريخ ولذا لم نكن بحاجة الا لمصادر قليلة"(34).
ولا نشك أن المفيد والمهم، ونحن نتحدث عن هذا النموذج الإستشراقي، هو أن نستقي معلوماتنا من مذكرات مالوان عن نوعية "صناع التاريخ" هؤلاء، وعن نوعية مؤهلاتهم، وما هي الأفكار المسبقة التي كانت تشغلهم وهم ينقبون عن آثار حضارة سبقت زمنهم بستة الآف عام.
لنأخذ مالوان نفسه؛ فبعد سلسلة المصادفات التي قادته الى الالتحاق بالبعثة، نجده ينطلق منذ البداية من فكرةٍ مسبقة في ذهنهِ وهي أنه ذاهبٌ الى "أورالكلدانيين" (35)، ومثل هذا المنطلق ذو دلالة على القصد المسبق والقائم على خطأ ظل يربط طويلا بين " أور" و" اوركسدريم " وهذه الأخيرة هي الاسم الوارد في التوراة والذي ترجم في العصر اليوناني خطأ الى "**أور** الكلدانيين" من دون ملاحظة أن قبيلة (كلدة) التي أنشأت بابل الحديثة لاتمت الى "**أور**" السومرية بصلة(36).
وسنجد في ما بعد أن هذا الخطأ في الترجمة يوجه بوصلة البعثة الأثرية في "**أور**" ويجعلها تصرف جهداً ووقتاً في البحث عن "مدينة خيالية" أخرى بين أنقاض "أور" السومرية. ولا يستبعد أن تكون هذه البوصلة الخاطئة قادت المنقبين بعيداً عن أشياء اكثر جوهرية مما خرجوا به، وكان يمكن أن تظهر لولا هذا التصميم المسبق .
الشخصية الثانية في هذه البعثة، والمثيرة للعجب، هي شخصية "الزميل المبهج الأب س . باروز اليسوعي من كامبيوت" حسب تعبير مالوان. كان هذا الزميل المبهج "يجيد اللغات الشرقية القديمة مثل السومرية والبابلية والفينيقية والآرامية والعبرية إلا أنه لم يكن يجيد العربية"، فقد كان"يجد صعوبة في استعمال اللغة العربية، وكان يواجه صعوبة أكبر في طلب إناء الماء الحار بالعربية (37).
مثل هذا الشخص كان عمله المفترض دراسة النقوش المكتشفة، فكيف حدث وأن تصدى لدراسة نقوش حضارة تقع في أرض عربية من يجيد هذا العدد من اللغات ويجهل العربية؟.
اذا اسستثنينا السومرية، رغم أن بقاياها قائمة حتى الآن في اللهجات الشعبية العراقية الدارجة (38)، فكيف يمكن فهم النقوش سواء كانت بابلية أو كنعانية أو إرمية أو عبرية من دون المام باللغة العربية الأم؟.

لم يُنتبه الاّ حديثاً إلى أن قراءة هذه "اللغات" في ضوء العربية هو الكفيل بحل معضلاتها، مع أن الذين ذهبوا للتنقيب في أمريكا اللاتينية اهتموا أولا بدراسة لغة السكان المحليين هناك، ولولا ذلك لما تسنى لهم فهم نصوص المايا والأزتك والأنكا، ولما ظهر كتاب "المايا المقدس" المسمى "كتاب المجلس". والذين ذهبوا الى الصين والهند كان أول ما فعلوه هو الإلمام باللغة الصينية والسنسكريتية .. فلماذا تستبعد العربية وحدها؟!.
السبب بالطبع يرجع الى الفكرة المسبقة أيضا، تلك التي حملها هؤلاء معهم ويحملونها حتى الوقت الراهن، ألا وهي أن هذه اللغات المذكورة ليست من العربية في شيء، وإن كانت لها صلات بالعبرية! تلك التي لم تظهر إلى الوجود إلا في وقت متأخر جدا كلهجة من لهجات الكنعانية تفصل بينه وبين زمن هذه اللغات بضعة ألوف من السنين حسب اعتراف التوراتي البرايت ذاته (39).
يضاف إلى هذا التقرير المسبق بأن "العرب" مع لغتهم لم يوجدوا على سطح هذا الكوكب إلا منذ وقت قريب. وتجاهل هؤلاء أنه كان عليهم أن يخبرونا من أي كوكب جاؤا، أو إن كان للعرب وجود حتى .
إذاً، جاء صاحبنا الأولُ الى علم الآثار مصادفة، وجاءه الثاني وهو لا يفقه من العربية حرفا رغم أنه اشتغل بحل رموز لغة ذات علاقة بالعربية، فقد ماتت " السومرية " كلغة محكية مع مطلع الألف الثاني ق.م، وصارت العربية بلهجتها الأكدية هي السائدة(40). هذا مع ملاحظة تزايد الأسماء (السامية) العربية، في سجلات الألف الثالث ق.م في المدن الجنوبية السومرية (41).
أما صاحبنا الثالث، ليونارد وولي مدير البعثة، فقد كان أمره أشد غرابة، فهو حسب قول مالوان "كان مجتذبا بذكريات هائلة للعودة الى "**أور**"، فهي مدينة قديمة مبجّلة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعهد القديم، وكان وولي قد دُرّب ليصبح عالماً لاهوتياً، وكان من المقرر في وقت من الأوقات أن ينضم الى الكنيسة" (42).
وتحت سيطرة هذا الوهم بالعلاقة بين "**أور**" السومرية و "أوركسدريم" التوراتية، يكتب مالوان :
" لقد جعلتْ هذه التنقيباتُ مرحلة "تارح" أبي ابراهيم قريبة الى الفهم، لأن حرّان مثل "أور" كانت مركزاً لعبادة القمر، وكان وولي يأمل دائماً في أن يكتشف بعض الإشارات الى إبراهيم رغم أن اسمه لم يظهرأبداً في خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر الى فلسطين"(43)!
"صناع التاريخ" هؤلاء إذاً، كان لديهم شيءٌ ما رسمته التوراة بنسخها المترجمة في أذهانهم. وهكذا فحين نقبوا في الحي السكني لمدينة "**أور**" معتقدين أنه لا بد أن يكون الحيّ الذي عاش فيه ربُّ العائلة ابراهيم ولم يجدوا له أثراً، علل مالوان الأمر بالقول أن إبراهيم "كان شيخاً ثرياً من سكان"**أور**" ولكنه لم يكن شخصاً فريد الأهمية"(44).
ويروي مالوان أن خبيرنقوشهم ظنَّ خطأ أنه قرأ اسم ابراهيم على لوح طيني، "فتسرعتُ بالكتابة إلى صديق في انجلترا وذكرت الاكتشاف، وعندما علم وولي أنني فعلت ذلك وبّخني بشدة، وجعلني أرسل برقية التمس فيه من صديقي الصمت حتى يحين وقت إعلان النبأ .. إلا أن ذلك الوقت لم يأت أبداً" (45).
وتلخص العبارة الأخيرة نتائج كل التنقيبات التي جرت في الوطن العربي، اذ لم يحمل أي منها النبأ الذي كانوا يبحثون عنه حتى هذه اللحظة، ورغم هذا، وبإصرار لا معنى له صارت "أور" بمعبدها وحيّها السكني وألواحها المسمارية هي الوطن الأصلي لنبي العهد القديم، مع أن كل ما كشفت عنه التنقيباتُ والقراءاتُ حتى أعمق طبقة استيطان وصلتها (4000 ق . م) لم يقل شيئاً من هذا.
وسنجد الأمرنفسه يتكرّر لدى المنقبة البريطانية "كاثلين كينون" تقريباً، وإن كان مصحوباً بالشكوك في صحة روايات التوراة المترجمة. فهذه الباحثة التي نقبت حتى العام 1967 في فلسطين مشبعة بأفكار مسبقة مصدرها التوراة، وجدت أن كل نتائج تنقيباتها تدحض الادعاءات المسبقة التي كان

آثاريون تقليديون قد نشروها، وأعلنت ذلك ببساطة. إلا أنها من جانب آخر لم ترد أن تصدم المشاعر والأهداف، أو قل الأوهام التي تحتشد بها معاهد البحث التوراتية وأذهان الجمهور العريض الذي نشأ على أساطير أوائل المنقبين، فقدمت من جانب، وفي كتاب واحد، أدلتها على بطلان هذه الادعاءات، ومن جانب آخر، اعتبرت ما وصفته من مدن كنعانية وأسوار وقلاع هو البيئة الحضرية التي تسرّب اليها من يطلق عليهم الغربيون تسمية "الاسرائيليين" تدريجياً، رغم أن ما استخلصته لا يقود إلى هذا الجانب الثاني. فكيف جاز لها أن تلصق هذا الاستنتاج الصاقا؟.

3

في كتابها الأول، الذي نقحته عدة مرات، حرصت "كاثلين كينون" على وصف نتائج التنقيبات التي أجرتها في بعض المواقع الفلسطينية، وبخاصة في "أريحا" و"القدس" وصفاً موضوعياً. كان اسم الكتاب "تنقيبات الأرض المقدسة".
لم تتردد " كينون" في تسجيل ما توصلت اليه رغم مخالفته للأفكار الشائعة والمصطلحات التي احتشد بها مايسمى"علم الآثار التوراتي" طيلة المائة عام الماضية. وأظهرت تنقيباتها أن مايسمى "اصطبلات سليمان" في ما زعموا أنه موقع "مجدو" لم تكن ذات علاقة بسليمان ولا هي اصطبلات أيضا. كما أظهرت أن التدمير المزعوم الذي ألم بأريحا في التوراة، والذي اعتبره التوراتيون دليلاً على دخول "يوشع"، لاوجود له (من المفيد ملاحظة أن اسم (أريحا) غير موجود في التوراة بل الموجود اسم مدينة (جرش)، أو جيريشو حسب التصويت العبري، وهو اسم شائع في عدة مناطق عربية بدءا من نجران في الجزيرة العربية (46)، وصولا الى "جرش" شرقي الاردن الماثلة آثارها حتى الآن. ولعل الإضافة الحاسمة لكينون هي أنها اثبتت بتنقيباتها أن القدس التاريخية تقع خارج أسوار القدس الحالية (47).
ولم تخالف "كينون" بذلك أساطير الآثاريين التوراتيين المتراكمة، والتي تغلغلت في نسيج الثقافة الغربية فقط، بل خالفت والدها بالدرجة الأولى، وكان قد نشر كتابا تحت عنوان "التوراة وعلم الآثار" في العام 1940، محاولا صناعة خلفية مكانية وزمانية للتوراة بعد ازدياد سيل المعلومات عن تاريخ منطقة غربي آسيا" (48).
وبالطبع من المنطقي الاستنتاج أن هذا النوع من التنقيب وبمعطياته هذه يقودنا الى النتيجة التي لا مهرب منها، وهي أن كل النسيج الروائي لأحداث التوراة لم يجد في فلسطين دليلا ماديا واحداً يؤيده. إلا أن "كينون" على موضوعيتها وإخلاصها لما تكشف لها لم تجرؤ على الوصول إلى هذه النتيجة، فاتبعت أسلوباً غريباً عن البحث العلمي في رواية قصة مكتشفاتها بأن زاوجت بين المعطيات الأثرية التي تحكي قصة مختلفة وبين قصص التوراة. وأسلوبها في ذلك هو أن تتحدث عن المعطيات المادية التي وفرها التنقيب (المدن والأسوار والمعابد والعاديات) ثم تنتقل لتروي القصص التوراتية من دون اهتمام بما إذا كانت المعطيات المادية تلك ذات علاقة بهذه القصص أم لا.

مثلا حين تتحدث عن المعابد الكنعانية في "بيسان"، أي بيت الاله سن (إله القمر)، تلاحظ، بعد أن ألصقت بها اسم "بيت شان"، أنها "قد تكون" تلك التي عرضت فيها جثة شاؤول وجثث أبنائه، وأن معبد عشتار "قد يكون" هو المعبد الذي حُفظ فيه درعه .. وهكذا (49). وبهذه الطريقة، يتولد انطباعٌ مفاده أن البحث الأثري يدعَم الرواية بينما لا توجد صلة بين الإثنين في الحقيقة.
واتبعت "كينون" الأسلوبَ نفسه في المحاضرات التي ألقتها في جامعة اوبرلين في ولاية اوهايو الأمريكية في العام 1976، فحاولت أن تلخص تلخيصاً وافياً نتائج أعمالها مع محاولة اعتبار ما اكتشفته، أو ما تكشف لها، هو الاطار البيئي لما أطلقت عليه تسمية "العصور الاسرائيلية"، مع أن هذا الاطار نفسه في لغته ومدنه ومدوناته لم ينبىء عن لمحة واحدة تبيح مثل هذا الربط.
تتحدث "كينون" عن الاضطراب الحضاري الذي ألمّ بسواحل المتوسط مع نهاية الألف الثالث ق. م، والذي امتد من رأس شمرة (أجَرت) شمالا حتى مصر، والذي ذُكرفي المدونات على أساس أن سببه "هجوم شعوب البحر" من جهة، وتوافد من يطلق عليهم اسم العموريين وهم قبائل تتكلم العربية (الساميةالغربية حسب مصطلح كينون).
وفي وسط هذا الاضطراب المثبت في المدونات القديمة، تزج "كينون" باسم "الآباء الإسرائيليين" بالقول "من المعروف أن الآباء ينتسبون الى خلفية لها علاقة بالعموريين، وبعض العلماء يقول أنهم عاشوا في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م. فاذا قبلنا أن مرويات الآباء تعود الى هذه الفترة فان حياتهم تكون في منطقة العموريين البدوية وشبه البدوية، ويجب أن يكونوا على معرفة بالحضارة المدينية للممالك المجاورة، ويمكننا أن نضرب أمثلة على تلك الحضارات المدينية : حضارة ماري على نهر الفرات وحضارة رأس شمرة على ساحل المتوسط حيث اثبتت التنقيبات وجود حضارات متميزة"(50).
إن وجود هذه الخلفية وهذه الحضارات لا يثبت وجود علاقة لها بمن يسمون "الآباء"، أو بالوجود التاريخي لهؤلاء أصلا، إلا اذا توقفت معطياتُ البحث الأثري عن إعطاء النتائج ولجأنا الى القصص. وفي هذه الحالة نكون قد خرجنا من دائرة المعرفة الى دائرة التصورات الموروثة بكل أخطائها، والدليل على هذا يمكن أن نستمده من "كينون" نفسها، فهي لا تترك مجالا للشك في أن مايسمى "علم الآثار التوراتي" عجز عن إيجاد شواهد تدعم افتراضاته المسبقة.
تقول في محاضراتها التي جمعتها في كتاب تحت عنوان "التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة" حول مسألة تاريخية تسلل "الاسرائيليين" الى فلسطين، وهي تصرُّ على تسميته تسللا وتسرّبا لأنها لم تجد شاهداً واحداً يؤيد قصص الغزو والتدمير ناهيك عن قيام ممالك مزعومة في التوراة في منطقة مكتظة بالامبراطوريات، أن هناك طريقين يفترض أن يكون التغلغل قد تم عبرهما: الأول الجهة الجنوبية، وعن هذه الجهة تقول :
" لا توجد شواهد أثرية مؤكدة، ففي نهاية القرن الثالث عشر ق.م تعرضت المدن الفلسطينية لتدمير شامل، ولكن هذا التدمير كان جزءاً من تدمير شمل المنطقة الممتدة من الأناضول حتى مصر. لقد كان هذا التدمير، الذي أدى إلى سقوط الكثير من القوى العظمى في المنطقة، سببه اجتياح شعوب البحر الذي تشير اليه النقوش المصرية، وأنه تم في حوالي العام 1990 ق.م. وتم العثور على الكثير من الشواهد الأثرية على ذلك التدمير في جنوبي فلسطين في كثير من المواقع التي تعود إلى حوالي 1200 ق. م، ولكن لا يوجد لدينا دليل نستطيع أن نقرر في ضوئه أن ذلك التدمير كان من أعمال شعوب البحرأو نتيجة لتسرب "الاسرائيليين" أو حتى نتيجة الحملات المصرية ضد شعوب البحر" (51).
أما عن التسرب عن طريق الشرق فتقول "كينون" :

" .. أما ما يتعلق بالدخول من الشرق فالمناقشات الحديثة أثبتت بطلان كل التفسيرات التي أقترحت حول طريق "الخروج"، والتفسير الوحيد الذي أمكن قبوله هو الذي طرحه الأب دوفو، والذي يتلخص في أنه "لا يوجد طريق ومن العبث تتبعه" !
لقد "اجتهد علمُ الآثار ليجد شاهداً يعود الى فترة طريق الخروج والدخول من الجهة الشرقية لفلسطين تقدمه المواقع الاثرية، وكانت نتيجة المسح الأثري الذي قام به "نيلسون جليك" أنه أشار الى فقر المنطقة بالمستوطنات خلال الجزء الأكبر من الألف الثاني ق. م، ولم يعثر على شاهد مؤكد يشير الى مستوطنات حتى القرن التاسع ق. م تقريبا أو أحدث قليلا ..." (52).
أما عن اقتحام (اريحا) المزعوم فتقطع " كينون":
"كل ما قيل وأصبح من المتداول الشائع منذ الثلاثينات وظهر في نصوص عدد كبير من الكتب قد ثبت بطلانه الآن تماما" (53).
هنالك إذاً تقدم في أبحاث " كينون" رغم أنها عبّرت في محاضراتها عن الرغبة في الربط بين التوراة والمكتشفات الأثرية كما هو شأن الذين سبقوها. ولكن مثل هذه الرغبات بدأت تأخذ طريقها نحو الزوال مع الإنتقال الى تركيب تاريخ وجغرافية المنطقة وفق المعطيات الثابتة من نصوص وآثار معمارية ودراسات الجغرافية الاقتصادية والبشرية والأحوال المناخية وليس وفق الافتراضات.
لقد منع خطابُ الإستشراق التوراتي علمَ الآثار في منطقتنا من تقديم الاستنتاجات المنطقية المترتبة على المعطيات المتكاثرة. وبدلا من أن ينشغل عالم الآثار والباحث في تركيب الصورة من شظاياها ظل مشغولا بشيء أخر، وهو مطابقة الشظايا مع مخطط صورة مفترضة مصدرها روايات التوراة.
ولم تنجح هذه الطريقة حتى الآن، لا على صعيد الطبوغرافيا ولا على صعيد اللغة، ولا على صعيد تسلسل الاحداث، ولا الثوابت التي لا مفرمن الاعتراف بها. ولهذا نعتقد أن الربط بين علم الآثار والتوراة، أو أي مرويات مسبقة، أوقف نمو هذا العلم، وشغل الباحثين في مناقشات عجيبة تشبه تلك المناقشات التي أثارها صاحب الفندق السويسري البولندي الأصل إريخ فون دينكين حين ربط بين المنجزات الحضارية الانسانية في عدد من المناطق : مصر والمكسيك والهند وافريقيا وهبوط كائنات فضائية على الأرض في الأزمنة السحيقة (54) .

4

تقدم تجربة عالم المسماريات الايطالي جيوفاني بتيناتو مع أرشيف "إبلا" المكتشف في شمالي سوريا في العام 1968 أكثر النماذج حداثة في مجال آليات عمل الاستشراق في علم الاثار، أي الانطلاق من فكرة مسبقة، وإجبار النصوص والمعطيات الأثرية على أن تقول ما يفكر فيه المستشرق، ولكن مع استثناء وحيد جعل هذه التجربة أقل حظاً من مثيلاتها في السنوات المبكرة من هذا القرن، أو بعبارة أخرى مع استثناء جعل حظ "بتيناتو" سيئا في نطاق حقل اختصاصه.
في العقود الأولى من القرن العشرين كانت الساحة خالية تقريبا إلا من المجموعات المندفعة للبحث في ماكانوا يسمونها "أرض التوراة". ولذا أقيمت مماثلاتٌ وعُقدت مقارناتٌ ونُسجت صلاتُ نسبٍ

على عجل، وفرضت مصطلحاتٌ ومفاهيمُ وتواريخُ على المنطقة العربية فاختفى منها تماماً كل ما يمت للعرب بصلة من لغة وثقافة ومدن على امتداد الالاف الأربعة المثيرة ق. م، والتي شهدت قيام عدد من الحضارات العربية على الأرض العربية (اليمانية والأكدية والكنعانية والمصرية القبطية)، ومن هنا كان حظ المستشرق عظيماً بغض النظر عما جاء به. المهم أن يجيء بما يؤكد روايات التوراة ولو تخيلا.

ولكن الوضع اختلف في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبخاصة في الستينات والسبعينات والثمانينات منه، وهي العقود التي بدأت تشهد تطورَ البحث الآثاري واللغوي، وتزايد نسبة ما تُرجم من ألواح الحضارات المذكورة، وتحسّن طرائق القراءة، وتعدد مدارس البحث الذي لم يعد حكراً على معاهد وجمعيات تطلق على نفسها مقدما اسم معاهد وجمعيات "توراتية" متخصصة في تطويع مجال البحث لينسجم مع خرائطها الورقية والذهنية.

في مثل هذا الجو جاء اكتشافُ أرشيف "إبلا" في القصر الملكي بعد تنقيبات متواصلة في تل مرديخ (بين حلب وحماه السوريتين) قامت بها بعثة إيطالية برئاسة باولو ماتييه منذ العام 1964. اكتشفت في البداية مجموعة من اثنين وأربعين لوحاً بالخط المسماري في العام 1974، وحضرعلى جناح السرعة عالم المسماريات جيوفاني بتيناتو لقراءة الألواح واستنطاق نصوصها، ولكنه أعلن في البداية يأسه من فهم أي شيء على الاطلاق، وقال لزملائه في البعثة "يبدو أن هذه الكتابة شبيهة بكتابات وادي الرافدين من عصر تل فاره .. ولكنني لم أفهم منها شيئا على الاطلاق .."(55).

إلا أنه واصل التأمل والتنقيب والبحث فتوصل الى أن ما أمامه "لغة من لغات السامية الغربية بالغة القدم تظهر إلى الضوء لأول مرة، وهي تختلف عن اللغات السامية الرئيسية الأقرب إليها زمنيا، في التسميات بخاصة، مثل الأكدية والعمورية. وأظهرت هذه اللغة نسبا مباشرا بلغة أوغاريت، وحتى بالفينيقية والعبرية"(56). واختار بتيناتو تصنيفها تحت مسمى "الكنعانية الأولى"(57).

وتسارع اكتشاف الألواح حتى وصل العدد الى ما يقارب 16400 لوح طيني متصلب بتأثير النار. وتقصت البعثة الأثرية الطبقات الأرضية للموقع فوصلت الى أن اقدمها يرجع الى الأعوام 3500 - 3000 ق. م ، ويقع القصر الملكي والأرشيف في الطبقة الثالثة التي تؤرخ ما بين 2400 -2000 ق. م .

توجه الاهتمام بالطبع الى تقصي وضعية هذه المدينة التي لم يكن علماء الآثار يجهلون وجودها، وإن ظلوا زمنا طويلا لا يعرفون موقعها، إذ ورد اسمها بشكل واضح في سجلات أكدية ترجع الى منتصف الألف الثالث ق.م، وفي سجلات سومرية معاصرة لها، وفي سجلات بابلية وأشورية وفرعونية في عصور أحدث. ولكن بتيناتو كان مشغولا بشيء آخر؛ كان يمسك بالألواح المسمارية واحداً بعد الآخر باحثاً عن أي لفظة توحي بقرابة بلفظة توراتية، أو أي اسم ذي علاقة بتوراته. ونستطيع أن ندرك ما يجره هذا على البحث الأثري إذا تخيلنا عالم المسماريات هذا منكباً على البحث فقط عن مثل هذه الألفاظ والأسماء، فيلقي وراء ظهره باللوح وراء اللوح ما دام هذا اللوح قد فشل في خدمة غرضه.

وهذا هو ماكان يشغله بالفعل ، فقد صدّر قراءته بما يلي:

"إن ما يحمل أهمية خاصة لطلبة علم الآثار السوري- الفلسطيني، وللعهد القديم أيضا، أن نقوش الألف الثالث ق.م في "إبلا" توثق وجود مدن مشهود وجودها في الألف الثاني والأول ق.م، مثل مدن "سالم" مدينة ملكي صادق ، و"حاصور" و "لاخيش" و "مجدو" و "غزة" و"سينا" و "جوبا" .. إلخ " (58).

وجرياً على عادة تلقط أي حرفٍ في نقش أو مقطع في كلمة يحملان جزءاً من كلمة واردة في التوراة، يقول بتيناتو أنه اكتشف بين أسماء ملوك "إبلا" اسما يذكر بالتوراة فورا، اسم اعتبره أكثر اكتشافته أهمية :

"إنه إبريوم بالتأكيد، الذي ورد منقوشاً " إب- يورو- يوم "، وهناك قراءتان محتملتان لهذا النقش الذي يدهش تماثله بالفعل مع اسم أب الساميين "إبر" وفقا لسفر التكوين، أي "عابر" ، أو يمكن أن يقرأ على أنه "إبري يوم" الذي يظهر حتما أنه "عبري" ، ومن بين كلا الإحتمالين أميل إلى اختيار الثاني"(59).
ولم تتوقف تخمينات عالم المسماريات هذا عند هذا الحد، بل خرج بأشياء أخرى، مثل أنه وجد أن "ملوك إبلا كانوا يُمسحون بالزيت، تماماً كما يُفعل بملوك اسرائيل"(60)، ليخلص من كل هذا إلى "أن الباحثين اعتادوا حتى الآن في تفسير الظواهر التوراتية على استخدام مدينة "ماري" كخلفية، وهاهي "إبلا" تقدم إليهم خلفية إضافية أيضا، وستحظى باهتمامهم لهذا السبب"(61).
وكانت قد سبقت هذا التقديم محاضرات يسافر من أجلها بتيناتو ويتنقل من مكان إلى مكان، فيعقب عليها المختصون في اللغات القديمة ويثيرون شكوكاً عميقة في طرائق معالجته للمادة المتوافرة بين يديه. من الذين ردوا تفسيراته مبكراً دبليو ج . لامبرت، حين لاحظ أن بتيناتو "يعامل ترجمة كل سطر بين يديه كما لو أن ترجمته مؤكدة 100%، ويبني على ترجمته مايشاء بحرية بالغة"(62).
وأثيرت بالطبع ضجة صحافية كبيرة في ضوء هذه النتائح "الباهرة"، وبخاصة في الصحافة الأمريكية حيث تلقفت الأوساط التوراتية ما خرج به بتيناتو، وبدأت تنسج قصصاً جعلت من "إبلا" عاصمة إسرائيلية قديمة ! . إلا أن هذه الضجة لم تدم طويلا اذ تصادم مع بيتناتو هذه المرة زملاؤه في البعثة الآثرية، وبخاصة قاريء الكتابات القديمة آلفونسو آرتشي الذي كشف بالتفصيل، في مقال بالإيطالية (1979)، عن إساءة التفسير والتعجل، بل والأخطاء في قراءة النصوص جعلت بتيناتو يظن أن لاحقة " يا " في بعض أسماء الأشخاص تعني الاله "يهوه" ، وأسماء بعض السبائك المعدنية أسماء مدن، وإن "لوجال" السومرية تعني "القاضي" في لغة إبلا، وهو منصب يماثل منصب القاضي الحاكم في التوراة .. إلخ . وأنكر آرتشي في ضوء ما لديه من النصوص أي تماثل بينها وبين النصوص التوراتية، لامن حيث اللغة ولا من حيث أسماء الأشخاص ولا التقاليد ولا التزامن، وأخذ عليه افتقاره للخبرة في قراءة العلامات المسمارية، ومسمارية " إبلا " بخاصة ، وجرأته على تغيير نظام كتابة العلامات في سبيل الخروج باسم يؤيد ما يفترض وجوده، فثار بتيناتو ثورة عارمة وكتب ضد زميله مقالا مهينا لجأ فيه إلى الشتائم بدل التقيد بالمعطيات التي تؤيد مزاعمه. وبلغ الحنق بهذا الذي حاول أن يدخل لغة"إبلا" وثقافتها وعلاقاتها في إطار اقاصيص تختلط فيها الوقائع بالأساطيرلم تكتب إلا في أزمنة متأخرة جدا تقارب الألفي عام بعد زمن "إبلا"(63)، مبلغ "الدس المغرض" حسب تعبير رئيس البعثة باولو ماتييه. وكان أكثر ما أثار حنقه كما يبدو نفي أرتشي في مقاله بالإيطالية أن تكون لغة "إبلا" لغة عمورية، " فهي تزامن الأكدية القديمة وتتشارك مع الأكدية ولغات جنوبي الجزيرة العربية بسماتها الصرفية، وهي ليست الكنعانية الأولى"، فعلق بتيناتو بالقول " من المنطقي أن يدعو لغة " إبلا " لهجة عربية شخص يسعى إلى إسعاد المتحدرين من نسل سكان "إبلا" .." (64) .
وردا على مقال بيتناتو المهين نشر آرتشي مقالا ضافياً فند فيه بتفاصيل دقيقة قراءات بتيناتو لألواح "إبلا" واستنتاجاته. جاء في هذا المقال : "إن هذه القراءة تجري وفق تصويت يخترعه بتيناتو، ولم يظهر أي نص ألسني يسندها، أويسند التصريحات المنسوبة إلى مفاهيم "إبلا" اللاهوتية .. ولم يثبت ولو نص واحد تأكيداته"(65).
وأشار آرتشي إلى أن بيتناتو يعترف حسب رسالة مرسلة إلى مجلة "عالم الآثار التوراتي" : " أن اللوح الذي زعم في البداية أنه يتحدث عن مدن السهل الخمس ، إنما يتحدث عن سبائك معدنية، وهو نص طويل ولكنه يخلو من أسماء هذه المدن"(66).

وفي ختام رده، قال آرتشي "إن بتيناتو ، بنغمة حديثه وازدرائه للمعايير التي تتشكل منها غالبية المباديء الأساسية التي تقود الأبحاث العلمية، لم يسبق أن وجد شخص مثله في تاريخ دراساتنا" (67).

وفي ضوء تزايد اللغط الذي أثاره أنصارنسبة كل آثار وتاريخ وأزمنة المنطقة العربية إلى ما هو توراتي، تشكلت لجنة دولية خاصة لدراسة أرشيف "إبلا" من أشهر العلماء الاختصاصيين في الكتابة المسمارية من بلدان عدة. ومن بينهم الخبير العربي بالكتابة المسمارية فوزي رشيد من العراق. وجاءت ردود رئيس البعثة الأثرية باولو ماتييه وزملائه مجتمعين لتضع حدا لهذا اللغط .

جاء في رسالة لرئيس البعثة إلى مجلة "الآثاري التوراتي" التي كانت مسرحاً لنشر الكثير مما خرج به بتيناتو، ومن وقف معه من وراء المحيط :

" .. أود ان أعلن كمدير لبعثة التنقيب الأثري الإيطالية في "إبلا" من جامعة روما، وكرئيس للجنة الدولية المختصة بدراسة نصوص" إبلا " التي في حوزتنا :

أولا، بعد فحوصات أجريتها بنفسي على نصوص "إبلا" التي أعدها قاريء الكتابات القديمة في البعثة البروفيسور آلفونسو آرتشي، إن اسم المدينة الوحيد في النصوص الذي له تماثل صوتي مبهم مع أحد أسماء "مدن السهل" التوراتية هو "سا- دو- ما"، وقد ورد في سياق إداري يتصل بالزراعة، وهو ما يجعلنا نعتقد وفق كل الاحتمالات أن هذا المركز لم يكن بعيدا عن "إبلا". ومن جانبه أكد البروفيسور آرتشي بنفسه أنه لاوجود في النص ذاته لأثر يدل على أسماء مدن مماثلة لأسماء "مدن السهل".

ثانيا، لاوجود لأي نسخة مترجمة تحمل أسماء المدن المفترضة التي استشهد بها البروفيسور فريدمان على أنها موجودة في نصوص "إبلا"، وأنها يمكن مماثلتها في النهاية بأسماء "مدن السهل" في أي ثبت للنصوص أو في أي نص مقابل، كما أننا لم يحدث أن تبينا في أي نص اسم شخص يدعى " بي- إر- شا – ملك أدما أو " ملك جومورا "(68).

ويختم باولو ماتيه رده قائلا :

"في ما يتعلق بالشكوك التي عبر عنها البروفيسور ذ. ياكوبسون، أتذكر أن البروفيسور بتيناتو أخبرني في بداية العام 1977 انه تسلم رسالة من البروفيسور ياكوبسن يطلب فيها معرفة نسخ مترجمة لأسماء المدن التي تتماهي مع أسماء "مدن السهل". وبوصفي مديرا للبعثة، أجبت بأن البعثة يشرفها اهتمام باحث بارز من جامعة هارفارد، ودعوت البروفيسور بيتناتو للكتابة إليه وإعطائه الترجمات وأرقام الألواح، ولكن البروفيسور بتيناتو رفض دعوتي" (69) .

ولم يكن هذا هو الرد الوحيد . ففي العام 1981 ، أرسل ماتيه رسالة إلى المجلة نفسها مرفقة برد من اللجنة الدولية على المقال الذي نشره بيتناتو ضد الفونسو آرتشي . وجاء في الرسالة :

" .. يلمح الكاتب بيتناتو تلميحاً بغيضاً إلى أن التقييمات الألسنية والتاريخية التي قدمها عضو بعثتنا البروفيسور أ.آرتشي، تمت صياغتها إرضاءاً للمتحدرين من نسل سكان "إبلا"، ويقصد السوريين، متسائلا عما إذا "استلهم المقال حب الحقيقة العلمية أم الدوافع السياسية". والرد الوحيد الممكن على هذه الدسيسة الخارجة على حدود الأخلاق المهنية التي لايجب تجاوزها هو شهادة مصدر لايشك أحد أنه مذعن لما يفترض أنها وجهة نظر عربية في هذه القضية، تلك هي شهادة البروفيسور أ. ف. ريني من جامعة تل أبيب، والتي جاء فيها " ستلقي ألواح "إبلا" الكثير من الضوء على تاريخ سوريا القديم والشرق الأدنى بعامة، فلماذا تعهير الألواح باختلاق "تماثلات" زائفة بينها وبين التوراة؟ "(70).

وجاء في رسالة أعضاء اللجنة الدولية المنشورة بجوار رسالة ماتيه :

" .. نشر ج . بيتناتو مقالا يوهم ظاهرياً أنه يقدم تقييماً بحثياً لمسائل معينة ذات علاقة بتفسير ألواح"إبلا" وعلاقتها بالتوراة. في الواقع، لايقوم معظم المنطق المستخدم في المناقشة على أساس

استدلالات مستمدة من المعطيات النصية، بل على أساس اغتيال كتابي لابد للمرء أن يتخذ موقفا قوياً منه. وإننا إذ نقوم بهذا جماعياً، فما ذلك إلا لأننا نعمل سوية كزملاء لفرد يتعرض للهجوم، وقد أنشأنا وشكلنا بفعل هذه الزمالة البحثية رأياً قوياً قائماً على معرفة ممتازة بهذه القضية ... إن الأداء هو المؤهل البحثي الوحيد .. والمعيار هو المهارة التي يتم بها أداء المهمة. وفي حالة قارىء الكتابات القديمة، سواء كانت كتابات "إبلا" أو غيرها، فإن هذا يعني الوفاء بالإلتزامات تجاه البعثة؛ التزام دقة التوثيق ورصانة الحكم في مسألة التفسير. وكل هذا وجدناه بأعلى درجاته لدى آلفونسو آرتشي، وأصبحنا عبر التفاعل المتواصل نقدر كفاءته أكثر فأكثر، ونقدر قدراته الموثوق بها وفق أي معيار بحثي معترف به"(71) .

بعد كل هذه الردود، اضطر بتيناتو إلى التراجع عن بعض قراءاته "المتعجلة"، ولكنه واصل الإدلاء بدلوه، ونشر كتباً باللغة الإيطالية للبقاء في صورة الحدث التاريخي، أي اكتشاف حضارة "إبلا"، إلا أن المختصين بالمسماريات ظلوا يلاحقون كتاباته. من هؤلاء فولفجانج هيمبل في مراجعته لكتاب بتيناتو الثاني في العام 1989 الذي تناول فيه دولة "إبلا" ونظمها وتفاعلها مع الدول المجاورة لها في المنطقة.

جاء في هذه المراجعة :

" .. لن يحب علماء الآشوريات هذا الكتاب لأن الأفكار المثيرة التي يأتي بها تنهار في أغلب الحالات ما أن يدرك الباحث أنها قائمة على مقدمات خاطئة .. وإذا كان للمرء أن يتحدث عن نهج بتيناتو في تفسير النصوص، فسيجد أنه نهج لايستقيم على جادة واحدة، بل هو عبارة عن قفزات من مربع إلى آخر، قفزات عنيفة مستمدة من وقائع متخيلة (72).

ويكشف المراجع عن عدد من الإخفاقات:

" .. يرى بتيناتو في "إبلا" عملاقا اقتصاديا يسيطر على الحياة الإقتصادية لكل منطقة الهلال الخصيب، ويزعم أن حركة البضائع انتشرت بفضل قوافل عربات تجرها الثيران، تتحرك ببطء على امتداد الطرق، وهذه صورة تبدو كاريكاتورية وغريبة بالنسبة لكل من سافر في منطقة الشرق الأدنى، أو قرأ تقارير الرحالة القدماء، أو تصفح النصوص الآشورية التي تتحدث عن القوافل، فهذه المنطقة الرملية والمتربة والصخرية أحيانا والضيقة، وغالبا الحارة والجافة، لم تكن ملائمة قطعاً للثيران والعربات .. ويبدو أن بتيناتو جاء بفكرته الغريبة خلال محاولته فهم اسم وحدتين إداريتين، فهم من الأولى أنها مكان لإيواء "العربات"، وفهم من الثانية أنها مكان لإيواء "الثيران" ، فقفز إلى نتيجة أن الإشارة الواضحة إلى الثيران والعربات تتضمن تحديدا سليما لفهم الكيفية التي كانت تتحرك بها مختلف قوافل البضائع"(73) .

وعن الإخفاق الثاني، يقول هيمبل :

"هو في التزام بتيناتو بتفسيرات للنصوص لم يعد من الممكن الدفاع عنها بعد الآن .. مثل تفسيره لنصين يوفران معظم الأرضية التي يستمد منها استنتاجاته، وبخاصة المعاهدة مع آشور، وما يدعى البلاغ العسكري عن حملة على مملكة "ماري". ومن هذين النصين، لدينا الآن نسخ لباحثين آخرين توصلوا إلى تفسيرات مختلفة اختلافا جذريا عن تفسيراته، ومع ذلك لم تحدث هذه التفسيرات ندبة ولو بسيطة في قناعاته"(74) .

الواضح من فصول هذه "المعركة" حول تفسير نصوص "إبلا"، أن سبب التشويهات التي أحدثها بتيناتو يرجع إلى أمرين:

الأول، الهوس التوراتي الذي سيطر على قطاع عريض من علماء الآثار الغربيين في النصف الأول من القرن العشرين، وتزايد بعد استعمار فلسطين وإقامة مستعمرة على أرضها اختلقوا لها اسم "دولة إسرائيل "، وتوجه البعثات الأثرية إلى التنقيب في أماكن تؤمن مسبقاً أن لها صلة بمواقع توراتية

بغض النظر عن الزمان والمكان، إلى درجة إستعداد المفسرين لنقل الأزمنة التوراتية إلى أي زمن ونقل أحداثها إلى أي مكان، مع تجاهل شبه مطلق لمجريات تاريخ شعوب المنطقة.
والثاني، هو التجاهل المتعمد، حين يجري فك رموز اللغات القديمة، لكل صلة لها باللغة العربية، وربطها فوراً بلغة كنعانية قديمة، أو إحدى اللهجات الفرعية للكنعانية، أي ما يطلق عليها العبرية، وهو ليس اسما للغة، بل هو اشتقاق من اللفظة العربية الشائعة "العبري" وهي صفة تطلق على المترحل والمتنقل مهما كانت لغته.
لانعرف حتى الآن مبلغ معرفة بتيناتو باللغة العربية، إلا أن نظرة سريعة إلى قوائم بأسماء وتعابيرترجمها من نصوص "إبلا" ، تظهر كم كانت عربيتها قريبة من متناوله، إلا أنه استخدمها فقط ليبرهن على أن "الكثير من هذه الأسماء يظهر بالشكل نفسه في العهد القديم" وليطالب قراءه بالتسليم "أن هناك صلات معينة متبادلة بين ثقافة "إبلا" وثقافة العهد القديم" ! (75) .
من هذه القوائم ، وبنظرة سريعة ، نكتشف الأسماء التالية وقد وردت نطقا ومعنى بالمسمارية كما هي بالعربية :
* أنا ملك
* راعينا هدد
* يد دامو
* إبن ملك
ونكتشف من النظرة الأولى عربية تعابير قادمة إلينا من حضارة "إبلا"(3500- 3000 ق.م) مازالت تدور على ألسنتنا حتى اليوم :
* بكر ، المولود الأول
* دبّر ، يترجمها بتيناتو إلى " مترجم " !
* تهامة ، يترجمها إلى " غور المحيط " !
* أكل ، يترجمها إلى " أكل "
* ملك ، يترجمها إلى " ملك "
* نفش ، نفس ، يترجمها إلى " حياة "
* أم ، يترجمها إلى " أم "
* كلام ، يترجمها إلى " كلام " (76).

في ضوء هذا، لانشك أن مصدر حيرة بتيناتو الأولى أمام هذه اللغة هو أنها لغة "عربية"، بالاضافة الى النية المسبقة التي وجهت نظره الى قراءة الكلمات المكتوبة بالمقطعية المسمارية كما يشتهي إطاره الذهني. ففي الكتابة المقطعية التي تشبه تهجئة الحروف والمقاطع جزءاً فجزءاً يمكن أن يقع الباحث الأجنبي في الخطأ فيأخذ جزءاً من كلمة على أساس أنه كلمة مستقلة. وهذا في رأينا أحد أسباب ارتباك الكثير من العلماء أمام كتابة عربية بأبجدية مقطعية، بالاضافة الى سبب آخر وهو إعطاء الحروف قيما صوتية لاتينية مما يضيع عدداً من الحروف العربية ويضيع المعنى.
فلو أخذنا كلمة "سبينتو" الأكدية وهي مكتوبة مقطعيا هكذا (سا - بي – نا – تو) فلربما اعتبرناها مكونة من كلمتين أو اكثر بينما هي في الحقيقة كلمة واحدة عربية قلبت فيها الفاءُ إلى باء وفق قواعد القلب والابدال بين لهجات اللغة الواحدة، وبسبب "اعتماد حروف اللغة المسمارية الذي أفقد الأكديين رسم عدد من حروف لغتهم وأصواتها"(77).
إن العارف بالعربية وبفقه ما يسمى حتى الآن "فقه اللغات السامية"، وهو في الحقيقة فقه اللهجات العربية، يستطيع أن يقول ببساطة أن هذه الكلمة هي "سفينة" وهي دلالتها في الأكدية بالطبع.

وهكذا طويت صفحة بتيناتو، وربما طويت معه صفحة الاستشراق في علم الآثار، رغم أنه لايزال يتمترس خلفه عددٌ من المتعصبين الذين يعتقدون، لأسباب أيديولوجية، أن انهيار هذا الصرح الزائف الذي بناه علم الآثار التوراتي يعني انهيارأحد مرتكزات الكيان الإستعماري في فلسطين في الذهنية الغربية العامة.
ولعل مؤتمر دراسات "إبلا" بتقريره عن علاقة لغة "إبلا" بالعربية، وتأكيده على ضرورة المام قارىء اللغات القديمة باللهجات العربية الشائعة في المنطقة وباللغة العربية، قد وضع أساساً سليماً لأي قراءة مستقبلية (78)، بل ويفرض هذا أمراً بالغ الأهمية طالب به عددٌ من الباحثين من ذوي المكانة العلمية من أمثال د. طه باقر ود. كمال الصليبي، ألا وهو إعادة قراءة ألواح بابل وآشور والسجلات المصرية القديمة في ضوء المعاجم العربية، ووفق قواعد فقه اللهجات العربية(79)، وهذا يعني حكما إزالة ما هو غامض حتى الآن، أو ما هو مقروء بشكل خاطيء في الجغرافية والتاريخ .

5

بعد عشر سنوات تقريباً مرّت على اغتيال عالم الآثار الأمريكي د. ألبرت جلوك في بير زيت في العام 1992، نشر الكاتب والصحافي الأمريكي إدوارد فوكس كتابه "فجر فلسطين : مقتل د. ألبرت جلوك وعلم آثار الأرض المقدسة". وجاء هذا الكتاب كما قال صاحبه تنقيباً "أركيولوجياً" واسع النطاق أيضاً، أو تحقيقاً في ظروف اغتيال هذا العالم الذي ترأس قسم علم الآثار في جامعة بير زيت، وأسس معهد علم الآثار الفلسطيني الأول من نوعه في الوطن العربي.
إدوارد فوكس لم يتوصل في النهاية إلى دليل مادي ملموس يحدّد الجهة التي وقفت وراء الاغتيال، إلا أنه استطاع تجميع أدلة ظرفية قوية ومقنعة تشير إلى دور الجيش الإسرائيلي تحديداً في عملية الاغتيال عبر رحلةٍ في عالم الآثار الفلسطيني والصراعات الخفية التي تدور رحاها في هذا العالم.
أشارت التحقيقاتُ إلى أن وصول قوات الاحتلال إلى مكان الحادث استغرق ثلاث ساعات على غير العادة، ولم يُفرض حظر التجول كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، بالإضافة إلى أن سلطات الاحتلال لم تقم بتحقيق جدي، وكذلك السلطات الأمريكية، رغم إلحاح أسرة د. جلوك وجهود أحد أبنائه. ومن جانبها من الملحوظ أن منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت زعامتها على وشك الدخول في مشروع الحكم الذاتي (التسوية وفق المنظور الإسرائيلي) قامت بتشكيل لجنة تحقيق قدمت تقريراً سريا فاقدا للمصداقية استهدف تبرئة أحد الفلسطينيين في جامعة بير زيت من الشبهات التي حامت حول تواطئه في اغتيال د. جلوك (80).
عميد جامعة بير زيت بالنيابة، د. جابي برامكي، شبه عملية الاغتيال، كما نقل عنه المؤلف، بقتل مئة عصفور برصاصة واحدة، فقد استهدفت بث الرعب في نفوس الأساتذة الأجانب العاملين في جامعة بير زيت، وضرب مشروع استكشاف التاريخ الفلسطيني، وعرقلة تنمية قدرات فلسطينية في هذا الحقل المعرفي، بالإضافة إلى معاقبة د. جلوك على مواقفه إلى جانب الحقوق الفلسطينية، والقضاء

على مشروعه الذي كان يستعد له، أي نشر نتائج أبحاثه القائمة على التنقيب الميداني في المواقع الفلسطينية (81).
الأوسع من كل هذا، هو أن اغتيال د. جلوك جاء في سياق حرب خفية أحيانا ومعلنة في أحيان أخرى على جبهة قلما انتبه لها الباحثون العرب، نعني جبهة خطاب الاستشراق التوراتي الذي بدأ يُظهر زيفه ويُقوض مزاعمه عددٌ يتزايد من العلماء الغربيين بخاصة.
في سياق هذه الحرب قامت سلطات الاحتلال الصهيوني في العام 1967 بإيقاف عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينون عن العمل بعد أن أعلنت نتائج تنقيباتها عن وقائع تدحض مزاعم الخطاب التوراتي حول تاريخ مدينة "أريحا" الفلسطينية المزعوم توهماً أنها "جيريشو". وقادت الأوساط التوراتية وتقود حروباً متواصلة ضد كل أستاذ أو عالم آثار في العالم يكشف التضليل الذي تعتمده الصهيونية لاختلاق رابطة لها ولحركتها الاستعمارية بالأرض الفلسطينية. أشهر من تعرض للاضطهاد والطرد من مناصبه هو العالم الأمريكي "توماس تومسن" صاحب كتاب "التوراة في التاريخ : كيف يخلق الكتّابُ ماضياً" (1999)، وهو اضطهاد اضطره إلى التحول إلى عامل يدوي يعمل في صبغ جدران العمارات ليكسب لقمة عيشه، قبل أن تقبله كلية كاثوليكية في القدس، ثم ينهى عقده .. وهكذا، إلى أن انتهى به المطاف في منصب أستاذ في جامعة كوبنهاغن في الدانمرك ليتمكن من مواصلة أبحاثه (82).
قضية د. جلوك كما يقول المؤلف تقع في قلب هذا الصراع بين التوراتيين، باحثين وعسكريين وسياسيين، وبين علماء الآثار الذين بدأت تضمحل أمام أعينهم "تواريخ" الروايات التوراتية في ضوء الآثار المادية الفلسطينية. وتبدأ الحكاية كما يرويها بالهوس التوراتي الذي رسم خريطة لفلسطين نابعة من التصورات اللاهوتية، وظل يفرضها طيلة أكثر من مئة عام ونصف على تضاريس فلسطين. هذا الهوس الذي قلب منهج البحث العلمي وجعله يسير على رأسه لم يكن خافياً على قلة من العلماء من أمثال الايرلندي ماك اليستر منذ البداية، فقد أكد هذا الباحث منذ العام 1925 في كتابه "قرن من التنقيب في فلسطين" على أن ثمة نزعة غير علمية تسود مبحث التنقيب هنا، فالباحثون ينطلقون من فرضيات مسبقة ويحاولون التفتيش عن ما يدعمها في المواقع الأثرية، ويهملون في سعيهم كل الآثار المكتشفة التي لا تدعم فرضياتهم، أو يختلقون قراءات للآثار المكتشفة تعزز ما في أذهانهم، وخير ما يعبر عن هذه النزعة تخمينات من كان يعد عمدة في مجاله، ونعني العالم الامريكي وليم ف.البرايت، فقد نشر في العام 1934 مقالا ربط فيه بين اكتشاف نمط من البيوت العربية المعروفة في كل أنحاء الوطن العربي (أربع غرف تحيط بحوش) خلال الحفريات في بقايا عصر الحديد في فلسطين، وبين وجود من يسميهم "الاسرائيليين"، ودليله هو أن التوراة تقول أن هؤلاء سكنوا في تلال المنطقة، إذن فهذه البيوت اسرائيلية !. ولم تتبدد تخمينات هذا العالم عن أصحاب هذه البيوت، وعن الجرار التي كانوا يستخدمونها إلا منذ وقت قريب (83).
إلا أن ما يشبه الفضائح العلمية في حقل تفسير الآثار لم يستطع التغلب على خطاب تدعمه في العقلية الغربية روايات دينية، ثم أصبحت تعززه المطامع الاستعمارية بالأرض الفلسطينية. جاء التعبير عن هذه المطامع علناً على ألسنة رعاة صندوق استكشاف فلسطين البريطاني منذ إنشائه في العام 1865، حين وقف أسقف يورك في أول اجتماع عام لجمعيته التأسيسية، وعبر عن دوافع المشروع الأساسية قائلا "هذا البلد فلسطين لي ولكم، إنه لنا جميعا من حيث الجوهر. لقد أعطي لأب اسرائيل بهذه الكلمات "سر في طول الأرض وعرضها لأنني سأعطيها لك" وهدفنا هو أن نسير في طول فلسطين وعرضها، لأن هذه الأرض أعطيت لنا .. إنها الأرض التي يجب أن ننظر اليها من منطلق وطني حقيقي مثلما ننظر إلى هذه الانجلترا العزيزة التي نحبها حبا جماً"(84)، و "لم تكن وزارة الحرب البريطانية التي رعت الصندوق أقل سعادة وحماسة لمشروعه، فمع افتتاح قناة السويس في العام 1869، والاحتلال البريطاني لمصر في العام 1882، تعززت أهمية فلسطين الاستراتيجية تعزيزاً

بالغا، وتوّجت بالتغلغل البريطاني في ديسمبرمن العام 1917 حين قاد الجنرال أدموند اللنبي موكب جيشه المنتصرفي القدس بعد معركة دامية في تلال فلسطين الشرقية"(85). ولم يبدأ هذا الخطاب بفقدان سطوته على هذا الحقل الذي أطلقوا عليه اسم "علم الآثار التوراتي"، في وقت لم يكتشف فيه في فلسطين أي أثر ذي علاقة بتوراتهم، إلا مع ظهور حركة مضادة في أوساط الباحثين الغربيين. هذه الحركة بدأت تتبين في ضوء حقائق التنقيبات الفلسطينية أن الخريطة التوراتية لفلسطين تضاريس وتاريخاً مجرد صناعة لاهوتية متأخرة كما سنبين في الصفحات اللاحقة تخدم أغراض سياسة استعمار فلسطين لا أغراض العلم .

على رأس هؤلاء كان عالم الآثار الأمريكي "د. بول لاب" الذي ترأس بعثة تنقيب في فلسطين في العام 1962 بالقرب من نابلس، ففتح عمله الطريق لنقد علم الآثار التوراتي أمام جلوك وآخرين من أمثال وليم ديفر وفنكلشتين وتوماس تومسن وكيث وايتلام. وكان لموقف "لاب" من تزييف معاهد البحث التوراتي والتشويه الذي ألحقته بآثار فلسطين وتاريخها، والذي ترافق مع دحض كينون للكثير من التصورات التي فرضت على التاريخ الفلسطيني، أثرٌ بالغ في تعزيز هذا التيار النقدي. ومع العام 1967 وبعد احتلال فلسطين الشرقية وقطاع غزة احتج "لاب" علناً على الحفريات التي سارع إليها الجيش الإسرائيلي وفريق علماء آثاره المرتبط بنشاطه الإحتلالي في الأراضي المحتلة، وكان لاحتجاجه أثر بالغ في اتخاذ منظمة اليونسكو قراراً بطرد إسرائيل من عضويتها، بعد أن أدانتها لقيامها بحفريات غير مشروعة في أرض محتلة، وتدميرها المتعمد للآثار الفلسطينية مثل إزالة حي كامل هو حي المغاربة في القدس.

ويشير المؤلف إلى أنه تم إغراق د. بول لاب على شاطئ قبرص الشمالي، وهوالسباح الماهر،عمداً كعقاب له على مواقفه هذه في العام 1970 (86). ولفتت هذه الجريمة ، شأنها في ذلك شأن الجرائم الصهيونية ضد العلم والعلماء، الأنظارَ إلى عمق الأثر الفكري والسياسي لعلم الآثار الفلسطيني الذي بدأ يظهر على يد علماء تجردوا من التحيز والهوس الصهيوني اللذين عرفهما هذا الحقل طيلة أكثر من قرن ونصف القرن، وهم علماء مضوا إلى أبعد من ذلك، فطلبوا من الأوساط العلمية أن تستبدل مصطلح "علم الآثار الفلسطيني" أو السوري بعامة بمصطلح "علم الآثار التوراتي" بعد أن ظهر بالأدلة الملموسة أن هذا المصطلح الأخير ليس من العلم في شيء بقدر ما هو مصطلح لاهوتي مختلق فرضه أشخاص مهووسون بالتوراة دافعهم تبرير المزاعم الصهيونية من أمثال دبليو ف. أولبرايت و تورشنر و بتيناتو ونيل فريدمان و آخرين (87).

إغتيال د. جلوك وأسبابه تقع تحديداً في هذا الحقل العلمي، وهذا هو ما يتوصل إليه إدوارد فوكس. فهذا العالم لم يكن مؤسّس أول برنامج دراسي وميداني للآثار الفلسطينية في جامعة بير زيت فقط، بل وضرب مثلا حين تحول خلال تدريسه طيلة 16 عاماً عن المهمة الأصلية التي جاء من أجلها، أي تعزيز علم الآثار التوراتي، إلى مهمة تأسيس البديل الحقيقي، أي علم الآثار الفلسطيني، وتدريب طلبته الفلسطينيين من أجل أن يواصلوا بناء صرح هذا العلم. وفي ضوء هذا التحول بدأ يستخدم مهاراته كعالم آثار في استكشاف تاريخ فلسطين كما تظهره الآثار المادية، أي الوقائع الأركيولوجية لا إختلاقات التوراتيين. بعبارة أخرى، بدأ عمل د. جلوك يصب لصالح إعادة اكتشاف فلسطين التي طمس تاريخها المستعمرون الصهاينة والصقوا بها تاريخاً غريباً عنها هو تاريخ لـ "إسرائيل قديمة" مختلقة على حد تعبير كيث وايتلام الذي كرس كتاباً فصّل فيه الآليات التي استخدمها التوراتيون لتلفيق تاريخ لاسرائيل قديمة وإخراس التاريخ الفلسطيني تبريراً لقيام كيان استعماري اتخذ له اسم هذه الإسرائيل المختلقة زاعما انه وريثها الشرعي (88).

لهذا العمل بالطبع تبعاته السياسية، وفي الغرب بخاصة حيث ساد طوال القرن الماضي القول بأن "مواقع فلسطين الأثرية تروي حكاية إسرائيل القديمة، وأن هذه هي سلف "إسرائيل" الراهنة، ولهذا فهذا الكيان الاستعماري الذي اجتمعت لإقامته جماعات من قوميات وشعوب مختلفة هو المالك

الشرعي للأرض الفلسطينية، وهو ليس استزراعاً أجنبياً بل عودة"(89). ولاشك أن نقض هذا التصور المضلل، والذي بدأ يحدث منذ ما يقارب 30 عاماً باكتشافات قلبت علم الاثار التوراتي رأسا على عقب (90)، كان يدق ناقوس الخطر في أروقة أجهزة الاستخبارات الصهيونية وجيش المستعمرين الإرهابي وجملة صناع هذا المشروع الاستعماري.

ويكشف إدوارد فوكس جانباً من الجوانب الخفية في هذا المشروع، وهو تلاحم العسكري والسياسي وعالم الآثار في سياق الاستيلاء على الأرض الفلسطينية: الاستيلاء على الماضي ونسبته للمستعمرين أو لمن يزعمون إنهم أسلافهم، والاستيلاء على الأرض وفق استراتيجية تقع في صلب المشروع الصهيوني تقوم على إبادة الفلسطينيين في أي مكان يكونون فيه لسبب بسيط هو أن وجودهم في الماضي والحاضر هو الحقيقة الصلبة التي تغدو معها المزاعم الصهيونية هراءً.

يتمثل هذا التلاحم في سيرة حياة أبرز شخصيات هؤلاء المستعمرين التي جمعت بين النشاط العسكري والسياسي والآثاري مثل "ييغال يادين" و "موشي دايان" و "أمير دوري" الجنرال الذي يرئس حاليا ما تسمى "دائرة الآثار الإسرائيلية". وفي الوقت الراهن مازال هناك ضابط لص يقوم بسرقة الآثار ملحق بالإدارة العسكرية المحتلة لفلسطين الشرقية يدعى "إنزاك ميجن"، ومهمة هذا الضابط هي الاستيلاء على الآثار الفلسطينية باستخدام قوات عسكرية. وهناك بند خاص يتعلق بمهمته في اتفاقيات اوسلو التي وضعتها حكومة الكيان الاستعماري وبصم عليها عرفات من دون أن يقرأها حتى كما قال د. نصير عاروري في لقاء متلفز، وينص هذا البند على السماح له بمواصلة التنقيب عن الآثار في منطقة نابلس (جبل جرزيم) ومواصلة نهب ما يعثر عليه بل ومصادرة ما يجده في حوزة أي فلسطيني.

إن التنقيب في الأرض الفلسطينية، والاستيلاء عليها، ومحو تاريخ سكان فلسطين، بل ومحو وإبادة وجودهم المادي، وتلفيق رواية تقص حكاية فلسطين من وجهة نظر غربية، عمليات لا تنفصل إحداها عن الأخرى، وكذلك هو اغتيال كل من يعمل أو يفكر بمواجهة هذا المشروع الاستعماري.

ترى هل كان سبب اغتيال د . جلوك هو تنبيهه إلى ترابط هذه العمليات في وقت كان فيه على رأس أولويات زعامة منظمة التحريرالفلسطينية، أو ما ستعرف في مابعد في أوساط الفلسطينيين باسم عصابة اوسلو، بالتوافق مع المسعي الإسرائيلي، محو البعد الإستعماري للكيان الإستيطاني الإسرائيلي، ومحو إقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بأن "الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري"(91)، وهو ما سيتحقق في مسار تطبيق إتفاقيات أوسلو في مابعد؟ (92) .

السطور التالية من مقالة كتبها د. جلوك في العام 1990، أي قبل اغتياله بسنتين، قد تجيب على هذا التساؤل :

"لقد عملت أربع قوى على صياغة طبعة قصة فلسطين المهيمنة اليوم:

الأولى هي الموروث التوراتي كما فسرته الأمم الغربية المسيحية لتربي عليه شبانها في إطار التراث اليهودي – المسيحي، والذي سيشكل قصة فلسطين المعتمدة في العالم الأنجلو- ساكسوني والأوروبي.

والثانية هي التنافس الأوروبي على بسط السيطرة على ساحل شرق المتوسط بعامة، وعلى فلسطين بخاصة، ذلك التنافس الذي أنتج معرفة متوافرة بالأرض لخدمة الحاجات العسكرية والإقتصادية والثقافية الغربية، ثم استخدام البيانات المتجمعة لهذه الغاية في توسيع القصة المعتمدة سلفا.

والثالثة هي قتل أعداد كبيرة من الفلسطينيين، سكان البلد الأصليين، بشكل مدروس، من أجل توفير وطن لليهود اللاجئين من الإضطهاد الأوروبي، وهو ما نتج عنه رفض المثقفين الفلسطينيين القاطع لقصة فلسطين المعتمدة في الغرب، القصة التي استخدمت كتبرير مدبر لوضعيتهم كلاجئين.

والرابعة هي اختفاء الميراث الفلسطيني، الأدلة الملموسة، بسبب مصادرة الإسرائيليين المتعمدة للمصادر الثقافية العربية (مثل مكتبة د. توفيق كنعان الضخمة في العام 1948، ومتحف الآثار الفلسطيني ومكتبته في القدس في العام 1967، ومكتبة مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت)، وأيضا بسبب تدمير الملكية الثقافية المتمثلة بقرى بأكملها في العامين 1948 و1949. وكان هذا التدمير الأخير ذا أثر خطير بخاصة، لأن صلة الفلسطينيين بماضيهم على أوسع نطاق تسري عبر مئات القرى وعدد من البلدات الصغيرة والقليل من المدن التي قامت في أرضهم طيلة القرون الثلاثة عشرالأخيرة"(93).

إشارات

1- فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة ايرينا حداد، العربي للنشر، دمشق، 1987، ص 5 .

2-Ira M. Price, review : recent Literature on Babylon and the Bible; Bable und Bibel by Friedrech Delitzsch, The American Journal of Theology,Vol.7,No.2(Apr. 1903) p.384

3- Ibid. P. 384

4-Suzanne Marchand, German Orientalism and the Decline of the West, Proceedings of the American Philosophical society, Vol.145, No.4 (Dec, 2001) p.469

5- Ibid. P. 468

6- Ibid. p. 457

7- Frederick N. Bohrer, Inventing Assyria: Exoticism and Reception in Nineteenth – Century England and France, The Art Bulletin, Vol. 80, No. 2 (Jun., 1998) p. 377

8- Ibid. p. 340

9- Ibid. p. 341

10- Edward W. Said, op.cit. p3

11- Frederick N. Bohrer, op.cit.p. 340

12- أتبنى هنا الضبط الذي اقترحه د. كمال الصليبي لإسم اللغة المسماة "آرامية" بعد أن الصق التوراتيون ضبط الكلمة التوراتي هذا بألسنتنا سنين طويلة، حيث قال "الأصح في رأيي أن يقال بالعربية "الإرمية" قياسا على الضبط القرآني لأسم شعب "إرم" . راجع كتابه "حروب داوود ، دار الشروق، عمان، 1990، ص 13"

13- Ancient Near East : An Anthology of Texts and Pictures, Edited by James B. Pritchard, Princeton University Press and Oxford University Press , 1958 ,p 4

14- frank M. Cross, W. F. Albright's view of Biblical Archaeology and the Methodology,The Biblical Archaeologist, Vol.36, No.1 (Feb. 1973) p.2,published by: American Schools of Oriental Research

15- Suzanne Marchand, op.cit, p. 466

16- Jack M. Sasson, Albright as an Orientalist, The Biblical Archaeologist, Vol.56, No.1, Celebrating and Examining W. F. Albright (Mar, 1993) p. 6

17 - Leslie J. Hoppe, Archaeology and Politics in Palestine, American for Middle East Understanding, The Link, Volume 20, Issue 1, January-March, 1987, pp. 3-4

18- Ibid. pp. 3-4

19- ارنست دوبلهوفر،رموز ومعجزات: دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة، ترجمة وتقديم د. عماد حاتم، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ،1983، ص 56.

20- توركيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي، دار العودة، بيروت، 1983، ص .193

21- ويندل فيلبس، كنوز مدينة بلقيس: قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، ترجمة عمر الديراوي، دار الكلمة، صنعاء ، 1985 ، ص 120.

22- Kamal Salibi, The Bible came from Arabia: Radical Reinterpretions of Old Testament Geography, Pan Books, London, 1987, p.38

23- زياد منى، جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1994 ، الصفحات 70- 99 والصفحات 135- 160.

24 -Kamal Salibi, The Bible came from Arabia, op. cit. P.157

25- Edward W. Said. op. Cit. P.85

26- Frank M. Cross, op.cit.p. 3

27 -Aba Eban , heritage : Civilization and the Jews, George Weidenfield and Necolson Limited, London, 1985, pp.3

28 -Thomas L. Thompson , The Bible in History: how writers create a past , Jonathan Cape , London , 1999 , pp.4-7

29- البير فريد هنري نقاش و حسن زينة، أخذة كش: أقدم نص أدبي في العالم، مكتبة لسان المشرق - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت،1989، ص .8

30- طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى في العربية بالدخيل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1980 ،ص 17

31- ملف الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية، مجلة الثراث العربي، دمشق، نوفمبر1979، صفحات 45 ــ 61.
اللافت للنظر في هذا السياق أنه حين وضع المستشرق الهولندي اللاهوتي ياكوبس يوليوس(1596-1667) معجما عربيا لاتينا بعد أن تعمق في دراسة اللغة العربية مستندا إلى معاجم مشاهير اللغويين العرب "بدأ علماء التوراة، من مسيحيين ويهود، يعيدون النظر في شرح التوراة وتفسيرها، بالإعتماد على الثروة اللفظية الهائلة التي جمعها يوليوس، لأنهم اكتشفوا أن الألفاظ العربية تيسر لهم فهم أعداد كبيرة من الألفاظ والتعابير التوراتية التي كانت لاتزال غامضة حتى ذلك الزمن". وفي العصر نفسه يخلص المستشرق صموئيل بوكاريوس إلى أنه "يستحيل على قاريء التوراة فهم نصوصها بدون أن يستعين بالألفاظ العربية". أي أنهم كانوا يستدلون على العبرية بالعربية ، وليس العكس كما حدث حين بدأوا يستدلون بالعبرية على العربية وكل اللغات المنتمية إلى أسرتها في القرون اللاحقة . أنظر كتاب د. توفيق سليمان، نقد النظرية السامية، الجزء الأول : أسطورة النظرية السامية، دار دمشق للطباعة والنش، دمشق، 1982، ص 40.

2

32- ماكس مالوان، مذكرات ماكس مالوان، ترجمة سمير الجلبي، دار المأمون، بغداد، 1987، ص 30

33- المرجع السابق، ص 31

34- المرجع السابق، ص 31

35- المرجع السابق، ص 31

36- Kamal Salibi, op.cit. p. 152

37- ماكس مالوان، ص 36

38- طه باقر، ص 17

39- W. F. Albright, Recent Progress in North-Canaanite Research, Bulletin of American Schools of Oriental Research, No. 70 (Apr, 1938) p.20

40- Harriet Crawford, Sumer and the Sumerians, Cambridge University Press, London, 1991, pp.10

41- Ibid.p.10

42- ماكس مالوان، ص 36

43- المرجع السابق، ص 36

44- المرجع السابق، ص 58

45- المرجع السابق، ص 58

3

46- فؤاد حمزة، في بلاد عسير، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، الطبعة الثانية، 1968، ص 169
47- Kathleen M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Ernest Benn Limited, London, Third Edition, 1970, p.344
48- كاثلين م. كينون، التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة، تعريب سليم زيد و د. شوقي شعث، دار الجليل، دمشق، 1988، ص 5
49- كينون، المرجع السابق ، ص 35
50- المرجع السابق، ص 22
51- المرجع السابق، ص 24
52- المرجع السابق، ص 46
53- المرجع السابق، ص 47
54- Erich Von Daniken, Chariots of the Gods, Berkley Books, New York, 1984

4

55- كلوتشكوف، الجديد حول الشرق القديم، ترجمة جابر أبي جابر، دار التقدم، موسكو، 1988، ص 163
56- Giovanni Pettinato, The Royal Archives of Tell Mardidh-Ebla, The Biblical Archaeologist, Vol.39, No.2 (may, 1976) p.50,Published by: The American Schools of Oriental Research
57- Ibid. p.50
58- Ibid. p. 46
59- Ibid. p. 47
60- Ibid. p. 49
61- Ibid. p. 49
62- W.G. Lambert, Reviewed work : das Altorientalische Menschenbild und die sumerischen und Akkadischen Schopfungsmythen by Giovanni Pettinato, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol.35, No.1 (1972) p.134
63- Giovanni Pettinato, Ebla and the Bible, The Biblical Archaeologist, Vol.43,No.4 (Autumn, 1980) pp. 203-213, Published by: American Schools of Oriental Research
64- Ibid. p. 214

65- Alfonso Archi, Further Concerning Ebla and the Bible, The Biblical Archaeologist, Vol.44, No. 3 , Published by: The American Schools of Oriental Research (Summer ,1981) p.146
66- Ibid. p. 152
67- Ibid. p. 154
68- Paolo Matthiae, Ebla, The biblical Archaeologist, Vol.43, No.3 (Summer 1980) p.134 , Published by: The American Schools of Oriental Research
69- Ibid. p. 134
70-Paolo Matthiae,The Ebla Debate, The Biblical Archaeologist,Vol.44,No.3 (Summer 1981) p. 137, Published by: The American Schools of Oriental Research
71- Ibid. p. 137
72- Wolfgang Heimpel, Reviewed Work: Ebla : Nalovi Orizzonti della Storia by Giovanni Pettinato, Journal of The American Oriental Society, Vol.109,No.1 (Jan, Mar.1989) p. 121
73- Ibid. p. 121
74- Ibid. p. 122
75- Giovanni Pettinato, The Royal Archives of Tell Mardikh – Ebla, The Biblical Archaeologist,Vol.39,No.2 (May, 1976) p. 50
76- Ibid. p. 50
77- طه باقر، ص 20
78- ملف الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية، مجلة التراث العربي، نوفمبر،1979، ص 51
79– Kamal Salibi, op. cit. p. 34

80- Journal of Palestinian Studies, Vol. 23, No.3 (spring, 1994), p. 70
81- Edward Fox , Palestine twilight : the murder of D. Albert Glock and the Archaeology of the Holy Land , Harper Collins Publishers , London , 2001 ,pp.37
82- Thomas L. Thompson, op. cit. p. 15
83- Edward Fox, op. 76
84- Ibid. pp. 54-55
85- Eitan Bar-Yosef,The Holy Land in English culture 1977-1917, Clarendon Press , Oxford , 2005 , p.3
86- Edward Fox, op. cit. 92
87- Ibid. p. 72
88- Keith Whitelam , The Invention of Ancient Israel , The Silencing of Palestinian History , Routledge , 1996 ,p. 11

89- Edward Fox, op. cit. p. 75

90- Ibid. p. 71

91- د. صلاح الدين الدباغ، ملاحظات سياسية حول قرار إدانة الصهيونية بالعنصرية، شؤون فلسطينية، بيروت، العدد 52، 1975، ص 12

92- أعلن القس الأمريكي جيسي جاكسون في اليوم الأول لانطلاق مؤتمر ديربان الذي تنظمه الأمم المتحدة لمكافحة العنصرية "موافقة الرئيس الفلسطيني على عدم توجيه انتقادات للصهيونية وربطها بالعنصرية في البيان الختامي للمؤتمر" وعرض على الصحفيين "نص وثيقة بخط اليد تحمل توقيع الرئيس الفلسطيني تؤكد معارضة الرئيس عرفات للربط بين الصهيونية والعنصرية" . انظر صحيفة الشرق الأوسط ، لندن، 1 سبتمبر 2001، الصفحة الأولى

93- Albert Glock, Archaeology as Culture Survival : The Future of the Palestinian Past, Journal of Palestine studies, Vol. 23, No. 3 (spring, 1994), p. 71

الفصل الثاني

المشكلة التوراتية

قضية ربط الروايات التوراتية بفلسطين قديمة ترجع الى القرن الرابع الميلادي، ولكنها اكتسبت حيوية جديدة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، أما التحقق منها فحديث لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وحديث كذلك ظهورما يسمى"المشكلة التوراتية"، أي استعصاء هذا الربط كلما تقدمت التقانات الأثرية واتسعتْ الهوة بين تاريخ فلسطين المستمد من آثارها وتاريخ فلسطين التوراتي.

الأبحاث والتنقيبات الأثرية الحديثة تقوض يوماً بعد يوم الرواية الشعبية الشائعة عن "استعباد الاسرائيليين" في مصر، وخروجهم إلى سيناء، ثم التفافهم حول "فلسطين" وغزوها من الشرق، وتحطيم أسوارأريحا، وانشاء مملكة مزدهرة، ثم انقسام هذه المملكة واضمحلال شظاياها بفعل الغزوات، آشورية وبابلية ومصرية. والسبب هو أنه بعد أن مُسحت أرض فلسطين وبقية أراضي الدول المجاورة طوال أكثر من قرن وأبرزت الحضارات القديمة في هذه المنطقة آثارها ونصوصها وسجلاتها، تكوّن لدى علماء الآثار"سيناريو" قائم على أدلة ملموسة لا مكان فيه لأي حدث من أحداث الروايات التوراتية، بل أن بعضهم كما سنرى مضى الى القول أن مملكة اسرائيل ليست إلا مملكة على الورق.

والقارىء لأي كتاب غربي معاصر يتناول الآثار الفلسطينية يصادفه تعبير"المشكلة التوراتية" باستمرارفي كل صفحة يتحدث فيها الباحث عن صعوبة اكتشاف أي صلة بين مدينة فلسطينية أو تل أو حجر وبين ما تقوله التوراة. وتصادفه تعابيرمن نوع "لسوء الحظ لا دليل على ما ترويه التوراة" أو "هذا هو كل ما يمكن قوله بمصطلحات علم الآثار" أو"وأظهرت القراءة العلمية للكتابات على القطع الفخارية أن العالم الفلاني كان يستخدم مخيلته الخصبة ..." وهكذا .

تساءل الصديق الشاعر سامي مهدي في حديث شخصي بيننا ذات يوم في أواخر ثمانينات القرن الماضي : "إذا كان التاريخ التوراتي لفلسطين غير صحيح، إذن ما الذي كانت عليه فلسطين خلال فترة هذا التاريخ؟". كان سؤال هذا الصديق منطقياً، فالرواية الشعبية التي اعتادت على أن فلسطين بين القرن الثاني عشر ق.م والقرن السادس ق. م تؤرخ أحداثها مرويات التوراة، لاتملك تصوراً آخر لأحداث أخرى، لأن هذه الأحداث الأخرى يرويها السجل الأثري، ولم تصل بعد الى الثقافة العامة، لا في الشرق ولا في الغرب، وظلت حبيسة كتب المختصين. والكثير من هذه الكتب، مثل كتب الآثارية كاثلين كينون التي تقدم التاريخ الحقيقي من دون توراة، لا تستطيع مغالبة الموروث الشعبي التقليدي والافتراضات المسبقة التي ملأت أذهان الهواة والباحثين واللاهوتيين، ومن هنا حرصت دائما على سرد الأقاصيص التوراتية بالتوازي مع سرد الدلائل التي تشير إليها المكتشفات الأثرية على الرغم من إشاراتها المتكررة الى أنه لا توجد صلة بين هذه القصص والآثار.

هناك سبب آخر أكثر أهمية؛ فحين حاول الباحث البريطاني" كيث وايتلام " كتابة تاريخ لفلسطين القديمة من واقع المعطيات الأثرية وأنماط الاستيطان والاقتصاد والطبيعة البشرية، واجهته عقبة كأداء اسمها سلطة الخطاب التوراتي اللاهوتي المهيمن على تاريخ فلسطين منذ

القرن التاسع عشر وصولا إلى القرن العشرين في الدراسات الغربية، وهو جزءٌ من تلك الشبكة المعقدة من البحث التي أطلق عليها إدوارد سعيد اسم خطاب "الاستشراق"، والذي هو خطاب لايخلق المعرفة بموضوع فقط بل ويخلق الموضوع ذاته الذي يتصدى الخطاب لوصفه. وتبين " وايتلام " أن الخطاب التوراتي تجاهل تاريخ فلسطين القديمة وأخرسه لأن موضع عناية هذا اللاهوت المهيمن كان إختراع "اسرائيل قديمة" وفق نموذج قيام الدولة القومية الحديثة في أوروربا، وتقديمها على أنها جذر الحضارة الغربية، فقدم إنشاءاً بحثياً أساسه إساءة قراءة الموروثات التوراتية، بينه وبين الواقع التاريخي طلاق بائن (1) .

الباحثان جوناثان ن. تب وروبرت ل. تشابمان في كتاب " علم الآثار والتوراة "، الصادر عن المتحف البريطاني، يؤكدان على أن التاريخ الحضاري لفلسطين وطابعه الكنعاني الممتد منذ الألف الثالث ق. م . وحتى الفترة الهلينية (عصر الاحتلال اليوناني) لم يشهد انقطاعاً، بل شهد استمرارية متواصلة (2) وفي هذا السياق لا تثبت أدلة علم الآثار دخول من يسمون "الآباء الأوائل" الى فلسطين ولا "الخروج من مصر" ولا "غزو فلسطين" من قبل "الاسرائيليين" ولا قيام مملكة، أو أي شيء من هذا القبيل (3) .

ولكن هذين الباحثين الحذرين من سطوة مقررات المعاهد التوراتية والشائع من القول، يخشيان كما يبدو من الاتهام الشهير باللاسامية، أي معاداة اليهود، فيلجأ كلاهما إلى وضع افتراضات وتخمينات، مثل أنه مادامت السجلات المصرية القديمة تحدثت عن "دخول الآسيويين" أو "البدو" إلى مصر، وما دامت نقوش مدفن "بني حسن" أظهرت قافلة كنعانية وافدة الى مصر في أوائل الألف الثاني ق.م، إذن لا بد أن يعني هذا وصول الاسرائيليين الى مصر(4). ويفترض هذان الباحثان أنه ما دامت السجلات المصرية تحدثت عن استخدام الأسرى من قطاع الطرق والمجرمين، الذين كانوا ينتشرون في مناطق فلسطين والعراق وسورية، في بناء المعابد والمشاريع المصرية، فلا بد أن يكون "الاسرائيليون" بين هؤلاء. ولأن أدلة التنقيب في " أريحا " المزعومة على أنها " جيريشو " التوراتية، لا تظهر أثراً لأحداث التوراة في الفترة التي يفترض حدوث الغزو فيها، ولم تكن فيها تلك الأسوار الشهيرة التي حطمتها أبواق الكهنة حسب أبحاث كاثلين كينون، فإن الباحثين يخمنان أن تسرب "الاسرائيليين" إلى فلسطين كان سلمياً، وأنهم أقاموا في مستوطنات في المنطقة الجبلية الجرداء من فلسطين بينما ظل الكنعانيون والفلستينيون والمصريون في السهول الخصبة والمدن والقلاع، في الوقت الذي يؤكد فيه هذان الباحثان عدم وجود أثر يدل على هذا التسرب (5).

والملحوظ هنا، أنه حتى حين يلجأ الباحثان الى التخمين فإن تخميناتهما تنسف أسس الروايات التوراتية، ولا تنقذ "تاريخية" توراتهما المنسوبة إليها من الشكوك المحيطة بها، فهما يتحدثان في أماكن أخرى بثقة عن المكتشفات الأثرية، وكيف أنها ترسم خطاً من التطور متماسكاً، يبدأ بتحول المستوطنات الأولى للكنعانيين الى طور متمدن في الألف الثاني ق. م، وهو عصر ازدهار الحضارة الكنعانية الذي لم يتوقف ولم يقاطعه شيء في المعمار والفنون والنظم الادارية في نطاق دولة المدينة، ثم بدء دخول التأثير المصري منذ القرن السادس عشر، أي بعد انحسار الامتداد الكنعاني الى دلتا النيل حيث أقام الحكام الذين يطلق عليهم اسم " الهكسو" (أي حكام البلاد الأجنبية) مدينة "أفاريز" الكنعانية (1750 – 1550 ق . م). ودخل المصريون الى فلسطين عسكريا وثقافيا وأقاموا فيها المدن المحصنة (آخر مكتشفات المدن المصرية في "تل السعديات" شرقي الاردن). وحين ضعفت الإمبراطورية المصرية في القرن الرابع عشر وما تلاه، حدثت غزوات من تطلق عليهم السجلات المصرية "شعوب البحر" لكل من مصر وشواطيء فلسطين. وهي غزوات استمرت بضعة قرون. وتُظهر

السجلات المصرية أسماء هذه الشعوب مثل "الشردن" و" التجارك" و "الشيش" و "اللوكا" .. الخ ، وعرباتهم الحربية (6).
وجاء الانسحاب المصري التدريجي من فلسطين في القرن الثاني عشر ق . م والظهور القوي لشعوب البحر، وبخاصة " الفلستيين" الذين تؤرخ التنقيبات الأثرية وصولهم في بداية القرن الثاني عشر الى الساحل، وتظهر هذه التنقيبات تدميراً لحق بالمدن الكنعانية وسمات ثقافية جديدة وافدة، وبخاصة نمط الفخاريات المتعدد السمات بين كنعانية ومصرية ومسينية، وظهور معابد جديدة ذات صلة بمعابد بحر ايجه، وهو ما ينطبق على الأشغال المعدنية ومستلزمات العبادة والتماثيل الفخارية. وظلت المدن الفلسطينية المستقلة محافظة على أنماط حياتها وتقاليدها الفنية والدينية، ولا تظهر هذه الفترات الممتدة منذ الانسحاب المصري عسكريا وحتى الاحتلال اليوناني أثرا غير كنعاني الطابع، الى درجة أن الحملات الفارسية التي عبرت الى مصر، ومن قبلها الآشورية، لا تؤكد نفسها بأدلة قوية (7).
هذا هو السجل الآثاري الذي يحاول نفرٌ من حملة المعاول بيد والتوراة باليد الأخرى زج السجل التوراتي في ثناياه من دون نجاح يذكر. فلم يتوصل علماءُ الآثار فقط الى عدم وجود أدلة أثرية تشير الى وجود مملكة للإسرائيليين في فلسطين في الفترة المشار اليها، بل بدأوا بالإقتراب من حقيقة أن زجّ هذا السجل وفرضه يقتضيان إلغاء كل الأدلة الأثرية والسجلات الحضارية ... والعقل أيضا، مثلما نجد لدى وليم ف. البرايت في مقتطف نسبه إليه الباحث أ. باول ديفز. ففي ضوء استمرارية الثقافة الكنعانية الموصوفة آنفاً، لم يجد مفراً من اللجوء إلى هذه الفرضية العجيبة للحفاظ على معتقداته : "كان الإحتلال الإسرائيلي للبلد عملية طويلة وبطيئة .. لم يحدث معها تغير مفاجيء في الدين أو أسلوب الحياة؛ لقد تحوّل الكنعانيون إلى إسرائيليين على مراحل غير محسوسة" !! (8)
هناك آخرون لمسوا واقعة تنافر الأدلة الأثرية مع مرويات التوراة، فحاولوا شيئا مختلفاً؛ إلغاء تسلسل الأحداث الزمني الذي يعتمد على السجلات المصرية، ومحاولة إعادة ترتيبه، والاعتماد على اللقى المحلية في فلسطين فقط ... ولكن من دون نجاح أيضاً.

2

في كتاب "قرون الظلام" الصادر في العام 1991، يتحدث مؤلفه بيتر جيمس عن"المشكلة " التي يطرحها ما يسميه "علم الآثار التوراتي"، وهي المشكلة التي قلنا أنها تصادف الباحثين المشبعين بالافتراضات المسبقة عن التاريخ الفلسطيني كلما حاولوا فرض التاريخ التوراتي على السجل الأثري، ووجدوا هوة واسعة بين الإثنين تأخذ بالاتساع كلما تعمق البحث والتنقيب.
يقول بيتر جيمس أن هذه المشكلة تطرح نفسها في انقسام البحث بين فئتين، فئة عدد من الآثاريين الذين يمسكون معولا بيد وتوراة باليد الأخرى، وهي فئة تفرض معتقداتها على المكتشفات الأثرية، وتحاول أن تجعل الأخيرة ملائمة للمعتقدات رغم أنف الأدلة المعاكسة، وتعزّز موقف هذه الفئة صناعة سياحية تنشأ على أساس من المعتقدات لا الواقع. أما الفئة الثانية فهي فئة ترفض سجلات التوراة كلياً بعد أن أظهرت التنقيبات وتظهر أن لا علاقة بين ما يجده علماء هذه الفئة بين أيديهم وبين المعتقدات التوراتية (9) .

ولم يشر الباحث الى الفئة الثالثة ، وبخاصة المدرسة الألمانية منذ القرن التاسع عشر، التي لا ترفض سجلات التوراة، ولكنها تعتقد بأن أحداث هذه السجلات مجرد قصص ومرويات دينية لاعلاقة لها بالتاريخ، ولم تكن غايتها التاريخ الواقعي، وحتى وإن كانت هناك وقائع ضائعة في ضباب أساطيرها فهي وقائع لاتتطابق جغرافيتها مع الجغرافية الفلسطينية، وهو موقف يضع حدا لما يسمى "المشكلة" من أساسها (10) .
لقد تمحّل عددٌ من العلماء الكثير لإثبات شيء أو حدث توراتي بإكمال سطور نصوص ناقصة من مخيلتهم، إلا أن هذا التمحل، رغم أنه لم يقنع الدوائر الأكاديمية حتى هذه اللحظة، إلا أنه لم يجعلهم يضعون أيديهم على حقيقة في متناولهم، وهي أن علم الآثار الفلسطيني لا يعاني من أي "مشكلة" اذا تجاهل الباحث روايات التوراة، بل سيتخلص من الارتباك واللامنطق والتشويش الذي يسببه فرض هذه الروايات عليه. وستنحصر" المشكلة" في أن يجد المؤمنون بهذه الروايات مكاناً وزماناً آخرين لها، إما في عالم القصص الشعبي الخيالي كما يذهب " توماس تومسن"(11) أو في جغرافية أخرى لاعلاقة لها بفلسطين كما يذهب د. كمال الصليبي (12).
إن الشكوك التي تنتاب علماءَ الآثار لم تعد تتعلق بحادث أو حادثين فقط بل بكل "السيناريو" التوراتي الذي يفترض أنه بدأ من مدينة "أور" السومرية مروراً بالأرض الفلسطينية وصولا الى مصر. علم الآثار لا يملك ما يبرهن به على جولة من يسمون "الآباء الآوائل" بين "أور" و "فلسطين" كما يقول جوناثان تب. وقضية " الأسر" في مصر ثم "الخروج" لا دليل عليهما من علم الآثار. وكذلك الأمر مع بقية الأحداث. فأريحا ليست "جيريشو" المشار اليها في التوراة، ولا تملك أسواراً مثل تلك التي يقال أنها انهارت بفعل أصوات أبواق الكهنة.
يكتب بيتر جيمس: "رغم الإتفاق العام على قيمة السجل التوراتي (في أوساط المهووسين بالتوراة بالطبع) الذي يتحدث عن ظهور المملكة وحتى سقوطها، فإن إيجاد صلة بين هذا السجل والأدلة الأثرية يثير مشكلة كبرى..هذه هي الطبيعة "الخرساء" لعلم الآثار الفلسطيني في أحد جوانبه الجوهرية، فليس هناك نقشٌ يذكر الأنبياء الكبار، ولا حتى كبار ملوك إسرائيل داوود وسليمان"، أما "الحجر المسمى "حجر مؤاب" فليست له صلة مباشرة بعلم الآثارالفلسطيني لأنه مكتشف في الأردن(13)، ولأنه حجرٌ تتحدث نقوشه، كما يقول د. كمال الصليبي الذي قرأ نص النقش الأصلي، عن وقائع حدثت في مكان آخر غير فلسطين، ولاشيء فيه يشير حتى إلى أن منطقة التلال التي عثر عليه فيها كان اسمها "مؤاب" في الأزمنة القديمة، بل هي تسمية نجمت عن سوء قراءة لاسم قرية "ءم يب"، وتلفيق آثار باسم ما تدعى "حضارة مؤاب" كما سيأتي بيانه في نهاية هذا الفصل (14).
ويرجع بيتر جيمس هذا النفي التام للمعتقدات الشائعة في الثقافة الغربية الى "سوء الحظ" ، فالقطعة الفخارية المكتوبة بالخط الكنعاني والمكتشفة في تلال فلسطينية تشير الى "الملك" من دون ذكر اسمه. ونهاية أواخرعصر البرونز في فلسطين والتي تربط تقليدياً بالغزو "الاسرائيلي" تشير آثارها المكتشفة إلى شيء آخر: إنها لا تقدم دليلا على هذا الارتباط ولم يظهر التنقيب في مستوطنات العصر الحديدي التالي ظهور مستوطنين جدد. وفي حين أن أوائل العصر الحديدي الثاني (القرن العاشر ق . م) يعتقد أنها شهدت "العصر الذهبي" لداود وسليمان فان آثار هذا العصر لا تظهر سوى تدن في المستوى الحضاري. أما العصر الذي يقال أنه شهد الانقسام الى مملكتين وهيمنة الآراميين على الجزء الشمالي، فلا شيء منه يظهربعد التنقيب في طبقاته الأرضية. وهكذا يصل الباحث الى أن الصورة الناجمة عن كل هذا تتناقض مع روايات التوراة.

وهزت تنقيبات "أريحا" مصداقية الرواية، ودفعت عدداً من الباحثين الى التراجع الى أرضية التخمين وافتراض غزو "اسرائيلي" لا يتضمن نشاطاً عسكرياً، بل تغلغلا سلمياً بطيئا في المناطق الوعرة. بينما دفع باحثين آخرين الى اعتبار الازدهار السياسي والتجاري المنسوب الى "مملكة إسرائيل" خيالا مفرطاً، وأنها إمبراطورية ظهرت على الورق فقط (15).

الأمر بالطبع ليس "سوء حظ" ، ولا هو "خرس الآثار الفلسطينية "، فالمنقبون في الأرض الفلسطينية كانوا محظوظين جداً بفضل الأموال الهائلة التي تدفقت عليهم وساعدتهم في التنقيب، وبفضل الفضول الصحافي المسلط على كل خطوة يخطونها، وثراء المكتشفات التي وضعوا أيديهم عليها، والتي ترسم صورة تاريخية مادية لأناس هذه الأرض من العصر الحجري وحتى عصر الاحتلال اليوناني فالروماني. هذه الآثار لم تكن "خرساء" إطلاقاً، بل أعطت الأبنية والمشغولات الفنية والمدافن والنقوش الكنعانية كل ما يمكن أن تعطيه بأمانة تامة. وتحدثت هذه الآثار، ولكن ليس باللغة التي ود علماء التوراة وأنصارهم سماعها. الغريب بالطبع أن يقال عن إنسان أو نص أنه أخرس لمجرد أنه ينطق بلغة غير التي نود أن نسمعها أويناقض نطقه افتراضاتنا ومعتقداتنا. الأحرى أن يقال أنه تكلم بلغته. إلا أن بيتر جيمس لا يرى إلا "آثاراً خرساء" لمجرد أن هذه الآثار لا تقول شيئا عما تحتشد به المرويات التوراتية. وهكذا نجده يقترح في كتابه، كمخرج من المأزق، وضع تسلسل زمني مختلف للأحداث. أي نقل الأحداث التوراتية إلى أزمنة أخرى قد تلائم مروياتها. ومن هنا جاء عنوان كتابه "عصور الظلام". فما دامت العصور المعتقد أنها عصور ضوء، حسب روايات التوراة، ظهرت في ضوء التنقيبات عصوراً مظلمة، إذن لا بد أن يكون هناك خطأ في ترتيب التسلسل الزمني أفقد الباحثين اكتشاف عصورالضوء.

وفي ضوء هذا المقترح، يتهم الباحث السجل الزمني المعتمد على السجلات المصرية القديمة بالتضليل!(16)، ويأخذ على عاتقه محاولة إيجاد سجل زمني آخر للأرض الفلسطينية لا يرتبط بتواريخ السجلات المصرية، بل يعتمد على مصادر أخرى. وهي محاولة للتغلب على "المشكلة" التي يصفها، أو ما يزعم أنها "مشكلة"، فيحاول إعادة ربط التوراة بعلم الآثار بدراسة اللقى المحلية في فلسطين فقط. ولكن ماذا يجد بين يديه؟ إنه يعود مرة أخرى لمواجهة "المشكلة" ذاتها، فيكتشف عدم إمكان متابعة الفترة الفارسية آثارياً، أما مع فترة ما بعد "السبي البابلي" المفترض أنه وقع بين 587 و52 ق.م، فالوضع أسوأ. ويرفض اعتذار البرايت وتفسيره عدم وجود أدلة أثرية بالقول أن فلسطين "أبيدت تماما" بعد الغزو البابلي سكاناً ومدناً، فحتى روايات التوراة نفسها لا تتحدث عن سبي يتجاوز حدود المدينة المسماة "أورشليم"(17). ويصل الباحث إلى أن خبراء اللغات السامية فندوا محاولات ربط نقوش قطع فخار " تل الدوير" الذي نقبوا فيه منذ العام 1935 وألصقوا به اسم "الاخيش"، باسماء وأحداث توراتية، وأظهروا بعد التدقيق في قراءات هاري تورشنرمن الجامعة العبرية للنقوش المكتوبة بأبجدية كنعانية أنها كانت "نتاج مخيلته الخصبة"، وأنها مضللة بشكل كامل، وأنه أضاف كلمات كاملة من عنده ليستطيع قراءة ما يريد في هذه القطع الفخارية. وفي الوقت الذي يقال فيه أن " سنحاريب " الأشوري أحرق ودمر تل الدوير الذي ألصقوا به اسم "الاخيش" لا يظهر اسم هذه المدينة في سجلات قصره وأخبار حملاته (18).

وهكذا يعود بيتر جيمس الى حيث بدأ، مستشهدا بكلمات أحد المنقبين المتأخرين في تل الدوير: "إن هذه القطع الفخارية الفريدة تثير أكثر مشاكل التاريخ استعصاء في علم الآثار الفلسطيني"(19).

لقد تلمس عالم الآثار الإيرلندي ماك اليسترمبكرا في العام 1925، أي بعد قرن من التنقيبات الأثرية في فلسطين، ما يمكن أن يقود اليه الهوس الايديولوجي حين يصيب المنقب الباحث عما يريد لا عما يجده فعلا. والأمر مع أصحاب "المشكلة التوراتية"، ليس أنهم فقط كرسوا أنفسهم لإيجاد ارتباط غير موجود بين روايات دينية لاعلاقة لها بالتاريخ ومكتشفات أثرية، بل أنهم يتهمون المكتشفات الآثارية نفسها بالخرس، أو "الخيانة" أحياناً. ويمتد الأمرإلى أنهم، في ضوء خيبة أملهم بعدم وجود ما يأملون وجوده، يتناسون ويتجاهلون ما يقع بين أيديهم فعلا. أو يتجرأ بعضهم ويتدخل، فيضيف كلمات إلى سطور النقوش الناقصة، أو يعيد الترتيب الصوتي للكلمات أو يحاول تفسير لغة، وبخاصة لغة عربيتها واضحة مثل لغة " إبلا " بالبحث عن معانيها في"العبرية "، كما قرأنا كيف كان يتصرف الإيطالي جيوفاني بتيناتو، وكما فعل البرايت مع نص ملحمي من " أَجَرت " حين حاول حتى تصحيح بعض الكلمات وهو يجرها عنوة لتكون مماثلة "للعبرية" زاعما "أن كتبة الرقيم الملحمي الكنعانيين قد يكونون على خطأ "! (20).
يضرب ماك اليستر مثلا على نتائج هذا الهوس فيقول: "تتحدث المأثورات الشعبية الايرلندية عن أن تابوت العهد الاسرائيلي مدفون في أحد مرتفعات تل تارا حيث خبأه النبي "إرميا". وفي ملاحقة هذا الهدف حفروا ودمروا التل ولم يجدوا التابوت، ولكنهم وجدوا بالتأكيد أبنية معينة قد تكون ذات قيمة للتاريخ المحلي، ولأنهم لم يكونوا مهتمين بالتاريخ المحلي فلم يهتموا بهذه الاشياء ... وضاعت" (21).
وفي وقت قريب حذر عالم الآثار الإسباني رودريغو مارتين غالان من هذا الهوس الأيديولوجي نفسه، وكأنه يتحث عن نمط التنقيب الذي مارسه علماء الآثار اللاهوتيون في فلسطين على نحو خاص. بل ويطلق على هذا النمط صفة "الجرائم الأثرية الفظيعة التي ارتكبت في أزمانٍ ماضية في الحفريات التي استهدفت الوصول إلى سويات محددة تعود لحضارة بعينها" (22)، ويضيف "أما الجريمة التي تتكرر دائماً، فهي مسألة القيام بتنقيب أثري بتفكير مسبق يعتمد الاستدلال، فثمة أهداف معينة تكون لدى الباحث الأثري قبل البدء بأية أعمال حفرية، ويقوم الباحث بالحفر في موقع أثري ما بقصد البحث عن دلائل ومستندات تاريخية لفكرة يريد أن يثبتها ويبرهن عليها، وغالباً ما يصل الباحث إلى هذا، ولكنه سيدمر ولا شك شواهد وطبقات أثرية يمكن أن تتناقض مع نظرياته، ولا يمكنه بالتالي أن يعرف ما حدث في موقعه الأثري الذي ينقب فيه، وهو بهذا يقوم بعملية تزييف للتاريخ، إضافة إلى حرمان علم الآثار من وثائق يتجاوزها أثناء الحفر كان يمكن أن تساعدنا بمعرفة الحقيقة على وضع علم حقيقي لتاريخ المنطقة التي يتم فيها التنقيب (23).
وهذا ما حصل بالضبط في الحفريات المبكرة في مدينة القدس، حيث اتبع المنقبون طريقة الحفر بالأنفاق بحثا عن افتراض وهمي هو وجود أساسات المعبد اليهودي الذي لم يكن هناك في يوم من الأيام، فضيعوا فرصة دراسة الطبقات الأرضية وقطع الفخار الى الأبد (24).

3

يقدم كتاب ديفيد روبرتس – الرسوم واليوميات – المسمى "الأرض المقدسة" في طبعاته المتعددة التي بدأت بالصدور منذ منتصف أربعينات القرن التاسع عشر (25)، نموذجا خالصا لنظرة ثقافية غربية الى الشرق العربي، وفلسطين تحديداً، لا ترى في جغرافيته الطبيعية والبشرية سوى مساراتِ التاريخ التوراتي، حتى وإن اصطدمت هذه المساراتُ بما يناقضها من شواهد وأسماء وأدلة أثرية.

روبرتس هو فنان القرن التاسع عشر الاسكتلندي الشهير الذي قام برحلة الى مصر وفلسطين ولبنان ما بين 1838 و 1839 إبان سيطرة حاكم مصر محمد علي على هذه المناطق، وانتجت رحلته مجموعة من الرسوم لمدن وآثار وأناس الأراضي التي مر بها، بالاضافة الى سجلٍ كتبَ فيه الفنان انطباعاته، وروى الأحداث التي شهدها، فجمع بذلك بين المشاهد البصرية والرؤية الفكرية. وتأبى إحدى دار النشر التي أصدرت هذه المجموعة من الرسوم الليثوغرافية مرفقة بسجل الرحلة في العام 1990، إلا أن ترفقها بسرد تاريخي للأب جورج كرولي لا يمت بصلة لعلم الآثار والمكتشفات الحديثة، بل بما كان رائجا في القرن التاسع عشر عن هوية هذه الأرض وسكانها، ويكاد ينتمي بمجمله الى روايات وخرافات العصور الوسطى الأوروبية، وبخاصة إبان حروب الفرنجة التي يسمونها الحروب الصليبية، أكثر مما ينتمي الى العصور الحديثة.

في السرد الذي وضعه كرولي لا وجود لشيء اسمه "العرب" وانما هنالك التسمية الخرافية التي عرفها الغربيون: "السراسنة"، ولا يرد ذكر لهؤلاء، وبخاصة في ما يتعلق بتحرير بلاد الشام من السيطرة الرومانية، إلا في سياق أنهم سبب معاناة المدينة المقدسة – القدس – تلك التي لا ترتفع معاناتها الا مع سيطرة "الصليبيين" عليها !

أما وصف الأمكنة، فيستند الى ما يتخيله كرولي بتأثير روايات التوراة التي تشكل خلفية المشهد. ولا يتأخر ديفيد روبرتس في هذا المضمار، بل يتقدم أشواطا بعيدة رسما وكتابة .

والمتأمل في اللوحات الليثوغرافية يجتذب نظره أن روبرتس ينصرف تماما عن مشاهد الحياة العامة في المدن العربية التي زارها: الاسواق والمدارس والمساجد والبيوت السكنية، فهو إما مشاهد لها من الخارج وسط الجبال والمرتفعات والسهول القاحلة، أو جالس في دير من الأديرة يرسم جدران الدير من الداخل. وأعطت هذه اللوحات انطباعا أوليا عن الخلاء الواسع الذي تقبع فيه مدن أثرية خالية من السكان، اللهم إلا من بضعة شخوص بأزياء تركية وبدوية يتناثرون عند البوابات أوينصبون خيامهم بين البطاح .

وهذه اللقطة الأخيرة هي ما تميزت به كل اللوحات تقريبا، إذ أنها لاتكاد تخلو من سكان البادية والأتراك حاملي السيوف والطبنجات المسترخين فوق الرمال بلا مبالاة.

لم يكن روبرتس يعرف بالطبع سوى ما ملأ مخيلته: شرق التاريخ التوراتي، وما عداه لم يكن إلا هوامش على صفحة هذا الوجود، وفي ذلك كانت مخيلته ودوافعه مستمدة من ثقافة العصر الفيكتوري في بريطانيا، العصر الذي سادت فيه تقاطعات وتبادلات متنوعة، حسب دراسة موثقة للباحث إيتان بار- يوسف، " بين المشروع الإمبريالي لإستكشاف وتمثيل فلسطين ثم غزوها وبين الموروث الطويل لإستدخال الصور التوراتية المركزية مثل الأرض الموعودة والشعب المختار وصهيون، واستخدامها من قبل انجلترا والإنجليز" (26). وهذا العصر الفيكتوري ذاته هو الذي شهد منذ مطلعه (1800) ميلاد مشروعين "الاستعمار اليهود لفلسطين تحت الحماية الإنجليزية" يفصلّهما الأب د. جوزف حجّار اعتماداً على الوثائق الدبلوماسية والأدبية لذلك العصر(27) . ولهذا لم يكن أمراً استثنائياً أن تأتي لوحات روبرتس معبرة تعبيراً وافياً عن أسطورة الشرق الخالي من البشر والمحتشد بالمدن

المقدسة المهجورة. أو بعبارة أدق، جاءت لوحاته معبرة تعبيراً واقعياً عن تلك الدعوة التي سيكون لها تأثير كبير في الغرب: ا كتشفوا واستعمروا الأرض الخالية !
فنان القرن التاسع عشر هذا لم يشاهد في العرب سوى "متوحشين" لم يعيشوا أبداً بين الجدران، أزياؤهم غريبة مختلفة، وكلهم "مسلحون" وتتكرر صفة "المتوحشين" إلى درجة لافتة للنظر، حتى في وصف أولئك الذين رافقوه في رحلته لحمايته في منتصف قرن مضطرب.
لم يكتب روبرتس عن سكان المدن ولا "شاهد" سكان الأرياف، ولم يصورهم رغم أنه تحدث عن الأراضي المزروعة التي مر بها والمدن التي أقام بين أسوارها. واكتفى بمراقبة حركات وسكنات البداة وتصويرهم، والتعبير عن دهشته البالغة لأنه اكتشف معبداً مصرياً بحالة جيدة على قمة جبل في صحراء سيناء، وكأن هذه الأرض ليست أرضا مصرية !
ويلعب ناشرو الكتاب لعبة خبيثة لخدمة مقولة الأرض الخالية التي روّجت لها الصهيونية ومازالت، بأن أرفقوا مع كل لوحة ليثوغرافية صورة فوتوغرافية حديثة للموقع نفسه.
وبالمقارنة البصرية يظهر الفرق شاسعاً بين موقع يكاد يكون صحراوياً في ثلاثينات القرن التاسع عشر وبين الموقع نفسه المحتشد بالخضرة والعمار والسكان في أواخر القرن العشرين. وتوحي هذه المقارنة البصرية بالأيدي "البيضاء" التي تزعم الصهيونية أنها أسدتها للأرض الفلسطيني (28).
ليس من المؤكد أن الفنان الإسكتلندي الذي كان خاضعا في رؤيته البصرية الانتقائية للرائج من أساطير عصره، خطر بباله أن لوحاته ستوظف لأداء هكذا وظيفة، وربما لم يكن قصده إثارة موجة حماس لاستعمار "الأرض الخالية"، إلا أن هذا هو ما حصل في هذه الطبعة الجديدة للوحاته. فظهرت المدن العربية كومة أحجار نائية في الأفق وسط مهاو ومرتفعات سحيقة وجرداء. وساعد التلوين الليثوغرافي الذي أضيف الى اللوحات ، وبخاصة مع طغيان اللونين الاصفر والرمادي، على إظهار أخصب البقاع وكأنها صحراء خالية، وهو ما يعزز من جانبه الصورة الكامنة في العقلية الغربية؛ صورة الصحراء التي انسحبت حتى على المناطق العربية الشمالية في فلسطين وسوريا ولبنان. وكل ذلك حتى تظهر المفارقة الجلية بين الأخضر الذي تلتقطه الصورة الفوتوغرافية الحديثة والأصفر المنسوب الى الماضي، ماضي الناس والأرض. وتكاد هذه الرؤية أن تكون مستلة من أسطورة توراتية عن "خراب" حل بأرض فلسطين ينتظر مرحلة إعادة "إعمار" في آخر الزمان . ويبدو أن إيحاءات هذا المفهوم التوراتي هي التي تقف وراء رؤية فلسطين كأرض "خربة " خالية حتى وإن كانت مكتظة بالسكان في عيون الرحالة والفنانين والصحفيين القادمين من الغرب، وهي التي تقف في أساس الإنكار الصهيوني غير المعقول لأي وجود بشري قبل تدفق المستعمرين المسلحين (29) .
الكتاب بهذا المعنى صورة أعيدت صياغتها لتلائم أغراض الحاضر الصهيوني. ليس لأن شروحات كرولي تشير إلى وجود "أرض اسرائيل" حتى قبل قيام دولة بهذا الإسم على أرض فلسطين بعد اغتصابها بالقوة الغربية فقط ، بل لأن المنحى كله يود القول أن الأرض الخالية التي شاهدها روبرتس لم تعد خالية. وربما لهذا السبب عمد ناشرو الكتاب الى تصديره بكلمة لعمدة القدس المحتلة تيدي كولك، والى إعادة نشر خرائط للأرض المقدسة هي مما وضعه التوراتيون منذ قرن ونصف تقريبا كما سنبين بعد قليل. خرائط تحاول أن تحدث تطابقاً بين الجغرافية الخيالية للتوراة والجغرافية الطبيعية لفلسطين، فتظهر فيها مدن مثل "سدوم" و "عمورة" جنوبي البحرالميت، وتطلق على المدن والأراضي تسميات لم تعرفها تاريخياً ولا أثبتها علم الآثار، بل وضعها توراتيون في محاولة لايجاد تطابق بين

المدن والأراضي الكنعانية والفلسطينية ومدن وأراض ورد ذكرها في التوراة، حتى لو اضطرهم الأمر الى لوي أعناق المدن وأسمائها، أو تجاهل الطوبوغرافيا والمسافات.
قلنا في البداية أن هذا الكتاب يقدم نموذجا خالصا لنظرة ثقافية غربية لا ترى في المشهد الفلسطيني غير مسار التاريخ التوراتي، ونعني بذلك نظرة أخرى تتجاوز ما يسمى "النظرة الاستشراقية" بعامة. فالنظرة الأخيرة لا تتجاهل "الآخر" العربي، بل تضعه موضع الدراسة بكل تفاصيله. أما النظرة المتجاوزة فتتجاهل وجوده في فلسطين تماما. وقلما التفت الباحثون الى آليات هذه النظرة ووسائلها التي تدخلت في تشكيل صورة فلسطين في العقلية الغربية، وقاومت حتى الصورة "الاستشراقية" التي كانت – رغم شوائبها – صورة معرفية الى حد ما بالعربي تراثا وتاريخا. ويطلق الباحث الأمريكي لورنس ديفيدسون على هذه النظرة التي تنتزع من الجغرافية العربية قطعة أرض من الشرق وتنسبها إلى الغرب مصطلح "ما بعد- الإستشراق" في ضوء ملاحظته أنه مع تزايد تدفق البعثات الأثرية على فلسطين في عشرينات القرن الماضي، أي في أول عقد من عقود الإحتلال البريطاني العسكري لهذا البلد، وفي ظل وعد بريطاني بإقامة "وطن قومي" لليهود في فلسطين، وإدراج عصبة الأمم لهذا الوعد في قرارماسمي تضليلا "انتداباً بريطانياً" ، نشأ ما يمكن تسميته بمسرح لعلم الآثاريلعب فيه علماءُ الآثار الغربيون أدوار ممثلين يمثلون أمام جمهور مشاهدين ماضياً مفترضاً لفلسطين مرتبطاً بالتوراة. وعلى هذا المسرح يتم استبدال صورة يهودية – مسيحية مثالية حسب طلب الإستهلاك الغربي بجزء من ماضي الشرق، بفلسطين تحديدا. وكون هذا الذهاب إلى ما بعد الإستشراق تركز على فلسطين، فهذا يعني أن هذه المنطقة العربية نظر إليها الغرب على أنها مستعمرة طبيعية له، على خلاف مصر البريطانية وسوريا الفرنسية. لقد كانت فلسطين "جزءا تمت إعادة الإستيلاء عليه من أرض وقف أعطاه الله للغرب" (30). وتلاحظ الباحثة نادية الحاج "إذا كان علينا فهم ممارسة التنقيب عن الآثار وما استتبعه، لايمكن استبعاد البعد الإستعماري للإستيطان اليهودي، أو، إذا أردنا الذهاب إلى الأساس، فهم القوى المحركة وراء بناء الدولة الإسرائيلية القومية وحدود المخيلة اليهودية القومية التي تبلورت في نطاقها" (31)
وتضيف: "لقد كان محو بعد الصهيونية الإستعماري أحد أكثر النتائج أهمية، والتي تنجم عادة عن تحويل الإستعمار للهيمنة إلى تشكيلة من النتائج تقنع الغزو والسيطرة على الأقل من منظور أولئك الذين يبنون ويدعمون الدولة اليهودية " (32) .
إن كتاب روبرتس في طبعته الحديثة تجسيد لهذه النظرة تجاه فلسطين، وهي ليست النظرة الاستشراقية بعامة، بل نظرة الإستشراق الإستعماري الغربي- الصهيوني تحديدا.

4

لم يكن كتاب "ديفيد روبرتس" إلا جزءاً من تيار واسع من كتب الرحالة الغربيين وجد إقبالا منقطع النظير في أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبخاصة كتب الرحلات الشرقية التي كانت تفتح النوافذ، أو هكذا يعتقد، على عالم غريب مثير يكاد يكون أسطوريا. والأمر المثير للانتباه أن صور الطرائف والغرائب والشاذ وغير المعقول التي قدمتها هذه الكتب ستكون أساسَ "المعرفة" الغربية وأساس سلوكها تجاه الآخر، العربي تحديداً، وتفكيرها فيه في القرن العشرين اللاحق وأوائل القرن الحالي.

يكتب الرحالةُ ج.س. بكنغهام في العام1816 في كتابه "رحلات في فلسطين" متذكراً رحلاته قائلا: "أخذتُ أدون ملاحظاتي بسرعة في ما يتعلق بالأماكن التي مررنا بها منذ مغادرتنا القدس، وسبب ذلك يعود إلى أنني لم أجد منذ ذلك الحين برهة انفرد فيها بنفسي وأكتب ملاحظاتي بعيداً عن العيون، حتى لا أثير الاشتباه عندما يرى الآخرون أدوات غريبة كالقلم والورق(33) .

ما يلفت الانتباه في هذه السطور التي وردت ضمن كتاب رحلة للمؤلف إلى الشرق العربي، ليس كونه يدون ملاحظاته بسرعة، أو يتوق إلى الانفراد بنفسه، بل اعتقاده بأنه سيثير الشبهات حوله إذا رأى الآخرون (العرب بالطبع) "أدوات غريبة" بين يديه كالقلم والورق! ولا نعرف هل استقى الرحالة هذا الإحساس أو "المعرفة" بأن القلم والورق أدوات غريبة بالنسبة للشرقيين قبل أن يأتي إلى الشرق، أم أنه افترضه افتراضاً وهو يلاحظ العيون من حوله تحاول اقتحامه واقتحام عزلته؟ ولكن من المؤكد أن هذه "المعرفة" أو هذا الإحساس لم يقم كلاهما على أساس سليم. فمن المضحك القول أن القلم والورق أدوات غريبة بالنسبة للإنسان العربي سواء كان فلاحاً أو بدوياً أو مدنياً في أوائل القرن التاسع عشر. صحيح أن الطباعة لم تكن قد انتشرت على نطاق واسع آنذاك، ولكن الورق الذي عرفه العرب في العصر العباسي وأوصلوه إلى الغرب لم يكن غريبا لا عن لغتهم ولاعن المشهد البصري الذي يعايشون. وهل كان القلم كذلك؟.

الصور التي ترسمها سطور بكنغهام للعربي صورة ملفقة لم تستند إلى معرفة تاريخية أو معاصرة، إنها صورة مختلقة تدخل في الخطاب الغربي منذ ذلك الزمن، وتساهم هي وصور أخرى مرافقة، وعلى المسار نفسه، في خلق "الشرق" وفق مصلحة ومشتهى سلطة محددة، هي سلطة "معرفة" أصبحت تسمى"إستشراقا" بكل ماحملته هذه المعرفة من مسلمات وضوابط وضواغط يخضع لها أي متحدث في أمورالشرق. ولكن كتب الرحالة لاتقدم إلا جانباً واحداً من جوانب هذا البناء الذهني الذي سنجده في ما بعد ينمو ويتطور في الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية، ومجسداً في السلوك أيضا تجاه الموضوع الشرقي. ومن الخطأ حسبان هذا الرحيل نحو الشرق، أي الرحيل نحو الآخر، "رحيلا " استكشافيا. لقد كان رحيلا حاملا معه مسلماته ومنظوره، وتمسك بهما ولايزال في قاعات المحاضرات الجامعية ووسائط الإعلام ومراكز الأبحاث.

من استعراض عناوين الكتب الشهيرة التي صدرت وقدمت للقارئ الأوروبي أخبارالرحلات في القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، نلاحظ تكرارالربط بين زيارة الشرق العربي وزيارة أرض التوراة أو الأرض المقدسة أحيانا. والقارئ لأمثال هذه الكتب التي شكّلت العقلية الغربية العامة والأكاديمية وأعطتها ملامح صورتنا كبشر وأرض وتاريخ، يكاد يعتقد أن الرحالة ينظر إلى ما حوله عبر "مرشح" خاص يضعه على عينيه، فلا يرى المكان القائم حاليا، بل يرى فيه المكان الخيالي الذي أعطته إياه نصوص كتبه الدينية، حتى لتجده يتوقع أن يسمع أصوات الغابرين في طرقات المدن الحديثة، ولا يرى الناس المنتشرين في شعاب الحاضر بقدر ما يتخيل أناس الماضي الذين يلمحهم واقعيين أكثر واقعية من الأحياء. الأحياء بالنسبة لرحالة ذلك الزمن

المشغول بالامتلاك والسيطرة أشباح أو متطفلون أو من الطارئين الذين يمحوهم ويحكم عليهم بالمحو تعسفا.

يكتب الشاعر الفرنسي الفونس دي لامارتين في كتابه "رحلة إلى الشرق":
" .. لو عشتُ في القدس، أنا الشاعر المتواضع الذي وجد في زمن منحط وصامت، لاخترتُ مكان إقامتي ومتكئي الحجري في المطرح الذي اختار فيه "داود" مكانه ومتكأه في "صهيون". إنه أجمل مشهد في اليهودية وفلسطين والجليل، فعلى اليسار هناك القدس بـ "هيكلها" وصروحها التي كان بمستطاع الملك أن ينظر إليها مليا دون أن يرى"(34).

"المرشّح" الآخر الذي ينظر الرحالة خلاله إلى الشرق، بشراً وأماكن وأزمنة، هو ذاكرته الخاصة، ذاكرة المكان الذي جاء منه وأحداث تاريخه. وهكذا، وأمام نار في مخيم بدو استضاف الكابتن الأمريكي وليم لينتش في العام 1848، لم يكن هناك هؤلاء الفرسان العرب الذين هم جزء من تضاريس أمة ومدنية قائمة منذ أبعد الأزمان، بل كان هناك قوم من نوع آخر.

يكتب لينتش في كتابه "قصـة الحملـة الأمريكية إلى نهر الاردن والبحر الميـ ـ ـت": " وفي المساء ذهبتُ أنا والدكتور أندرسون إلى خيمة رفاقنا العرب حيث كانوا قد ربطوا خيولهم التي كانت تصهل صهيلا مرتفعا. فيا له من مشهد قبائلي. وجلسنا على البسط في الداخل، وشاهدنا النار وحولها أولئك الرجال البدائيون اللاذين كانوا يذكروننا بهنود بلادنا، ثم جيء بطعام العشاء، وهو يتألف من شاة كاملة فوق الأرز، وتناولنا الطعام دون شوك وسكاكين.." (35) .

هذا الارتباط في ذهنية لينتش بين هؤلاء الرجال في المخيم وبين هنود بلاده، ليس مصدره التشابه القائم بين وجوه تحيط بالنار وسط خيمة، فهذا أمر يمكن أن يحدث في أي رحلة خاوية مع أي جماعة، ولكن مصدره المعرفة المسبقة بأن هؤلاء الذين يجهل الكابتن لغتهم، ويجهل تاريخهم، بل ويجهل ماذا يدور في أذهانهم، ليسوا سوى بدائيين يحيطون بالنار، شأنهم في ذلك شأن الهنود الذين اتهموا بالبدائية أيضا. الأكثر دلالة، أن هذه الأوصاف ستبرر أي عملية إبادة مماثلة لعملية إبادة الهنود الحمر. وهو ما تجلّى تماماً بعد قرن تقريبا من إقامة هذه المماثلة بين سكان فلسطين والهنود الحمر حين سيطرت على الرأي العام الغربي هستيريا الحماس لاستعمار فلسطين، وكل أرض عربية يمكن استعمارها وإبادة سكانها (36). في مخيلة الرأي العام الغربي تكمن أسطورة غزو فلسطين الموصوفة في التوراة، تلك الأسطورة التي تلعب دوراً وظيفياً في الغرب المسيحي منذ زمن طويل. وكانت هذه الأسطورة قد شكلت إدراك مستعمري العالم الجديد، أي أمريكا، لأنفسهم، كما يقول عالم الآثار الأمريكي ألبرت إي . جلوك، مقتطفاً عبارة للباحث ب. ترجر، فرأوا في مشروعهم "تكوين إسرائيل جديدة، ورأوا في الهنود كنعانيين سلم ا لهم ممتلكاتهم ووضعها تحت تصرفهم" (37) .

بهذه الطريقة تُرسم صورة العربي منذ وقت مبكر وتظهر على شاشة الوعي الغربي بأمثال هذه"الاكتشافات" الطريفة: عدم معرفة الورق والقلم، وانعدام الحياة الحضارية، أوحياة "متوحشين" لامعنى لوجودهم في "أرض التوراة" الخربة التي تنتظر"الإسرائيليين" لإعادة إعمارها. وسيقوم رحالة آخرون بتزويد المخيلة الغربية بـ "مكتشفات" أخرى لا تقل عن هذه انغلاقا وأنانية، تعبيرا عن تعسف مصدره غياب "الآخر" تماما، أو إرادة تغييبه، أو تحويله إلى كائن غير مرئي في أفضل الأحوال.

لا يعني هذا بالطبع أن كل استكشاف الرحلات الغربية كان خاضعاً لأمثال هذه "المرشحات"، وخاضعا بالتالي لسوء فهم يجعل الرحالة يتصور النظرات الحذرة إليه خوفا من الأدوات "الغريبة مثل القلم والورق"، أو أن الاجتماع حول نار المخيم يعني ممارسة حياة تماثل حياة الهنود الحمر، بل هناك اكتشافات فعلية تضيء جوانب مظلمة في تلك الحقب التي لم يسجلها فرد من أصحاب

هذه البلدان الشرقية، أو تلفت نظره، لأنها لم تكن خارجة على مألوف أو ما هو منغمس فيه، أو لأنه، وهذا هو الأرجح، كان ما يزال منغمسا مع جماعته في تناشد الأشعار والأقوال لا في تداول الملموس والمعاش.

وتحتشد كتب الرحالة في القرن التاسع عشر بملحوظات مهمة حول طبيعة الحياة الاجتماعية، وإن كان معظم التركيز ينصب على نمط الحياة البدوية والزراعية. هناك كتاب يكاد يكون فريداً من نوعه للفرنسي "جيرار دو نرفال" اهتم فيه بجوانب الحياة في المدينة، والعلاقات في السياق المدني، إلا أن كتب معظم الرحالة تكاد تكون تسجيلا لحياة ومعايشة في الهواء الطلق تجد متعتها في ملاحقة حياة البداوة وصراعها مع الحياة الزراعية. ولهذا نجد أول ما يلفت نظرالرحالة الغربي هذا التنافر الاجتماعي القديم بين الحياة الزراعية والحياة البدوية، أوالتنافرالماثل بين ماض مزدهرحشد القصص الديني مخيلته به، وحاضر ثقيل مفروض على الأرض المقدسة. ونجد لدى الرحالة ملحوظة مهمة عن تأثير الأساطير القديمة على عقول الناس، إلى درجة أن معظم تصوراتهم مستمد من قصص مثل ألف ليلة وليلة، والقصص الشعبي. ويكشف هذا عن عنصر مهم من عناصر تشكل عدد من المعتقدات التي يتصور بعض الناس عندنا أن أصلها كامن في العقيدة الدينية، في حين يكشف التدقيق أن أصلها كامن في القصص والأساطير الشعبية، ولا تزال تحكم تصورات وسلوك الشرقيين والعرب منهم بخاصة حتى في الزمن الراهن. مثال ذلك حكايات البحث عن الكنوز، والسحرة الذين يأتون من الغرب عادةً لاكتشافها، وإخضاع حرسها من الجن والشياطين وفك طلاسمها.. وما إلى ذلك. تنقل جاكلين بيرين عن الألماني بوركهارت حديثا عن العرب الذين صادفهم في رحلاته هكذا: "من المؤسف أن فكرة الكنوز الدفينة في المباني القديمة راسخة رسوخا عميقا في أذهان العرب والأتراك، فهم لايكتفون بمراقبة كل خطوة يقوم بها المسافر، بل يعتقدون أنه يكفي الساحر الحقيقي أن يرى ويتفحص الأماكن التي أخفيت فيها الكنوز التي يعتقدون أن له علماً مسبقا بها من مطالعته للكتب القديمة التي وضعها الكفار الذين كانوا يقيمون في هذه الأماكن، لكي يصبح قادراً على أن يصدر متى شاء أمراً إلى الجني حارس الكنز بإحضاره بين يديه"(38).

في كتابات رحلات مثل هذه تشبه مواد اجتماعية وأناسية، أو تقارير عن أوضاع السكان والبلاد، يمكن عزل العناصر المختلفة التي تتسرب إلى كتابات الرحالة بسبب المعتقدات المسبقة والنوايا والرغبات(المرشحات) عن العناصر التي تمثل اكتشافات جديرة بالاهتمام في سياق فهم الجانب الموروث من التصورات والتصرفات الإنسانية الراهنة. وبالطبع لايمكن أن تعد هذه تاريخاً معتمدا يخترع من أجل البرهنة عليه علم آثار خاص به أو خريطة لجغرافية خيالية كما حدث مع حكايات التوراة .

مازال اسم "أرض التوراة" أو "الأرض المقدسة" يُطلق على الأرض الفلسطينية في الآداب الغربية، وما زالت أسماء الأشخاص والأماكن التي نثرها على الجغرافية الفلسطينية

"أوسيبيوس البامفيلي"، مطران قيسارية، في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي (39)، وصولا إلى الخرائطُ التي رسمها لفلسطين توراتيون مهووسون بدءاً من عشرينات القرن التاسع عشر،هي الخرائط المعتمدة. بل أن بعض العرب، وحتى بعض الفلسطينيين، يأخذ بالتسميات المغلوطة للمدن الفلسطينية معتقداً فعلا أنها تسميات أصلية قديمة، جاهلا أنها تسميات حديثة جداً من وضع علماءُ لاهوت، يهود ومسيحيون أحياناً، حاولوا إيجاد تطابق بين الجغرافية الفلسطينية وجغرافية التوراة.

وعلى رغم ما أثبتته الأبحاث اللغوية والطبوغرافية والسكانية والآثارية المعاصرة من خطأ هذه المطابقة المتعسفة، وعلى رغم الأدلة الملموسة على أن إنقاذ روايات التوراة والحفاظ على مصداقيتها على الأقل، إن كان لها من مصداقية، صارا يقتضيان إبعادها عن الجغرافية الفلسطينية، إلا أن الثقافة الشائعة ما زالت أسيرة بواكير البحث الآثاري والطبوغرافي الذي قام تحت ظلال الخرافات. أو بعبارة أخرى، على رغم انكشاف الأخبار الأولى عن كونها إشاعات لا حقائق، ما زالت الإشاعة هي صاحبة السطوة.

من هذه الإكتشافات التي رافقت البواكير وظلت راسخة حتى الآن في الكتب الغربية، التعليمية والبحثية رغم الكشف عن أنها مجرد إساءة فهم لنقش من النقوش، اكتشاف مسلة رمسيس الثاني في بيسان في العام 1923. فنجد رئيس بعثة جامعة فيلادلفيا المنقبة هناك يعلن فورا عن اكتشاف مسلة طولها ثمانية أقدام أقامها هناك رمسيس الثاني حين كانت بيت-شان قلعة مصرية مكتوب عليها " استخدمتُ الآسيويين في بناء مدينتي". وقال رئيس البعثة كليرنس فيشر للصحفيين أن "هذه الكلمات تشير إلى المدينة التي بناها هذا الفرعون في مصر، وهي أول إشارة إلى الإسرائيليين تظهر في وثيقة مصرية"(40) . وظهر في ما بعد أن النقش المصري لايقول شيئا من هذا، ولكن من أساؤا القراءة لم يغالبوا الإغراء التقليدي الذي لايقاوم في البرهنة على شيء واحد واحد يشغل أذهانهم، وهو إثبات تاريخية القصص التوراتي.

كان النقش يقول في الحقيقة "أن رمسيس الثاني (1301- 1234 ق.م) هزم زعماء قبائل رثينو والعامو والشاشو، وقدموا له مراسيم الطاعة في قلعته رعمسيس الجميلة"(41) ومع ذلك ظلت القراءة – الإشاعة الأولى هي السائدة، وتنقلت في الكتب حتى يومنا هذا كما قرأناها في كتاب جوناثان تب وروبرت تشابمان الصادر عن المتحف البريطاني في العام 1990 (راجع هامش 4).

" أريحا " أيضا من المدن الفلسطينية التي تحيط بها الاشاعة. فحتى هذه اللحظة ما زال هناك أناس على نطاق واسع يعتقدون أن "أريحا" هي نفسها " جيريشو " أو "جرش" التوراتية بالحروف الساكنة. وأنها أول مدينة فلسطينية اجتاحتها جموع "الاسرائيليين" الذين خرجوا من "مصر" بعد عبودية طويلة وتجوال طويل في الصحراء. وقد جاؤا إليها من الشرق لا من الغرب أو الجنوب !. تقول الرواية التوراتية أن " جرش " ذات الأسوار المنيعة، كانت أول مدينة يصادفها الاسرائيليون بعد أن قطعوا أو عبروا "الأردن"، وليس من المعروف أي "يردن" أو جرف باللغة العربية القديمة هو المقصود. وتم احتلالها وفق الرواية التوراتية بطريقة طريفة: فقد أخذ الكهنة يطوفون حول أسوارها وهم ينفخون بأبواقهم، فتصدعت الأسوار المنيعة وانهارت. وهنا اندفع الغزاة الى المدينة المنكوبة ونهبوها. وتقول الرواية إياها انه أقيم نصب تذكاري وضع فيه تابوت العهد في موقع "جلجال" لتخليد ذكرى عبور الأردن.

كيف التصق اسم " جرش" بأريحا أولا ؟

قد يستغرب الكثيرون، ومن العرب بخاصة، لو علموا أن الأسماء (أسماء المدن والقرى والمعالم الجغرافية الفلسطينية) بدأت تتعرض للمحو منذ مايقارب 150 عام تقريباً وليس قبل هذا التاريخ، وأن هذا المحو الذي يتبعه إلصاق أسماء توراتية تحل محل الأصل، اتخذ طابعاً مبرمجا وشمل كل أنحاء فلسطين بعد العام 1948، أي بعد أن أقيم الكيان الإستعماري المسمى إسرائيل على أرضها. وهذه الأسماء هي التي يتداولها وينشرها الخطاب الصهيوني، الأدبي والسياسي والعسكري والجغرافي، ويتابعه في ذلك الخطاب الغربي، وبعض من الخطاب العربي. وبالعودة إلى كتاب "التوراة وعلم الآثار" الصادر عن المتحف البريطاني في العام 1990، وهو ليس الوحيد في هذا المضمار، نجد مؤلفيه يلخصان الأدوار الحضارية السائدة في فلسطين منذ بواكير عصر البرونز مروراً بعصر الحديد وصولا إلى العصر اليوناني فالروماني، ويكتشفان أنها أدوار حضارة واحدة هي الحضارة الكنعانية، ولم يدخل عليها أي عنصر غريب من حضارات أخرى. وهذا معناه أنه لامكان بالفعل لما يسمى بدولة إسرائيل القديمة ولا خريطتها. ثم يتوصل المؤلفان إلى أن العلم الحديث يرفض "الحسن الحظ"، حسب تعبيرهما، الميل الذي هيمن خلال أكثر من قرنين نحو استخدام علم الآثار"كأداة لإثبات أو نفي صحة التوراة كوثيقة تاريخية"(42). وهذه العبارة الأخيرة، التي لم يذكرالكاتبان مصدرها، واردة في كتاب لعالم الآثار د. بول لاب يؤكد فيه "أنه حتى مع استخدام منهج ملائم، فإن علم الآثار لايستطيع إثبات أو نفي التاريخ التوراتي"(43) .

إذن لماذا يظل العالمُ يستخدم أسماءً ملصقة بالجغرافية الفلسطينية إلصاقاً، فيطلق على فلسطين اسم "إسرائيل"، وعلى أريحا اسم "جرش" وعلى القدس اسم "اورشليم" وعلى الخليل "حبرون" وعلى نابلس اسم "شكيم" ، وقل مثل ذلك عن بقية المدن والأماكن الفلسطينية ؟

نفهم السبب إذا عدنا إلى الوراء، إلى بدايات الإهتمام الغربي المعاصر، والبريطاني بخاصة، باستعمار فلسطين، ومحاولات إيجاد تطابق بين جغرافيتها وجغرافية التوراة. الآثاري الإيرلندي ماك آلستر يروي جانبا من بواكير هذه المحاولات، فيتحدث عن الأميركي إدوارد روبنسون استاذ العبرية في معهد لاهوتي في ماساشوستس، الذي حلم تحت تأثير تشبعه بالتوراة بزيارة فلسطين والتجوال فيها، فالتهم كل ماكتب عنها. وحين بلغ الثلاثين من عمره اعتقد أنه آن له أن يتحرر من أعباء وظيفته، فرحل إلى ألمانيا للدراسة واضعاً نصب عينيه تقديم أطروحة موضوعها جغرافية التوراة، إلا أنه وجد من المحال إنجاز الأطروحة في ضوء عدم اكتمال المعلومات. وهنا صمم على تحقيق حلمه المبكر بزيارة فلسطين والتحقق من أسماء الأماكن الواردة أسماؤها في التوراة، والبحث عن إجابات لم يجدها في الكتب المتوافرة لديه. ونفذ هذا المشروع في العام 1838، فعبر سيناء إلى فلسطين، وبدأ جولته من بير سبع حاملا توراته بيد وخريطة بيضاء باليد الأخرى مؤشرا على الأماكن بأسماء توراتية. وقام في العام 1852 بزيارة ثانية، وأدخل إضافات كثيرة على المادة التي جمعها خلال رحلته الأولى وألصقها بالأرض الفلسطينية (44) .

كانت اهتمامات روبنسون محدّدة بشدة، فقد كرس نفسه للملامح الأرضية، وبخاصة تلك الموصوفة في التوراة انطلاقا من افتراض مسبق، وهو أن هذه الأخيرة تصف التضاريس التي يتجول فيها. كان علم الآثار بالنسبة له بلا أهمية تذكر، وكذلك الفولكلوروالتاريخ الطبيعي والفروع البحثية الأخرى. كان غرضه الرئيس التعرف على المواقع التوراتية معتمداً على ما حفظته اللغة المتداولة من أسماء الأماكن القديمة، وهذا نهج خطر، كما يقول آلستر، لأن هذا التعرف يجب اختباره بوسائل أخرى، وهناك أدلة على أن أسماء الأماكن لم تظل ثابتة عبر العصور، وفي أحوال كثيرة حين يكتب الاسم القديم والحديث بالحروف

اللاتينية يوحي بتماثل خادع يخفي انعدام التطابق بين الإسمين (45). ويمكن قول الأمر نفسه عن بقية الأسماء، ومثالها البارز اسم "أريحا"، حيث لاتوجد علاقة أثرية أو لغوية بينه وبين الإسم "جيريشو" الذي أطلقوه عليها. ومحت تنقيبات كاثلين كينون في الخمسينات والستينات من القرن الماضي أي علاقة. إضافة إلى أن اسم " جيريشو"، أو "جرش" ، حملته عدة أماكن خارج فلسطين، وما تزال هناك خربة بهذا الإسم ذكرها الهمداني من القرن العاشر الميلادي بوصفها كورة نجد العليا وتقع في رأس وادي بيشة (46)، وأشار إلى وجودها كخربة تقع في أعالي هذا الوادي من أودية نجران فؤاد حمزة إثر زيارته للمنطقة في خمسينات القرن الماضي (47) .

ولم يقتصر عمل روبنسون، كما سيقول إدوارد فوكس منذ وقت قريب، على انتهاك مبدأ أولي من مباديء الجغرافية وضعه في الأزمنة القديمة جغرافي وفلكي القرن الثاني الميلادي بطليموس، المبدأ القائل أن التضاريس الأرضية أكثر أهمية من الخريطة، حين رأى وعمل على أن الخريطة التوراتية أكثر أهمية من التضاريس الأرضية، بل وارتكب تشويها خطيراً، وهو عدم الإهتمام بأي شيء في أرض فلسطين وتاريخها لاشأن له بتوراته (48).

بعد روبنسون، جاء الألماني "تيتوس توبلر" في العام 1853، وانجز رسما لملامح الأرض الفلسطينية على الأسس نفسها، وجاء بعده الفرنسي "فيكتور جاريه" فرسم منفردا خريطة لفلسطين نثر عليها الأسماء التوراتية. ثم نشر "صندوق استكشاف فلسطين" البريطاني خريطته المعتمدة على خريطة مسح عسكري أعدها ضباط بريطانيون ، كوندر وكتشنر، في العام 1895، وأضافت هذه الخريطة أسماء مستلة من التوراة والأناجيل والأسفار السرية المحظورة إلى جانب الأسماء الفلسطينية، ومعظم هذه الأسماء ألصق بفلسطين إلصاقاً، وتنتمي غالبية هذه الأسماء إلى أماكن في مصر وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين، بل وإلى أماكن في أوروبا. وجاء في تقرير الصندوق أن هناك 290 اسما مأخوذاً من التوراة والأناجيل لم يتم التعرف عليها في فلسطين، وهي من أكثر الأسماء أهمية (49)

ويفسر الباحث المعاصر "نيل آشر سلبرمان"، بعد أن يروي من جانبه أيضا حكاية رسام الخريطة التوراتية روبنسون ورحالة آخريدعى "إيلي سمث"، دوافع طمس الواقع الجغرافي والإنساني الراهن لفلسطين بالقول "إن جوهرا تاريخياً اعتقدوا أنه سمة ملازمة للأرض المقدسة، كان أكثر جاذبية بكثير من واقعها الراهن بالنسبة للمستكشفين والزائرين. ومن هنا بدأ علماء الآثار الغربيون منذ خمسينات القرن التاسع عشر التنقيب في الأرض للعثور على آثار ملموسة تدل على ذلك الجوهر المفترض"(50). ويضيف : " .. وتشير عناوين التقارير عن التنقيبات والملخصات التاريخية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مثل "إستعادة أورشليم" (ولسون وارين،1871) و "أورشليم التحتية" (وارين،1876 وفنسنت، 1911) و "أورشليم من الداخل" (جودرش فرير، 1904)، ضمنا ، سواء عن وعي أو غير وعي، إلى أن أورشليم الراهنة (أي القدس) بأماكنها الملموسة، أماكن عملها وعبادتها وأسواقها، كانت وهما، وأن اورشليم الحقيقية طمست أو ضاعت بهذه الطريقة أو تلك أو تم إخفاءها قبل وصول العلماء الغربيين" (51) .

ويتحدث الإسرائيلي ميرون بنفنستي بتفاصيل دقيقة عن عمل الحركة الصهيونية قبل أن تتمكن من إقامة دولتها وبعد أن أقامتها، على تغيير أسماء المواقع الجغرافية الفلسطينية. ويلفت نظره أن الزعيم الصهيوني بن ــ غوريون اهتم في العام 1949 اهتماما ملحوظا بتكوين "لجنة من تسعة باحثين معروفين في حقول رسم الخرائط وعلم الآثار والجغرافية والتاريخ .. وجميعهم أعضاء جمعية استكشاف إسرائيل" (52) . كانت مهمة هذه اللجنة

تسمية تضاريس الأرض الفلسطينية ومدنها وقراها بأسماء عبرية. ولكن لماذا وبأي غرض؟ وماهو السياق الذي ولدت فيه مهمتها ؟ عن هذا يجيب بنفنستي بإسهاب :
"ضمت هذه الجمعية في عضويتها عدداً من القادة السياسيين، وتخطى نشاطها حدود اختصاصاتها الضيقة، واكتسبت مكانة رسمية تقريباً. وبالضبط، مثلما عبّرت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بأبحاثها وحملاتها في قلب أفريقيا وكندا عن الرغبة البريطانية في معرفة العالم من أجل الإستيلاء عليه وضمه إلى الإمبراطورية، عبرت جمعية استكشاف إسرائيل عن الطموح اليهودي إلى امتلاك أرض الأجداد. كان الهدف المعلن والواضح هو إنشاء وتطوير دراسة الأرض وتاريخها وما قبل تاريخها، وتثبيت الجانب الإستيطاني والصلة الإجتماعية – التاريخية بين شعب إسرائيل وأرض إسرائيل". ويلخص هذا التلازم بين استخدام القوة والمعرفة في عملية الإستيلاء الجانب الذي يرويه بنفنستي من سيرة أبيه الجغرافي رسام الخرائط الذي كان يتجول ويقيم صلات ودودة مع الفلسطينيين، ومع ذلك:
"لم تكن جولاته بريئة، كان لديه جدول أعمال واضح لرسم خريطة عبرية للأرض .. وكان مقتنعا أن لديه حقا مطلقا في المطالبة باسترداد وقفه السلفي" (53).
ويضيف: "استهدفت الخريطة التي رسمها والكتاب المدرسي الذي كتبه، تحويل تملك الأرض الرمزي إلى تملك واقعي .. في البداية لم ينظر العرب إلى عمله نظرة جادة، وحين أدركوا الخطر كان الوقت متأخراً .. لقد انتصرت خريطته" (54) .
وبالتوازي مع إغتصاب الأسماء الفلسطينية ومحوها، عمد المستعمرون القادمون للإستيلاء على الأرض من مختلف الأماكن والجنسيات إلى انتحال أسماء عبرية قديمة، والتخلي عن أسمائهم. ويوثق هذا الإنتحال إسرائيلي آخر هو توم سيجف. يقول هذا الأخير أنه "خلال ثمانية عشر شهراً، بين إقامة الدولة وديسمبر 1949، استبدل 120 ألف من الإسرائيليين الأوائل أسماءهم بأسماء عبرية محاولين بهذه الطريقة أن ينزعوا عنهم هوية المنفى" حسب تعبيره. ويضيف "أن هذه الظاهرة بدأت خلال الهجرات الأولى، لكنها بلغت ذروتها في العام 1949، وقد شجع بن ـ غوريون هذه الظاهرة مستخدما، بين أمور، أخرى خاتما أسود، وأمر أن تدمغ به كل رسالة عسكرية تدعو كل جندي إلى استبدال اسمه. وفي حالات معينة، اشترط بن ـ غوريون، للترقية في الجيش وفي الخدمة العامة، تغيير الاسم" (55) . وجاء انتباه الباحثين الغربيين الجادين إلى هذا الإستيلاء على المكان الفلسطيني متأخراً، وأصبح كل من يكشف عن التغيير الذي ألحقته الحركة الصهيونية بأسماء المواقع الجغرافية معرضاً لشتى الإتهامات التقليدية، بما في ذلك معاداة إسرائيل ذاتها، أي الواقع الإستعماري الذي قام على أرض فلسطين بالقوة المسلحة.
جاء في شهادة للباحث توماس تومسن أن أول نقد ظهر لأبحاثه جاء من الأكاديميين الإسرائيليين خلال عمله في القدس في العام 1986. قال تومسن "كان النقد ذا علاقة بعملي المشترك مع فرانكولينو غونسالفث على الأسماء الفلسطينية. أجرينا بحثا تمهيديا حول التغيير في أسماء المواقع الجغرافية منذ العام 1948، ووصلنا إلى نتيجة مفادها وجود براهين مؤكدة على عمل مبرمج ومتواصل لتجريد كافة أنحاء فلسطين من أسماء المواقع العربية، وقمنا بنشر نتائج هذا التقصي في بلجيكا في العام 1988 مستقلا أحدنا عن الآخر، وأتهم بحثنا ونتائجه بأنهما معاديان لإسرائيل والسامية" (56) .
هكذا تم تجريد فلسطين من فلسطينيتها ومن سكانها، من ماضيها وحاضرها، وتم "إخراس تاريخ فلسطين" بتعبير توماس تومسن. فأصبحت "أريحا" جرش، وأصبحت " القدس" اورشليم، وأصبحت " الخليل " حبرون... بل وأصبح " مرج ابن عامر " ازدراليون ، وابتكرت تسميات عدة للجبال والقرى والسهول، وتم تحريف أسماء القرى والمرتفعات

الفلسطينية وتصويتها وفقا للتصويت العبري. ويضم كتاب أصدرته "مؤسسة الدراسات الفلسطينية" المستقلة في بيروت قائمة طويلة تضم مايقارب 7000 اسم لمواقع فلسطينية، منها أكثر من 5000 موقع جغرافي وعدة مئات من الأسماء التاريخية قامت دولة الإستعمار الصهيوني بعبرنتها، بالإضافة إلى وضعها أسماء للمستعمرات التي قامت على أراض فلسطينية مغتصبة (57).
بهذه الطريقة صارت فلسطين "أرضا" للتوراة تماما مثلما يطلق عليها الآن اسم "اسرائيل" الذي لم تعرفه في أي عصر من عصورها. وكان الأمر انتحالا واسع النطاق، باعتراف الصهاينة أنفسهم، تم على الورق أولا ثم تسلل إلى الخطاب السياسي والعسكري والثقافي والتاريخي. ولكن الضربة الكبيرة لكل هذا الإنشاء الخيالي جاءت على يد علم الآثار وفقه اللغات المقارن والسجلات المكتوبة على ألواح الطين والحجر، حين أخرجت من تحت الأرض آثار الحضارات العربية القديمة في شرق الوطن العربي. ويسجل تاريخ هذا الجهد الذي انطلق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم غيبته موجة الإحتلال الغربي بعد الحرب العالمية الأولى، ليعود إلى الظهور ويبلغ ذروته في أواخر القرن العشرين، متتاليات من سقوط الإنشاءات التوراتية واحداً بعد الآخر. وكانت ضربة علم الآثار الكبيرة هي أن "المواقع التوراتية" المزعومة لم تكن مواقع توراتية في أي يوم من الأيام .
تقول كاثلين كينون في العام 1976 "أن الادعاء المبني على اكتشاف أسوار المدينة (جرش) والتي قيل انها تعود للفترة المعاصرة ليوشع، وغالب ما قيل وظهر في نصوص عديدة، ثبت بطلانه الآن تماما" (58). وتضيف "لقد عجز علم الآثار حتى الآن عن الحصول على أي اثر لموقع "جلجال" الذي اقيم فيه تابوت العهد تخليدا لذكرى عبور الأردن" (59).
وحصيلة ما وصلت اليه هذه المنقبة البريطانية المتوفاة في العام 1978، هي أنه لا دليل على الدخول الاسرائيلي، ولا أثر لأي نوع من الثقافة الاسرائيلية في المنطقة، وأن الأخبار المتداولة حول وجود ما يسمى "اصطبلات سليمان" في " مجدو" لا تعدو كونها أخبارا مختلقة (60).

6

في أواخر العام 1999، آثار قيام الأوقاف الإسلامية بفتح ثلاثة أبواب مغلقة تؤدي الى المسجد المرواني الذي بني في القرن السابع الميلادي، والملاصق للمسجد الأقصى، حنق وغضب مجموعة يهودية متعصبة تطلق على نفسها اسم "أمناء جبل الهيكل" وتزعم أن المسجد المرواني هو اسطبلات للملك سليمان ! .
وكالة رويترز التي نقلت الخبر في الثامن من ديسمبر من العام نفسه، استخدمت هذه التسمية أيضا حين ذكرت "أن هذه المداخل الثلاثة تؤدي الى غرفة تحت الأرض معروفة باسم اسطبلات سليمان أو المسجد المرواني"!. الحقيقة غير ذلك بالطبع، لأن تسمية الأماكن الفلسطينية اعتباطا باسماء مستمدة من التوراة اليهودية أمر ترفضه غالبية المؤرخين وعلماء

الآثار، والغربيون منهم بخاصة، وأن ظل من يطلقون على اسم علم الآثار الفلسطيني اسم علم الآثار التوراتي يتمسكون بتسمياتهم وينقلونها من مكان الى آخر، من دون أي دليل أثري أو تاريخي.

قضية الأبواب الثلاثة هذه تفتح في الحقيقة ملف قضية الآثار الفلسطينية وتاريخها الذي يقارب قرناً ونصف، أي منذ بداية التنقيب الأثري الفعلي في العام 1866، وهو العام الذي بدأ فيه مبعوث صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، تشارلس وارين، مسح مدينة القدس والقيام بالتنقيب فيها. هذا الملف احتشد بالكثير من الأوراق وتضخم، واحتلطت فيه الحقائق بالأوهام، وإن كان نصيب الأوهام أكثر، كما يستفاد من مراجعة التقارير والكتب المؤلفة في هذا المضمار.

المثير للإنتباه في هذا الخبر الذي تداوله مغفلو الصحافة العربية والعالمية، هو تعبير "اسطبلات سليمان" الذي لا يعرف الكثيرون بالتأكيد أنه سبق وأن أطلقه أوائل المنقبين التوراتيين على بناء في مكان آخر يبعد عن القدس كثيراً، يسمى "تل المتسلم" جنوب جبل الكرمل، بعد أن أطلق هؤلاء على موقع التل اسم "مجدو" التوراتي من دون بينة.

وكان عالم الآثار الإيرلندي "ماك الستر" قد كشف منذ وقت مبكر استحالة أن يكون هذا الموقع هو "مجدو" التوراتية التي قيل أن "تحتمس" الثالث احتلها ودك أسوارها، وحمل منها كنوزاً ملكية لا تحصى كما جاء في حولياته المنقوشة.

فهذا التل – تل المتسلم – كشفت التنقيبات فيه عن موقع استيطان بشري لا يتجاوز كونه قرية صغيرة ذات أكواخ بدائية، متواضعة بتحصينات أكثر تواضعا (61).

رغم ذلك شاعت التسمية، تسمية "اسطبلات سليمان" المختلقة التي اطلقها المنقبون على أحد مباني هذا الموقع ذي الغرف المتعددة، قبل أن تتبين الآثارية البريطانية كاثلين كينون كما أسلفنا، أن هذا المبنى، والمباني الأخرى التي تحمل السمات نفسها في عدة مواقع فلسطينية وسورية، لا علاقة لها بسليمان، وليست اسطبلات أصلا، ويبدو لنا أن المنقبين نقلوا التسمية وأطلقوها على المسجد المرواني، في سياق الحملة الصهيونية التي منعت حتى الآن استكمال التنقيب عن هذا المسجد المبني في القرن السابع وإعادة ترميمه.

يرجع هذا التلاعب والإعتباط في إطلاق التسميات على التلال الأثرية في فلسطين، وعلى المدن والقرى الى العام 1838 كما شرحنا آنفا ، عام رسم الخرائط وفرضها على التضاريس الأرضية، إلا أن هناك أنواعاً من الهوس رافقت هذا التلاعب أصبحت محل تندر علماء الآثار في العقود اللاحقة.

المثال الأكثر طرافة هو مثال رجل فرنسي يدعى فيليس دو سوليس فقد زوجته في العام 1850، فانطلق الى فلسطين باحثا عن السلوى والخلاص من أحزانه، وهناك أقنع نفسه أنه اكتشف قريتي سدوم وعمورة تحت مياه البحر الميت. وفي القدس، خلال جولاته، اجتذبت انتباهه سلسلة غرف دفن منحوتة في الصخور شمالي المدينة يطلق عليها العوام اسم "مدافن الملوك" وهي مجموعة مدافن لعائلات ثرية ذات مكانة ترجع الى العصر الروماني بدليل زخارفها، وتقبل دو سوليس على الضد من كل الأدلة الأثرية الاسم الشائع، ورأى في المدافن الأضرحة الفعلية لملوك مملكة يهوذا التوراتية قبل النفي !، بل وأغرق في رؤيته ومضى ليحدد إرضاء "لتصوراته" موضع جسد كل ملك، وأطلق بجرأة اسم تابوت داود على شظايا غطاء مزخرف، ودفعه استقبال نظرياته المريح إلى أخذ إذن من السلطات التركية، وفحص التوابيت الحجرية عن قرب ونقلها الى متحف اللوفر. وبدل أن تحل نقوش على أحدها مشكلة هويتها، أثارت مشكلة جديدة، فقد وجد منقوشا اسم "الملكة سادان" أو"ساداه "(سعده)

على أحدها وهو مكتوب مرتين بشكلين مختلفين من أشكال الابجدية الكنعانية، ولا يوجد في التواريخ المعروفة ضوء يلقى على شخصية هذه السيدة (62).
وحين بدأت الحفريات العلمية المنظمة في القدس كانت بداية تشارلس وارين ماثلة، وقد خلفت شيئا من الخراب لا يستهان به؛ كان منهجه أن يحفر شقا عموديا في الأرض، ثم تنطلق من هذا الشق وعند عمق معين عملية حفر دهاليز وأنفاق في الاتجاهات المطلوبة، وهي اتجاهات غايتها الوصول الى ما يفترض أنه معبد سليمان، فكانت تجرى بمحاذاة الأسوار والممرات تحت الأرضية.
هذا المنهج نظر اليه علماءُ الآثار في ما بعد نظرتهم الى عمل تخريبي غير مثمر، فهو يضيع الأدلة الأثرية بدل أن يستكشفها، إلا أنه أعطى معلومات خاصة بتفاصيل بناء الحرم الشريف وساحة معبد هيرود الروماني، وكمية من العاديات لم تكن هناك وسيلة ملائمة لتأريخها.
تنقيبات فريدريك جونز بلس وصاحبه مكاي في العام 1890 لم تختلف في منهجها عن تنقيبات وارين، فقد استخدما طريقة الشقوق العمودية والانفاق ودارا حول أسوار القدس، وصولا الى المهاد الصخري، ولم تؤد كل هذه الحفريات الى الكشف عن شيء مما ظل يدور في أذهان المنقبين، ولا في أذهان المحزونين من أمثال دو سوليس، ولكن الملاحظ أن اطلاق الاسماء اعتباطاً، وتكوين صناعة سياحية صغيرة حول موقع أو أثر كان يرسخ الأوهام في أذهان العامة.
فحين يمر السائح من بوابة "يافا" مثلا التي تطلق عليها السياحة الاسرائيلية "باب سليمان" ويسمع الدليل يحدثه عنها بصفتها هذه، فإن المعرفة التوراتية، ستمنعه من تذكر أنها بوابة تحمل اسما أطلقه الفرنجة على مايسميه السكان المحليون "باب الخليل"، وعلى بعد خطوات حين يشير الدليل الى "قلعة داود" إنما يشير إلى قلعة لاعلاقة لها بداود، بل إلى قلعة من قلاع قصر هيرود، وما الاسم الشائع إلا اختراع معاصر أحمق. هكذا، ومن هذين المثالين يتعرف العالم على اسمين لموقعين في القدس كلاهما خطأ (63).

لقد أضاعت تنقيبات ما يدعى "علم الآثار التوراتي" الكثير من الآثار الفلسطينية، ونهبت الكثير بالطبع، في سعيها الى البرهنة على ما هو موجود سلفا في أذهان المنقبين، وإهمال ما لا يستطيع البرهنة. وما يحدث عادة، هو قصة من النوع الذي ذكره بيتر جيمس:
" إذا كان المنقب يؤمن بناء على نصوصه الدينية أن تلا قديما يجب أن يحتوي على أبنية من عهد سليمان، فمن المؤكد تقريبا أنه سيجد أبنية تخدم غرضه إن عاجلا أو آجلا، فالنفوذ الذي يمتلكه الحافز التوراتي على أي اكتشاف يجعل مثل هذا التعرف أمراً ثابتا، رغم أنف أي دليل معاكس، وخلال ذلك تنشأ صناعة سياحية صغيرة وتنمو حول "ما ثبت" توراتيا!" (64).
ومع ذلك بدأ يتزايد الاعتراف بالصعوبات الكبرى الناجمة عن محاولات الربط بين السجل التوراتي والأدلة التي يتوصل اليها علم الآثار بين علماء الآثار انفسهم. وإنتقل بعض العلماء من مجرد الشك إلى اليأس من الوصول إلى نتيجة في هذاالإتجاه، ولكن ما يقف وراء هذا اليأس عند الغالبية، ليس النوايا الطيبة ولا النزاهة العلمية المفقودة في هذا الحقل منذ انطلاق البحث فيه في القرن التاسع عشر، بل الوقائع الصلبة، أو "صمت" الآثار الفلسطينية المحير بالنسبة لباحث من أمثال بيتر جيمس أدرك صعوبة بل واستحالة الربط بين أدلة علم الآثار والسجل التوراتي، إلا انه أرجع الأمر إلى "الطبيعة الخرساء" للآثار الفلسطينية في أحد أكثر جوانبها جوهرية. فليس هناك نقوش تشير الى الانبياء الكبار ولا حتى ملوك اسرائيل، ويشيع عدم اتساق بين الدليل الأثري والرواية الدينية في كل العصور التاريخية التي كشفت

عنها التنقيبات بدءا من العصر الحجري ومرورا بالعصر البرونزي فالحديدي ووصولا الى العصر اليوناني (65).
يقول بيتر جيمس، الذي يهمل حقيقة أن الآثار الفلسطينية ليست خرساء بل لديها ما تقوله حين تجد من يصغي اليها خالي الذهن من تصوراته المسبقة، أن نهاية أواخر عصر البرونز في فلسطين تربط تقليديا بالغزو الاسرائيلي، ومع ذلك فان السجل الأثري كما يشدّد "لا يقدم شيئا في هذه النقطة ينسجم مع رواية الغزو، ومثال " جرش" أكثر الامثلة وضوحا حيث لم تجد " كينون" حين نقبت في أريحا ما يربطها بجرش والغزو.
وفي الوقت الذي تنسب فيه طبقات العصر الحديدي الى وجود الغزاة الاسرائيليين لم يعثرعلى شيء في هذه الطبقات في عدة مواقع يدل على ظهور مستوطنين جدد في ذلك الزمن، ورغم أن أوائل العصر الحديدي الثاني تمثل كما هو معتقد عصر "سليمان الذهبي" الا أن الدلائل المادية على حضارة هذا الزمن ذات مستويات متدنية بشكل غريب. وفي الروايات التوراتية، أن امبراطورية سليمان بعد وفاته انقسمت الى مملكتين شمالية وجنوبية وأن الشمالية وقعت تدريجيا تحت سيطرة الآراميين في سوريا ولكن أيا من هذين التطورين المهمين لا أثر له في آثار العصر الحديدي الثاني" (66).
بالطبع يمكن أن يضاف إلى ما ذكره جيمس أن كل هذا السجل المروي والذي يفترض أن وقائعه حدثت في الأزمنة المشار اليها، لا تعززه سجلات ونقوش الحضارات الكبرى المجاورة مثل الحضارة الآشورية والفرعونية والبابلية والحتية، والتي تخلو من أية إشارة الى مثل هذه الكيانات المفترضة في فلسطين (67) .
إزاء هذا الواقع الذي لم يعد أحد يستطيع الهرب منه، لا نجد في تاريخ المنقبين التوراتيين سوى التحايل والتلفيق الصريح، بل والصفاقة في أحيان كثيرة. الأمثلة عديدة، وتتناول محاولات إثبات هوية توراتية لمواقع فلسطينية، أو تحريف أسماء معاصرة، أو انتحال أسماء عبرية مستمدة من التوراة من قبل أشخاص غزوا فلسطين في القرن العشرين، وكل هذه المحاولات تقف وراءها أغراض سياسية لا علمية، وأيديولوجية لاتاريخية.
المبدأ المتبع هو اطلاق اسم توراتي على الموقع، ثم التنقيب واستخراج عاديات تنسب الى الموقع التوراتي المزعوم. وحين تثار شكوك بعض العارفين من العلماء، ينقل اسم الموقع التوراتي الى مكان آخر بكل ببساطة، وقد حدث هذا كما رأينا في تسمية اسطبلات سليمان التي بعد الكشف عن ضلالها في تل المتسلم نقلوها لتطلق على المسجد المرواني في القدس، ومثال الدوران بموقع لاخيش التوراتية من مكان الى آخر، يلقي ضوءا ذا معنى على هذا التحايل الذي لا يمكن أن ينطبق عليه الا اسم المهزلة. فقد نقب عالم المصريات السير فلاندرز بيتري في العام 1890 طيلة ستة أسابيع في تل الحسي غرب الخليل، بعد أن أطلقوا عليها اسم "حبرون"، ظنا منه أنه موقع لاخيش التوراتية (68) ، واتضح بعد المزيد من التنقيبات أن هذا الاسم اطلق على المكان الخطأ كما توصلت " كينون" في العام 1970. ولكن هل هنك مكان صحيح ؟
المحاولة الثانية لالصاق اسم لاخيش بتل الدوير في العام 1938 تصلح لاستخراج طرائف ممتعة. فهذا التل اطلقوا عليه اسم لاخيش منذ البداية ونقبوا فيه في ضوء هذه القناعة، ليس لسبب سوى اتخاذهم من اسم قرية مجاورة له تدعى "أم القيس" سبباً.
فقد اسقطوا من اسم القرية الف التعريف، كما تسقط عادة في اللغات الأوروبية، فأصبح الاسم " أم لكس" وبتصويت " لكس" على الطريقة العبرية تصبح " لاكيس" ولأن هناك تبادلا بين السين والشين والكاف والخاء بين بعض اللغات التي تدعى سامية، تحول اسم " أم القيس" الى "الاخيش" بقدرة فذة من قدرات الجهل والتعمد والتعمل. وفي ضوء هذا الاعتقاد

المسبق بأن الموقع أصبح هو موقع لاخيش، قرأ خبير اللغة العبرية نقوشا عثر عليها في التل مكتوبة بالأبجدية الكنعانية (اطلقوا عليها اسم العبرية القديمة !) وبعد ترجمتها خرج هذا الخبير بالنبأ المنتظر: هذا هو بالفعل موقع لاخيش التوراتية .
أما كيف حدث ذلك ، وماذا كان مصير هذا النبأ، فيرويه بيتر جيمس هكذا :
" قرر المنقب جي. ل. ستاركي أن الموقع هو موقع "لاخيش" قبل أن يضرب بمعوله، وهكذا قرر أيضا، بعد أن لاحظ آثار تدمير وحريق في الطبقة الثانية من طبقات الموقع، أن هذا التدمير من عمل الجيش البابلي في العام587 ق. م . كل هذا حتى قبل اكتشاف النقوش التي أطلق عليها اعتباطا "رسائل لاخيش"، وأعطيت هذه النقوش على الفخار للخبير هاري تورشنر فقام هذا فوراً بمقارنة أسماء الاشخاص، بعد أن "رمّمها" وأضاف إليها حروفاً من تخميناته، بأسماء واردة في التوراة. واستنتج أن النقوش تعود الى عصر يرميا، النبي البارز في يهوذا خلال الغزوات البابلية، وبدأ وتحت ظل هذا الاعتقاد بالتعرف على أحداث فردية من تلك المذكورة في سفر "يرميا". فالاشارة مثلا في النقش الرابع الى "لكس" و "عزقة" معا في سياق يوحي انهما تحت احتلال عسكري، استدعى مقارنة مع اشارات يرميا الى هاتين المدينتين كآخر مدينتين صمدتا أمام الهجوم الأخير(69) . وتسلم الدفة عالم الآثار التوراتي " وليم . ف. البرايت " فأضاف ثقله إلى قراءات تورشنر، وتناول النقش السادس المثلوم والذي نصه كما يلي "مولاي .. ألا تكتب .. فعلت هكذا .. سلم" ، وأعاد كتابته فأصبح " والان يا مولاي هل لك أن تكتب لهم قائلا لماذا فعلتم هكذا حتى بأورشليم ؟" محولا كلمات متقطعة قد لا تكون جملة واحدة في الأصل، إلى ترجمة اعتباطية غرضها إيراد اسم " أورشليم " في نص لا يتعلق بها نشرها في أبريل من العام 1941 (70) وهو الفعل الذي نعته د. كمال الصليبي محقا بالصفاقة (71).
بعد كل هذا يجيء دور تعميم وترسيخ هذه "المعرفة" بكل الوسائل، وإيجاد مناخ لها لدى الجمهور الغربي. وتستخدم في ذلك بالطبع الهالة العلمية التي أحاط بها بعضهم نفسه، وبها نصب نفسه حجة سواء في لغات المنطقة العربية التي لايزالون يطلقون عليها تسمية اللغات السامية، أو في الدراسات التوراتية التي تغلق الأبواب أمام أي تاريخ آخر لفلسطين سوى ما يدعى التاريخ التوراتي، أو في علم آثار منطقتنا الذي أعطوه اسم "علم الآثار التوراتي" (72) ويتعذر بعد ذلك معارضة تهافت هذه "المعرفة" وتقويض سطوة خطاب له كل هذا الثقل "الأكاديمي" و "والديني" والسياسي" و "الإحتلالي" ينتقل من جيل إلى جيل.
بين أيدينا مثل بالغ الدلالة . فالقراءة المحرفة المشار إليها التي خرج بها البرايت، ونشرها في أبريل من العام 1941، لشظية فخار تل الدوير رقم 6 ، أعاد جيمس ب. بريتشارد نشرها بعد سنوات وحولها إلى وثيقة في العام 1958 تحت عنوان "قطع فخار لاخيش" ، مقدماً لها بالقول "أنها اكتشفت في آخر المساكن الإسرائيلية في تل الدوير جنوبي فلسطين الذي يمثل قطعا لاخيش التوراتية" متجاهلا كل القراءات التي نسفت قراءات تورشنر والمروج لها البرايت (73).
وتستغل في تثبيت هذه "المعرفة" المتهافته وسائط الإعلام وأهواء الجمهور الذي رسخوا في ذهنه عبر التربية الدينية والسياسية صورة للمنطقة العربية خالدة لاتتبدل؛ صورة المنطقة التي يسكنها طارئون عليها، بداة يعيشون على هامش الحضارات التي أبدعها شعب التوراة الغائب والحاضر في وقت واحد معا! .
والغريب أن الكثير من الأساطير التي يشيعها هؤلاء "العلماء" ينكشف زيفها لدى بعض المختصين، ولكن تظل لها سطوتها التي تستمدها من خطاب تحميه مؤسسات تحولت إلى شبه معابد، وعلماء تحولوا إلى كهنة يتحدثون بلغة لايفهمها الجمهور العادي، فتزيدهم نفوذاً

وسطوة. والطريف أيضا ما لاحظه عدد من العلماء منذ أوائل القرن العشرين؛ أن علم الآثار المجرد من الهوس التوراتي قليل الجاذبية في الأوساط الغربية، فإذا تم الإعلان عن تنقيب في تل فلسطيني لم يتم التحقق من هويته كموقع توراتي استقبل الجمهور هذا الإعلان ببرود، أما حين يقال أن التنقيب سيتم في موقع ذي علاقة بابراهام أو داود فسيثير الإعلان موجة حماس عارمة تدفع بالمال والصحافة إلى الموقع والعاملين فيه (74) . وكلما كان الإعلان " مرتبطا بالبحث أو التنقيب عن شيء خيالي أو أسطوري مثل البحث عن القبائل العشر أو تابوت العهد أو عنزة يوسف الملونة، كانت حظوته بالدعم أكبر" (75).

ويبدو أن هذه الملاحظة ظلت صادقة مع توالي السنوات. يقول ويندل فيلبس رئيس بعثة التنقيب الأمريكية في اليمن في أوائل الخمسينات " .. لاقت دعوة بعثة سيناء لجمع التبرعات قبولا حسنا، نظرا لعلاقتها بالكتاب المقدس، والأهمية الفائقة المعلقة على تصوير المستندات الدينية، والتي كانت تهم دافعي التبرعات أكثر من كتابة مليوني صفحة عن الآثار القديمة" . (76)

من المناسب أن نختم هذا التلخيص للتحايل في نطاق علم الآثار المبثوثة شواهده ولكن الغائبة عن الأذهان، بما يقوله المؤرخ البريطاني " كيث وايتلام" عن الهوس التوراتي:

" لقد منع هذا الهوس والخطاب المهيمن العلماءَ والباحثين والمؤرخين من صياغة تاريخ لفلسطين القديمة وضلل كل الابحاث في هذا المجال".

وطالب وايتلام بكتابة تاريخ لفلسطين مبني على حقائق علم الآثار والدراسة الجغرافية والاقتصادية والسكانية،بعيداعن الافتراضات المسبقة، أوالمعتقدات المتصلبة بالاحرى .(77)

أما توماس . ل . تومسون الذي قضى ما يقارب الثلاثين عاما في دراسة تاريخ فلسطين القديمة في ضوء التاريخ الاقتصادي والجغرافي واللغة والأديان والأدلة الأثرية، فقد توصل الى "أن ماجرى عليه التقليد من الحديث عن عصر ذهبي لاسرائيل قديم، بعاصمة اسمها أورشليم، ومملكة موجودة تسيطر على منطقة شاسعة بين النيل والفرات ووجود هيكل أو معبد، وما الى ذلك، إنما هو صور متخيلة لا مكان لها في أوصاف ماضي فلسطين التاريخي الحقيقي". ويضيف : "ليس هناك من أدلة على وجود مملكة موحدة، ولا أدلة على عاصمة في أورشليم، أو أي قوة سياسية متماسكة وموحدة هيمنت على غربي فلسطين ناهيك عن امبراطورية. ولا أدلة على وجود هيكل أو معبد في الفترة التي تتحدث عنها الموروثات التوراتية، ولا يعزي أمر فقدان هذه الأدلة إلى وجود فجوة في معرفتنا ومعلوماتنا عن الماضي، أو أنه نتيجة طبيعية لاعتباطية البحث والتنقيب، بل لأنه لا مكان ولا سياق ولا عاديات أثرية ولا محفوظات تشير الى وجود مثل هذا الواقع التاريخي، فلا أحد يستطيع الحديث عن عاصمة من دون مدينة، ولا عن دولة بلا سكان، والروايات وحدها لا تكفي، تلك الروايات التي لا يشجعنا ما نعرفه عن أمثالها انها قصدت أساسا ان تكون تاريخا" .(78)

وفي مؤتمر للمستشرقين عقد في روما في العام 2003 ، يقطع الباحث نيلز بيتر ليمش، من جامعة كوبنهاجن ، بأن " المعطيات الأثرية أثبتت الآن نهائيا أن إمبراطورية داوود وسليمان لم توجد أبدا"(79) .

في تاريخ المكتشفات الأثرية في الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن، شمال الكرك تحديداً، يحتل الحجرُ المسمى في الأدبيات الغربية "حجر مؤاب" مكانة مركزية بوصفه حجراً يحمل نقشاً كتابيا يتحدث عن أحداثٍ ذات صلة برواياتٍ توراتية. يقف هذا الحجر الآن، أو شظاياه التي جُمعت من حطامه، بجوار طبعة مستنسخة عنه من الورق غير مكتملة، في أحد زوايا متحف اللوفر الفرنسي منذ أن نقله إليه المستشرق الفرنسي " شارل كليرمون – غانيو" في العام 1873.

انطلقت القراءاتُ الأولى لهذا النقش المكتوب بحروف كنعانية ولغة يطلق عليها العلماء الغربيون اسم السامية الغربية، من فرضية أنه يتحدث عن حروبٍ بين صاحبه الذي يطلق على نفسه اسم "الملك ميشع" إبن الاله كيموش، وبين ملك "إسرائيل" عومري وابنه، وقعت في فلسطين التاريخية، ومن هنا اعتبر الحجرُ نصا "تاريخيا" يؤكد المرويات التوراتية. وفي هذا الضوء تُرجم النقشُ إلى العبرية، ورُسمت جغرافية لأحداثه تتطابق مع المرويات التوراتية كما يفهمها العلماء الغربيون، وبلغ من شدة تمسك قاريء مثل "جون د. دافس" بهذه الفرضية في العام 1891، أنه طعن بمصداقية النقش في المواضع التي ناقض فيها المرويات التوراتية (80). بينما اعتبره د. أ . س. يهودا ملفقاً من أساسه (81).

في السنوات اللاحقة، وفي سياق نقد الرؤيا اللاهوتية التوراتية الثابتة التي ظلت طيلة أكثر من نصف قرن تحاول تطويع المكتشفات الأثرية في شرق الوطن العربي لتروي ما تقوله الرؤيا اللاهوتية التوراتية، ظهرت قراءاتٌ مختلفة لهذا النقش أبرزها قراءة د. كمال الصليبي (1985) ود. توماس تومبسن (1998).

قراءة د. الصليبي هي الأكثر أهمية، لأنه يجيد العربية والعبرية ويعتمد على فقه ماتسمى اللغات السامية وعلى معرفته بجغرافية المنطقة العربية. ولهذا استطاع أن يكشف بسهولة أخطاء قراءة اللاهوتيين الغربيين في عدة مواضع لأسماء الأماكن وجغرافيتها، ونقض حتى تسمية الحجر المنسوب إلى ما يسمى "مؤاب" في شرق الأردن حسب فرضياتهم، وأظهر أن أسماء قرى واردة في النقش مثل " عم يب" و " ديبن" و " هدبء" هي ذاتها القرى المتجاورة في مرتفعات الطائف الحجازية؛ أي " أم الياب" و" والديبان" و "هدبة". إضافة إلى أن هؤلاء اللاهوتيين حذفوا من الترجمة كلماتٍ واضحة الدلالة على "البقر" و "الماعز" و "الأغنام" لأنهم أخفقوا في التعرف عليها.

كل هذا وغيره، قاد د. الصليبي إلى القول أن حروب صاحب النقش لايمكن أن تفسر جغرافياً في إطار فلسطين وشرق الأردن، بل في إطار غرب الجزيرة العربية، وهو مايتضح من قراءة النقش ذاته قراءة سليمة. فميشع حسب ما يروي كان ملك قرية "أم الياب" حيث أملاكه الأصلية، واضطر للجلاء عنها بعد أن عانى هزائم على يد ملك قرية أخرى هو عومري ملك اسرائيل وابنه، فأقام لنفسه ملكاً جديداً في شرق الأردن، وهناك نصب حجره الذي نقشت عليه مآثره (82).

من جانبه، أنكر د. تومبسون أن تكون للحجر قيمة كمصدر لدراسة تاريخ من يسمون زعماً "المؤابيين" و "الإسرائيليين"، وانتقد تحت عنوان "نص يثبت صحة نص" عادات البحث الكسولة التي تعيد صياغة روايات القصاص القدماء كبديل عن البحث التاريخي"، واعتبر د. تومبسون في نقاش مدقق أن هذا النقش ينتمي إلى تراث القص الأدبي عن ملوك الماضي وتمجيدهم، بما يحفل به هذا التراث عادة من أخيلة ورغبات ومعتقدات أسطورية (83).

*

رويت قصة اكتشاف الحجر بطرقٍ وأساليبَ مختلفة، بعضها يشبه قصص أفلام هوليوود السينمائية، وبعضها يشبه قصص الإشاعات، إلا أن العودة إلى مارواه صاحب الاكتشاف الراهب الألماني ـ الفرنسي ف. أ. كلين من ستراسبوغ في مقاطعة الألزاس، وما رواه منافسوه من فرنسيين وانكليز، يمكن أن يكون هو جوهر القصة (84).

يروي كلين هذا، أنه خلال رحلته في العام 1868 عبر البلقاء شرق الأردن، نزل برفقة "سطام" ابن شيخ بني صخر " فندي الفايز" ضيفاً على قبيلة بني حميدة البدوية وخيامها بالقرب من "ذبيان"، وهناك علم أن حجراً يحمل نقوشاً موجود في خرائب "ذبيان"، فثار فضوله، وذهب لرؤيته. فوجد أمامه حجراً بازلتياً أسود بطول أربعة أقدام وعرض قدمين، نقشت عليه كتابة. ولأنه غيرذي خبرة بالكتابات الشرقية القديمة، لم يستطع تحديد مدى أهمية الحجر، واكتفى بأخذ قياسات له ورسمه في دفتره وأحصى سطوره (33 سطراً)، واستنسخ بضع كلمات من بضعة سطور عشوائياً. وحين عاد إلى القدس،مقر عمله كمبعوث من الكنيسة الانكليكانية طيلة عشرين عاماً، أخبر قنصل اتحاد الشمال الألماني المدعو "جي. هـ. بيترمان" باكتشافه بحضور ثلاثة أصدقاء. ولأن القنصل كان خبيرا باللغات الشرقية تبين من الكلمات المستنسخة أهمية الحجر الكبيرة. فقام بالكتابة إلى متحف برلين سائلا أن كان يهمهم أمر شراء الحجر بمبلغ يعادل 400 دولار، فجاءته الموافقة، وعندئذ طلب من أصدقائه الثلاثة كتمان الأمر، إلا أن أحدهم كما عُرف فيما بعد كان قد أفشى سرّه لشخص في الإرسالية اليهودية، هو د. جي. باركلي. وقام هذا من جانبه بإبلاغ المستشرق الفرنسي "كليرمون" الذي سيدخل المسرح ويتنافس مع الألمان للحصول على الغنيمة.

وبدأ القنصل الألماني العمل؛ اتصل بشيخ بني صخر طالباً مساعدته في الحصول على الحجر، إلا أن هذا أخبره أنه لايستطيع مساعدته، إذ لاسلطة له على بدو "ذبيان". فأرسل مدرساً عربياًهو "سابا قعوار" إلى بدو "ذبيان" الذين يعرفهم، وعاد هذا بخبر أنهم رفعوا السعر إلى 4000 دولار. فتحرك القنصل الألماني على صعيد آخر؛ كتب إلى برلين قائلا أن الحجر لايمكن الحصول عليه إلا بمساعدة من السلطات التركية. وببعض من الاتصالات الدبلوماسية حصل السفيرُ الألماني في اسطنبول على رسالة من الصدر الأعظم إلى باشا القدس تفوضه نقل الحجر إلى الألمان، ولكن لأن أراضي شرق الأردن كانت خاضعة لسلطة باشا نابلس، لم يستطع باشا القدس تنفيذ الأمر.

خلال ذلك جرت مفاوضاتٌ إضافية بين "سابا قعوار" وبدو "ذبيان" تكللت باتفاق مكتوب، إلا أن صعوبة جديدة برزت حين وقف شيخ قبيلة "العدوان" عقبة في الطريق ورفض أن ينقل الحجر عبر أراضي قبيلته، فعاد "سابا" مبعوث الألمان إلى القدس خاوي الوفاض مرة أخرى في نوفمبر 1869.

ودخل باشا نابلس على الخط بعد حلّ إشكال الصلاحيات، وطلب من بدو "ذبيان" تسليم الحجر. وجاء الجواب بأن قام هؤلاء بتعريض الحجر لنار حامية ثم صبوا عليه ماءً بارداً لتفتيته، إما لكراهيتهم تسليمه لباشا نابلس الذي أغار عليهم في السنة السابقة، أو لأنهم كما يظن بعض الغربيين اعتقدوا أن في الحجر كنزاً مخبوءاً، أو أن له قيمة سحرية، حين رأوا صراع الغربيين وجهودهم المحمومة للحصول عليه. وتوزعت الشظايا بين الخيام.

من المعتقد الآن أن سبب تعقد أمر الحصول على الحجر جاء بسبب تدخل الفرنسي "كليرمون". فقد قام هذا بارسال مبعوثين إلى بدو "ذبيان" بعد أن علم بوجود الحجر، وفق رواية المساح العسكري البريطاني "تشارلس وارين"، عن طريق الراهب باركلي في ربيع العام 1869. ومن الذين أرسلهم "كليرمون" خزاف فلسطيني يدعى"سالم القاري" الذي سيكون له في مابعد دور في دراما تلفيق

وجود حضارة باسم "حضارة مؤاب"، وآخر اسمه "يعقوب كرفاسة"، لاستنساخ النقش طباعة بقالب مادة لينة وعرض ثمن أعلى للحجر.
وبالفعل حصل الفرنسي على نسخةٍ لسبعة سطور صنعها "القاري"، وعلى نسخة مهلهلة صنعها "يعقوب" على عجل، إذ نشب خلال عملية الطباعة شجارٌ بين أفراد بني حميدة، تضاربوا فيه، فانتزع "يعقوب" قالب الطباعة قبل أن يجفّ وفرَّ هارباً مع جرح تسببت به طعنة رمح في ساقه.
وهذه الطبعة هي التي ستكون دليل "كليرمون" لإعادة تجميع شظايا الحجر التي سعى وراءها، هو والانكليزي وارين، واستطاعا شراءها من البدو بعد أن فقد الألمان اهتمامهم بالحجر حالما علموا بتحطيمه.
وبهذه الطريقة حصل "كليرمون" على قطعتين كبيرتين و18 شظية صغيرة تتضمن 613 حرفا من مايقارب 1000 حرف هي حروف النقش الأصلي، وأضاف إلى مجموعته 18 شظية أخرى تنازل عنها صندوق استكشاف فلسطين البريطاني بعد سنة، فأصبح يمتلك ثلثي النقش الأصلي، أضيفت إليها شظية تبرعت بها "آنة" ابنة عالم يدعى "شولوتمان". وهكذا فإن ما يسمى "حجر مؤاب" الموجود في اللوفر الآن يتكون من ثلثي النقش الأصلي، وثلثه الباقي مجرد صورة مستنسخة.

*

إذا كان التنافس الألماني ـ الفرنسي لعب دوراً في تعقيد عملية الحصول على الحجر سليماً، فإن هذا التنافس سيلعب دوراً أكبر في حدث أصبح يدعى في تاريخ علم الآثار" تلفيق حضارة كاملة"، أي تلك التي تدعى حضارة "مؤاب".
تبدأ هذه الدراما بدخول تاجر عاديات أثرية بولندي على خط الاهتمام بالحجر يدعى "موسس فلهلم شابيرا"، ومساعده الخزاف "سالم القاري". والمعتقد أن هذا التاجرالذي أنشأ دكان عاديات في القدس لبيع عاديات للسواح في العام 1862، كان مشاركاً في المفاوضات بين ممثلي الألمان والفرنسيين والبريطانيين خلال تنافسهم للحصول على الحجر. وما أن انتهى الحجر إلى شظايا بيد الفرنسيين، حتى بدأ "شابيرا" باختلاق عددٍ هائلٍ من العاديات "المؤابية"!
اختلق تماثيل أشخاص من الطين، ورؤوساً بشرية، وأوعية، وقطعاً تصور مشاهد جنسية، وكلها تحمل كتاباتٍ مستنسخة عن "حجر مؤاب". بل ونظم حملاتٍ إلى ما أصبح يعتقد خطأ أنها "أرض مؤاب" حيث كان مساعدوه من البدو يقومون بدفن المزيد من العاديات الأثرية الملفقة، ثم يصار إلى التنقيب واستخراجها بوصفها "مكتشفات".
وبدأ بعض "العلماء" يقيمون على أساس هذه الآثار الملفقة صروحَ نظريات عن هذه "الحضارة" الجديدة. وبلغ الهوسُ والتنافس حد أن الألمان كانوا أول من اندفع لشراء مالفقه "شابيرا" قبل أن يصل إليه منافسوهم الفرنسيون. فاشترى متحف برلين وحده 1700 قطعة "أثرية" ملفقة بأثمان باهظة، وفعل الأمر نفسه أصحاب مجموعات خاصة، من أمثال العسكري البريطاني "هوراشيو كيتشنر". ولكن الشك سرعان ما بدأ يتسرب إلى أذهان عدد من الخبراء، ومنهم الفرنسي "كليرمون" الذي قام بتحريات خاصة أوصلته إلى استجواب الخزاف "القاري"، وعن طريقه عرف الناس الذين كانوا يزودونه بالطين الذي كان يستخدمه لصناعة آثار "حضارة مؤاب" المزعومة.
ونشر "كليرمون" نتائج تحرياته في صحيفة لندنية معلنا أن هذه العاديات التي يبيعها "شابيرا" ملفقة، وهي النتيجة نفسها التي توصل إليها علماء آخرون من أمثال "إميل فريدرش كاوتسكي" و "آلبرت سوسن".

بالطبع، دافع الملفق "شابيرا" عن "أصالة" عادياته بضراوة، ثم أضطر للإعتراف بالتلفيق بعد تزايد الأدلة، إلا أنه جعل "سالم القاري" كبش فداء، وزعم أن هذا الأخير هو الذي كان يخدعه، أما هو فهو ضحية بريئة (85).
وواصل هذا الملفق تجارته، وكان آخر ما لفقه لفائف جلدية تحمل نصوصا توراتية قديمة زعم أنه اكتشفها بالقرب من البحر الميت، وعرض بيعها للمتحف البريطاني بمليون جنيه استرليني. إلا أن بعض العلماء قام بفحصها وأعلن إنها قطع ملفقة، ودخلت قضية هذه اللفائف التاريخ تحت عنوان "فضيحة توراتية". واختفت هذه اللفائف طيلة سنتين، ثم ظهرت في مزاد "سوثبي" حيث بيعت بعشرة جنيهات استرلينية.
وانتهى المطاف بهذا الملفق البولندي إلى الانتحار في غرفة فندق من فنادق "روتردام" في العام 1884، ولا تزال عادياته الملفقة موجودة في متاحف ومجموعات خاصة، إلا أن من النادر أن يتم عرضها (86). كما لايزال ذكر هذه الحضارة المزعومة يرد في منشورات سياحية، ويتغنى بعض الشعراء العرب المغفلين بشخصية "المؤابي" و "مؤاب" .. وما إلى ذلك.

إشارات

1- Keith W. Whitelam, op. cit. p.3
2- Jonathan N. Tubb and Rupert L. Chapman, Archaeology and the Bible, British Museum Publications, 1990,p.81
3- Ibid. p. 77-78
4- Ibid. p. 72
5- Ibid. P. 77
6- Ibid. p. 77
7- Ibid. p. 88
8- A. Powell Davies, The meaning of the Dead Sea Scrolls, Mentor Book, New American Library, 1956, p.48

2

9- Peter James in collaboration with I.J. Thorpe, Nikos Kokkinos, Robert Morkot and John Frankish , Centuries of Darkness: A challenge to the Conventional Chronology of Old World Archaeology, Pimlico, London, 1992, p.162
10- تشير الرسالة الملكية، بتوجيه من الجامعي الألماني "ميشاليس"، إلى بعثة نيبور الدنمركية إلى ضرورة البحث عن آثار بني إسرائيل في العربية السعيدة. أنظر الإشارة رقم 24 في الفصل السادس "ميلاد تاريخ فلسطين القديم".
11- Thomas L. Thompson, The Bible in History: how writers create a past, Jonathan Cape, London, 1999,p.31
12- Kamal salibi,The Bible Came from Arabia : Radical Reinterpretations of Old Testament Geography, Pan Books, London, 1985, p.6
13- Peter James, et al. op. cit. p. 165-167
14- Kamal Salibi, op. cit. p.69
15- Peter James, et al.o. cit. p. 169
16- Ibid. p. 8
17- Ibid. p. 170

18- Ibid. pp. 173-176
19- Ibid. p. 176
20 -W.F. Albright, Recent Progress in North-Canaanite Research, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No.70 (Apr. 1938) p.19
21 -R. A. S. Macalister, A century of Excavation in Palestine, London, The Religious Tract society, 1925, p. 33
22- رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، تعريب وتقديم وإضافة د. خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1998، ص 18
23- المرجع السابق، ص 19
24 -R.A.S. Macalister, op.cit.p. 31

3

25 -David Roberts, Yesterday and Today: The Holy Land, Lithographs and Daiaries, The American University in Cairo Press, 1995
26- Eitan Bar-Yosef , The holy Land in English Culture: 1799-1917, Clarendon Press, Oxford, 2005, p.4
27- د. جوزف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي : حرب الإستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس حلاق وماجد نعمة، مراجعة حسن فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، ص 228.
28 -David Roberts, The Holy Land: Introduction and Historical descriptions by G.Crolly, Text and Lithographs by Courtesy of the Victoria and Albert Muesum's Library, Tera Sancta Arts, 1983.
29 -Neil Asher Silberman, Desolation and Restoration: The Impact of a Biblical Concept on Near Eastern Archaeology , The Biblical Archaeology , Vol.54, No.2. (June, 1991), p.77
30 -Lawrence Davidson, Biblical Archaeology and the Press: Shaping American Perceptions of Palestine in the first Decade of the Mandate, The Biblical Archaeology, Vol. 59. No.2(June 1996) p. 113
31 -Nadia abu El-Haj, Facts on the ground : Archaeology practice and territorial self-fashioning in Israel Society, The university of Chicago Press, Chicago and London, 2001,p.4
32 -Ibid. p.5

4

33- سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، 1987، ص 31

34- ألفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب "رحلة إلى الشرق"، ترجمة د. جمال شحيد وماري طوق، مراجعة واختيار د. علي عقلة عرسان و د. إلهام كلاب، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2006، ص 315 .

35- سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين، ص 63 .

36- يروي د. كمال الصليبي أنه شاهد بعد أن "زفت الإذاعات الأميريكية بشرى انتصار إسرائيل في تلك الحرب (حرب 1967)، واحتلالها كامل قطاع غزة وسيناء من مصر، وكامل هضبة الجولان من سورية، وكامل الضفة الغربية آنذاك من الأردن، حيث "تحررت" مدينة القدس أخيراً، وأعيد "توحيدها"، الجماهير في شوارع شيكاغو تبتهج بالإنتصار الإسرائيلي وتشمت بهزيمة العرب، وهي تصرخ "اقتلوهم جميعا .. اقتلوهم جميعا". أنظر كتابه "طائر على سنديانة ، مذكرات كمال الصليبي" دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الصفحات 258، 259 .

37 -Albert E. Glock, Cultural Bias in the Archaeology of Palestine, Journal of Palestine Studies, Vol.24, no.2 (Winter, 1995) p.54 , Published by : University of California Press on behalf of the Institute for Palestine studies

38- جاكلين بيرين،اكتشاف جزيرة العرب، منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، بيروت، من دون تاريخ نشر، ص 40-41 .

5

39 -C. Umhau Wolf, Introduction for Eusebius's Onomasticon, Christian Classics, Ethereal Library, Calvin Collage, WWW.ccel.org

40- Lawrence Davidson, op.cit.p. 110

41- Stephen L. Caiger, Archaeology Fact and Fancy, The Biblical Archaeologist, Vol.9, No.3 (Sep , 1946) p.64

42- Jonathan N. Tubb and Rupert L. Chapman, op. cit. p. 7

43 -Paul Lapp, Biblical Archaeology and History, The world Publishing Company, New York and Cleveland, 1969, p. 67

44- R. A. S. Macalister, op.cit. p. 21

45- Ibid. pp. 22-23

46- لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1977، ص 256/255 .

47- فؤاد حمزة، في بلاد عسير، مكتبة النصر الحديثة، الطبعة الثانية، الرياض،1968، ص 171 .

48 -Edward Fox , Palestine Twilight: the murder of Dr. Albert Glock and archaeology of the Holy Land, Harper Collins Publisher, London, 2001, p.53
49- R.A.s. Macalister, op. cit. p. 79
50- Neil Asher Silberman, op. cit.p. 78
51- Ibid. p. 79
52 -Meron Benvincity , Sacred Landscape: The Buried History of the Holy land since 1948,University of California Press ,Berkeley ,Los Angeles and London, 2002, p.13
53- Ibid. p. 12
54- Ibid. p. 2
55- توم سيغف، الإسرائيليون الأوائل : 1949، ترجمة خالد عايد و رضا سليمان ورندة شرارة وكمال ابراهيم، مراجعة سمير جبور، تقديم د.محمد المجذوب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986، ص 307/306
56- توماس تومسن، حوار عن تاريخ فلسطين القديمة بين العلم والخرافات والأساطير، أجرى الحوار زياد منى، صحيفة " الحياة " اللندنية، 19 مارس 2001، ص 21
57- شكري عرّاف، المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والتسميات العبرية، مراجعة إلياس شوفاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2004، ص 1 .
58- كاثلين كينون، التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة، دار الجليل، دمشق، 1988، ص 47 .
59- المرجع السابق، ص 47 .
60- المرجع السابق، ص 46 .

61- R.A.S. Macalister, op.cit. p.65
62- Ibid. pp. 26-27
63- Ibid. pp. 84-85
64- Peter James, et al. p. 162
65- Ibid. p. 165
66- Ibid. p. 169
67- Kamal Salibi, op. cit. p. 15

68 -Page A. Thomas, The success and failure of Robert Alexander Stewart Macalister, The biblical Archaeology, Vol. 47, No.1 (Mar . 1984) p. 35
69- Peter James, et al. op. cit. pp. 172-173
70 -W. F. Albright, The Lachish Letters after five years, Bulletin of the American Schools of Oriental research, No.82 (Apr. 1941) p. 22
71- Kamal Salibi, op. cit. p. 68
72- Ibid. p. 63

هنا في هذه الصفحة (63) يحدد د. كمال الصليبي بعبارة مختصرة الفارق بين البحث الأثري العلمي في الشرق الأدنى وبين ما يسمى علم الآثار التوراتي: " فالأول هو عبارة عن محاولات منظمة وموضوعية لدراسة الثقافات والحضارات القديمة للمنطقة وتطورها مرحلة بعد أخرى، وعلى أساس بقاياها المادية، مع الإدراك التام لحدود المعرفة التي يمكن التوصل إليها بهذه الطريقة. والثاني لايمثل أكثر من بحث عن بقايا مادية في مناطق معينة حُددت مسبقا على أنها أرض التوراة، وذلك لتوفير البرهان الأثري على مفاهيم مسبقة للتاريخ التوراتي . وعندما يعثر عالم آثار توراتي على بقايا تحصينات قديمة قرب بلدة بئر السبع الفلسطينية يسمى هذه التحصينات "إسرائيلية" قبل أن يفكر مرة واحدة في إمكانيات أخرى"

73-The Ancient Near East: An Anthology of Texts and Pictures, Edited by James B. Pritchard, Princeton University Press, USA, Oxford University Press, 1958, pp. 212-214
74- R.A.S. Macalister, op.cit.p. 78
75- Ibid.p. 78

76- ويندل فيلبس، كنوز مدينة بلقيس: قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب عمر الديراوي، دار الكلمة، صنعاء، الطبعة الثانية، 1985، ص 23 .

77- Keith W. Whitelam, op.cit.p. 11
78- Thomas L. Thompson, op.cit.pp. 164-165
79- Niels Peter Lemche, Jerusalem and King Solomon: How writers Create the Past, A report of the Conference by Associazione Orientalisti, Rome , Accademia Nazionale dei Lincei, March, 6-7 2003

80- John d. Davis, The Moabite Stone and the Hebrew Records, Hebraica, vol. 7, No.3 (Apr., 1891) pp. 178-182
81- A.S. Yahuda, The story of a Forgery and the Mesa Inscription, The Jewish Quarterly Review, New Series, Vol.35, No.2 (Oct., 1944), pp. 139-164. University of Pennsylvania Press.
82- kamal Salibi, The Bible came from Arabia, Pan Books, London 1985, pp. 68-70

83- Thomas L. Thompson, The Bible in History, Jonathan Cape, London 1990, pp. 8-14
84- Siegfried H. Horn, The Discovery of the Moabite Stone, a chapter in the book titled " The word of the God shall go forth: essays in honour of David Noel Freedman, American Oriental Schools, Eisembrauns, 1983
85- Hershel Shanks, Fakes: How Moses Shapira Forged an entire civilization, Archaeology Odyssey Magazine (Volume 5, No.5) 2002, Sep/Oct. pp.33-41
86- fred Reiner, Tracking the Shapira Case: A Biblical Scandal Revisited, Biblical Archaeological Review, 33, 3. 1997. pp. 66-67

الفصل الثالث

طريق العطــور

الشائع أن الجزيرة العربية منطقة ظلت معزولة عن العالم زمنا طويلا، وهكذا لم تشارك في أي حدث عالمي مهم قبل القرن السابع الميلادي، وبالتالي فان "العرب" ظلوا هامشيين على متن التاريخ الذي صنعته "الحضارات السامية" ثم "الحضارات الهندو- أوروبية"، ولم يظهروا على مسرح التاريخ إلا بظهور الاسلام، في العصور الوسطى على حد تعبير المؤرخ د. فيليب حتي (1). قبل ذلك كانت "شبه الجزيرة العربية" مهد "العرق السامي" كما يقول هذا المؤرخ العربي متابعاً في ذلك ما درج عليه الباحثون الغربيون وما أشاعوه من مصطلحات، ومنها هاجر "الساميون" إلى الهلال الخصيب، وهم الذين عرفوا في التاريخ بوصفهم بابليين وآشوريين وفينيقيين وعبرانيين (2). وبغض النظر عن سوء الفهم الذي ألحقه مصطلح "الساميين" بفهم مجريات الأحداث في الألوف الأربعة التي سبقت الميلاد، وعن الإصرار الذي يشيع في "الخطاب الغربي" على الفصل بين"العرب" المعاصرين وجملة "الشعوب" التي يطلق عليها اسم "السامية" تجنبا للإسم التاريخي والمنطقي: العربية، تحفل الألواح المصرية القديمة والأكدية (بابلية وآشورية) بالإشارات الى علاقات تجعل من الجزيرة العربية مركزاً للأحداث التي شهدتها هذه المنطقة من العالم

الإشارات المتأخرة (يونانية ورومانية) إلى مصر والجزيرة العربية التي وردت لدى المؤرخ اليوناني هيرودوتس الملقب بأبي التاريخ، ولدي ثيوفراست تلميذ ارسطو، وديودور اليوناني، ثم سترابون الجغرافي وكثيرون، لا تتجاوز في الحقيقة ما لخصه صاعد الأندلسي في كتابه " طبقات الأمم" عن كون الجزيرة العربية كانت ملتقى طرق الحضارات من كل الاتجاهات، أي عقدة مواصلات العالم القديم بالتعبير المعاصر (3). وهو ما جعل منها منذ أقدم العصور مسرحاً للصراع الذي دار، واستمرَّ دائراً، للسيطرة على طرقها التجارية منذ الألف الرابع ق . م وصولا الى القرن السادس عشر الميلادي وحتى اليوم .
وقد يبدو هذا القول مبالغا فيه، إلا أن تبعثر وعدم انتظام تسجيل جامع وحيّ لهذا التاريخ، هو ما يجعل من هذا القول مبالغة الى حد كبير.
يقول أبو محمد الحسن الهمداني في الجزء الثامن من كتاب "الإكليل" في معرض تعليله لانحطاط الحضارة في جنوبي الجزيرة العربية: ".. وأما اليمانية فقد ذهب علمهم في أيام بخت نصر لفتكه بقيولهم في عهد أسعد تبع وفي أيام حسان بن أسعد وتخريبه حصونهم" (4) .
وقد تثير هذه العبارة التقريرية دهشة الكثيرين الذين أقام لهم الاستشراقُ الغربي، وخطابه اللاهوتي التوراتي، مجريات الأحداث في المنطقة العربية، وجعلهم يؤمنون بهامشية الجزيرة العربية، إلا أن ما يذكره الهمداني، وجملة من المؤرخين العرب القدماء، اذا استثنينا المبالغات التي تخالف طبائع الاشياء وعاداتها، على حد تعبير ابن خلدون، نجد ما يبرهن على صحته في ألواح الحضارات القديمة إذا قرئت بشكل أكثر دقة ومنطقية من القراءات الشائعة.
لدينا في هذا الصدد جملة من نصوص هذه الحضارات نشرها جيمس ب. برتشارد قبل سنوات، إلا أنه شأنه في ذلك كان شأن الذين سيطرت عليهم الأفكار المسبقة ولم يحسنوا قراءة أسماء المواقع والقبائل الواردة فيها، ولجأوا حتى الى اختراع مواقع مختلفة عن المواقع الطبيعية، مثل نقل موقع مدينة تمنع القتبانية الى جنوب الاردن الحالية، لينسجم هذا الموقع مع تصورهم لمجريات الاحداث، وكذلك فعلوا بقبائل ثمود التي جعلوها تقيم في مكان ما من سوريا. أما النصوص التي لم تنسجم مع تصوراتهم التي أساسها المحوري "التوراة اليهودية" فقد تم إهمالها، أو وضع علامات إستفهام وشك حولها مثل النقوش المصرية الخاصة بحملات الملك شيشنق الأول في غربي الجزيرة العربية . (5)
في روايته لأسطورة ميلاده وإنجازاته الحربية، يسرد سرجون الأكدي، أو السري كين (2371-2316) ضمن ما يسرد أنه " وصل إلى البحر السفلي، وهو الخليج العربي، وسيطر على دلمون "(6)، ودلمون المقصودة هنا، وفق آخر التنقيبات الأثرية الدنمركية، هي سواحل الجزيرة العربية الشرقية التي اشتهرت بمدنها التجارية الثرية، وكانت رأس الطرق التجارية القادمة من موانيء الجزيرة الجنوبية، وموانئ تستقبل سفن مالابار الهندية.
ويروي ابنه مانشتوسو في ألواحه، أخبار حملاته البحرية عبر الخليج العربي، وحروبه مع " اثنين وثلاثين ملكا من ملوك المدن الواقعة في الجانب الآخر من ذلك البحرأخضعهم، واستولى على هذه الأقاليم وبلغ مناجم الفضة والجبال الواقعة ما وراء البحر الأسفل، وجلب الأحجار الجيدة منها، ونحت لنفسه تمثالا وقدمه إلى الإله إنليل .. " (7) .
أما غربي الجزيرة فقد كان مسرحاً لأحداث حربية وسياسية تذكرها السجلات المدوّنة على الألواح البابلية والآشورية، وبخاصة حكاية إقامة آخر ملوك بابل المسمى "نبونعيد" هناك. وينكر الباحثون أو يغفلون أن هذه التحركات البابلية كانت تستهدف السيطرة على طريق العطور الشهير.
يقول جورج روا "أما ما الذي كان يفعله ملك بابل في أصقاع الجزيرة العربية تلك فهي واحدة من أعوص وأزعج المشاكل في التاريخ القديم"(8). ولكن هذه المشكلة لا تعود كذلك في ضوء مجريات أن مركز أحداث المنطقة ومحورها آنذاك كان الجزيرة العربية بالفعل، فقد ورد في سجلات سنوات

حكم نبونعيد أنه دخل الصحراء العربية، وأنه بين سنوات حكمه السابعة والحادية عشرة أقام في تيماء، وسيطر على " أدومو"، أي دومة الجندل، ومن هناك كان باستطاعته التنقل من واحة الى أخرى وصولا ال أثريبو (يثرب) كما يقول نقش اكتشف في حران في السنوات الأخيرة(9).
ويطرح جورج روا احتمالين وراء هذه التحركات، أكثرها منطقية أن نبونعيد بعد خسارته طرق التجارة الشمالية والشرقية حاول تأمين طريق العطور، أوالتوابل كما يطلق عليه أحيانا، الممتد من اليمن إلى مصر وفلسطين مرورا بالحجاز. والاحتمال الآخر هو إندلاع الحرب الأهلية والمجاعة . إلا أن هذين الاحتمالين لا يقدمان كما يرى تفسيرا شافيا لسبب هذه الاقامة الطويلة في تيماء(10).
وفي النصوص التي نشرها جيمس. ب. برتشارد، ومنها ترجمات للألواح الآشورية، أكثر من رواية لمعارك خاضتها القوات الآشورية مع المدن والقبائل العربية على امتداد طريق العطور هذا. ويمكن لأي قاريء عربي أن يتعرف على أسماء المدن والقبائل العربية على امتداد هذا الطريق رغم أن هذه الترجمات تشوش الموضوع كما لاحظ د. كمال الصليبي بتعريفها غير النقدي لأسماء الأمكنة المشار إليها في الألواح بأسماء أماكن فلسطينية وشامية معروفة بدلا من ضبط هذه الأسماء بالحروف الأصلية (11) . ونضيف ، وبسبب مهم آخر وهو أن نية جامع ومترجم هذه النصوص كانت تتجه مسبقا نحو اصطناع علاقة بين هذه النصوص وبين العهد القديم كما ورد في مقدمته حيث يقول "إن الإختيار هنا تم بناء على وجهة نظرترى أن هذه النصوص تمت بصلة للعهد القديم" و "إن هدف الكتاب الأساس، من إختيار النصوص وزمنها، إنما هو لأهمية هذه الوثائق في فهم شعوب التوراة وكتاباتها" (راجع هامش رقم 13، الفصل الأول من كتابنا هذا).
الروايات التي ترد فيها أسماء القبائل والأماكن على طريق العطور متكررة، ونبدأها بألواح شلمنصر الثالث (824 – 858) التي تذكر غزوة طويلة اجتاح فيها عدة مدن واصطدم فيها بقوات متحالفة كان ضمنها قوات العربي جندب صاحب عرابة التي شاركت بألف من راكبي الجمال وقوات أوساناتا (اوسان) وعراد .. الخ .. وانتهت بهزيمة الحلف بين قريتي قرقرة وجلزة (12) .. أما تغلات بلاصر (744 – 727) فيضع قائمة باسماء من دفعوا له الجزية في معاركه على طريق العطور، وتشمل القائمة اسم زبيبة ملكة العرب، ويريم الحبشي، وملك آدومو (دومة الجندل). وتتضمن الجزية ذهبا وفضة وحريرا وعاجا وكساء فيلة وأصوافا ملونة وطيورا برية وخيولا وجمالا (13).
وفي ألواح سرجون الثاني الأشوري ترد تفاصيل أكثر تعبيرا عن حقيقة المواقع وأسماء القبائل، ففي الواحه أنه فرض الجزية على حانو ملك خزاعة وفرعو صاحب مصرو وشمسي ملكة العرب، ويثعمر السبأي، وتضمنت التبر والخيول والجمال (14) . وفي لوح آخر يتحدث عن انه سحق قبائل ثمود والعبابيدي ومرسمانو وحاعيبا، العرب الذين يعيشون بعيدا في الصحراء، والذين لا يعرفون حاكما ولا نظاما، ويقول انه تسلم جزية تضمنت العطور والأحجار الكريمة والعاج والخيول والجمال (15).
ويبدو أن هذه التحركات الحربية كانت متواصلة، إذ يتكرر ذكر أسماء الملكات العربيات في الجزيرة العربية في أكثر من لوح يعود الى أكثر من ملك آشوري، ويصل سنحاريب (704 – 681 ق.م) الى أعماق أبعد على طريق العطور فيذكرأنه حاصر مدينة " تمنع" عاصمة القتبانيين في الجنوب العربي (16) .
ولا تثبت قراءة هذه الألواح مركزية الجزيرة العربية بالنسبة للتاريخ القديم فقط، بل تشير الى أن الحاجة الى العودة الى روايات المؤرخين العرب، وإعادة ترجمة ألواح الحضارات القديمة (بابلية وآشورية وفرعونية) أصبحت ملحة من أجل إعادة تركيب الصورة القديمة للتاريخ العربي المجهول أوالمهمش، أوالذي تعرض حتى للإخراس من قبل باحثين كان همهم الوحيد تشظية تاريخ هذه المنطقة من العالم وإنكار وجودها في التاريخ .

2

المعلومات المستقاة عن أفكار الإسكندر المقدوني وخططه لغزو مدن شرقي الجزيرة العربية جاءت من مؤرخ يدعى آريان (170 ق. م) سرد تقريراً عن حملات الاسكندر التي تمت قبل حوالي مئة عام من زمنه. واستند هذا المؤرخ في معلوماته عن المناطق الساحلية على دفتر يوميات أمير البحر اليوناني نيارخوس الكريتي الذي كان يعمل مع الاسكندر.

فبعد أن اجتاز الاسكندر في عام 326 ق. م نهر السند في باكستان الحالية، وتوغل في شبه القارة الهندية، اتجه جنوبا نحو الساحل الى موقع يقع قرب كراتشي الحالية، وهناك بني اسطولا. وبعد أن اتخذ طريقه عائداً مع جيشه عبر جنوبي فارس، أمر نيارخوس الكريتي بقيادة الاسطول للعودة بحراً بمحاذاة الساحل. وكان أمير البحر هذا يسجل في يومياته وصف السواحل التي يمر بها. وتضمن دفتره تفاصيل بلغت دقتها درجة أن عدداً من الملامح الطبيعية التي وصفها ما يزال قائما حتى الآن.

وبعد أن التحق أمير البحر هذا بالاسكندر في بابل، أسندت اليه مهمة استكشاف سواحل الجزيرة العربية الشرقية، لأن الاسكندر كما يروي آريان كان يخطط لغزو الجزيرة مدفوعا بالأخبار التي تتحدث عن ثرائها بالمر واللبان والقرفة ومرهم الناردين، بالاضافة الى واقعة أن عرب هذه السواحل لم يرسلوا اليه بعثات تظهر الخضوع. وهكذا أرسل ثلاث سفن متتابعة، لتغطي سوية امتدادات سواحل الجزيرة. ويقول آريان أن السفينة الأولى وصلت الى تايلوس (البحرين) والثالثة الى مدخل الخليج عند رأس مسندم، إلا أن التفكير بالحملة توقف إثر وفاة الاسكندر، ولم يعد يسمع شيء عن أمير البحر نيارخوس، رغم أن الخيال امتد ببعض الكتاب فتحدث عن توقعاته أن يكون هذا قد أبحر حسب الخطة، وحينما لم يتسلم أمراً بالعودة، واصل طريقه لاقامة مستعمرات في قلب أفريقيا، أو اقامة مراكز استيطان في المحيط الهادىء! (17) .

وظلت استكشافات نيارخوس الكريتي لسواحل الخليج أكثر المصادر ثقة حول المنطقة قبل ألفي عام وأكثر قليلا. وجاء في رواية آريان أن الاسكندر حين نمى إلى علمه، بوساطة مستكشفيه، وجود جزيرتين في البحر قرب مصب الفرات، ولا تبعد الأخرى كثيراً من مصبه، وهي أصغر الجزيرتين وتغطيها غابة كثيفة ويقع عليها مقام للعبادة، أمر بأن يطلق عليها اسم إيكاروس، أما الأخرى فأطلق عليها اسم تايلوس (18).

وايكاروس بالطبع هي التي كشفت الأبحاث الحديثة عن أن المقصود بها جزيرة فيلكا الكويتية الحالية أما الاخرى فهي البحرين .

ويبدو أن اليونان اختاروا فيلكا لتكون رأس جسر الى الطريق المائي الممتد الى الهند. وهذا ما خرجت به التنقيبات الحديثة في جزيرة فيلكا حين تم اكتشاف مدينة إغريقية ومعبد ومصنع لصناعة التماثيل يحمل ملامح عدة عهود يونانية (19) .

ويُستنتج من المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) أن هذا الحوض المائي الذي ربط بين موانىء المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا وبين منطقة شرقي المتوسط وأوروبا كان معروفاً الى حد كبير لدى هذه الحضارات القديمة، إذ يسجل، مابين 300 ق. م و 200 ق. م، ما يقارب 12 كاتباً من المؤرخين والجغرافيين وعلماء النبات والرحالة والبحارة معلومات عن هذا الطريق التجاري، واحتوى وصفهم باختصار أو توسع جغرافية الخليج .

صحيح أن أكثر من نصف هذه المؤلفات لم يعد موجودا الا أن اللاحقين اقتطفوا شيئا منها، إما حرفياً أو اختصاراً. ومن هؤلاء اللاحقين سترابون من القرن الأول ق. م وبليني من القرن الأول بعد الميلاد، اللذين سردا رواياتٍ مطولة عن الخليج العربي اعتمدا فيها على مؤلفات السابقين تشير الى فيلكا والبحرين، بالاضافة الى الجرعاء التي وردت تحت اسم "جرها" باليونانية، باعتبارها مدينة كبيرة محاطة بالأسوار، وتقع على برالجزيرة العربية الرئيس مقابل البحرين، وتقوم تجارتها على البخور الوارد اليها من الجنوب(20).

بعد الاهتمام اليوناني، يجيء الاهتمام الروماني الذي عبّر عن نفسه بكثرة الكتابات الاستكشافية التي كتبها الرومان عن أحوال الجزيرة العربية الغامضة بالنسبة لهم ولكنها مصدر البضائع الثمينة، ويمر بها الطريقان الأساسيان في العالم القديم. هذه الكتابات كما يبدو رافقت مطامح السيطرة على هذين الطريقين أو جاءت مدفوعة بهذه المطامح، تماما مثلما كان يحدث قبل ذلك بالنسبة للحضارات الأكدية (بابلية وآشورية) والمصرية.

اليونان كانوا المصدر الأول، وأشهر هذه المصادر كتاب "التواريخ" الشهير لهيرودوتس، الذي قص في القرن الخامس ق.م على الأثينيين أخباراً عن جزيرة العرب استقاها من مصر التي زارها وتجول بين معابدها، وهي أخبار تتضمن، بالاضافة الى طرافة خبر طائر "الفينيق" الذي يجيء من الجزيرة الى مصر كل عام حاملا بيضته، وصفا لأغنامها وعطورها الشهيرة مثل البخور والقرفة والكافور واللبان(21). ويحتشد كتاب "ثيوفراست" تلميذ أرسطو المسمى "تاريخ النبات" بالحديث عن عطور بلاد العرب وطرقها التجارية، وعن السبئيين في غربي الجزيرة الذين يوصفون كمحاربين وزراع وتجار(22). أما سترابون اليوناني فينقل عن فلكي اسكندري سبقه بثلاثة قرون أخبار شعوب الجزيرة الأربعة التي تسيطر على الطريق التجاري، أي السبئيين والمعينيين والقطبانيين والحضارمة، وعواصمهم مريابه وتمنع وقرنه وسبته. وهذه الشعوب حسب قوله كانت تنقل عن طريق القوافل بضائعها المستوردة من الهند بالقوارب نحو الجرعاء على شاطيء الخليج العربي، ونحو البتراء في طريقها إلى شرقي المتوسط (23).

هذه الاخبار والتقارير لا شك أنها هي التي كانت وراء اعتزام الامبراطور الروماني أغسطس (39 ق .م) الاستيلاء على طريق العطور، أي على تجارة القوافل، فعهد الى قائده آيليوس غالّوس قيادة حملة عسكرية لهذا الغرض انطلاقا من مصر. وكانت حملة شاقة ومحزنة بالنسبة للرومان، وجاء وصف كامل لها لدى المؤرخ سترابون الذي رافقها، وقال فيه أن الرومان احتلوا مدينة نجران ثم توجهوا نحو مدن "العربية السعيدة"، ووصلوا الى مريابة (مأرب) وحاصروها، إلا أن وعورة الارض ومقاومة السكان والعطش أجبر الجيش الروماني على الانسحاب السريع، فقطع في شهرين الطريق الذي استغرق منه ستة أشهر للوصول الى "مأرب" بأن تراجع الى نيغرانا (نجران) ثم الى نيغرا (النجيرة) عل ساحل البحر الاحمر، ومن هناك ركب الجنود السفن التي أعادتهم الى مصر(24) .

هذه الحملة الرومانية لم تكن الاخيرة بالطبع، فقد شهدت القرون الميلادية الأولى صراعا رومانياـ فارسيا على طرق الجزيرة العربية تحفل به المصادر البيزنطية والفارسية والعربية ما بين القرنين الأول والسابع الميلاديين، حيث شهدت المنطقة ظهور مدن البتراء وتدمر والحضر العربية في أعالي الجزيرة، وصراعها الطاحن وتحالفها أحيانا مع عالمين ساحقين من الشرق والغرب معا.

كانت روايات المؤرخين العرب عن القرون الخالية التي سبقت ظهور الاسلام تعتبر حتى وقت قريب روايات أسطورية لا يعتمد عليها كتاريخ موثوق، إلا أن العودة الى هذه المصادر في ضوء المصادر الخارجية الأخرى، مثل النقوش العربية في شمالي الجزيرة ونقوش جنوبي الجزيرة والمصادر الرومانية والسريانية والبيزنطية، والمقارنة بينها، أظهر أنها حملت الكثير من الحقائق التاريخية، وأنها لم تكن خيالا محضا. ومساهمة الباحثين الغربيين والروس في استجلاء الصورة التاريخية للعرب في هذه القرون الخالية تعد من المساهمات الأساسية والمهمة، سواء كانت في جانب العودة الى المصادر البيزنطية واليونانية والسريانية أوفي جانب قراءة النقوش العربية. أهم هذه المساهمات هو ما قدمته الباحثة الروسية " نينا فكتورفنا بيغوليفسكيا " في كتابها "العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي".

بناء على هذه المصادر، وفي ما يتعلق بموضوع الصراع على طرق التجارة، وطريقها الشهير باسم "طريق العطور"، جاء بروز دولة الأنباط التي كان مركزها البتراء وتسيطر على مساحة معتبرة وصلت الى حد إنشاء "بصرى" الشام كعاصمة ثانية، والامتداد الى واحات الحجاز الشمالية، أو ما كانت تدعى "فينيقون" أي أرض النخيل، في ظروف الهيمنة اليونانية (السلوقيون شمالا والبطالسة غربا) خلال منتصف القرن الثاني ق . م (25).

سبب إزدهار هذه الدولة الجوهري هو وقوعها على رأس طريق العطور، وعرّضها هذا الموقع أيضا لهجمات السلوقيين والبطالسة، إذ غزاها انطوخيوس اليوناني في العام 362 ق . م وخلفاؤه عدة مرات براً، وتصارعت بحراً مع البطالسة على طريق البحر الأحمر. وجاءت أخبار هذه الأحداث عن طريق تيودور الصقلي نقلا عن مؤرخ من الأوائل، كما جاءت عن طريق سترابون الجغرافي الذي يروي أن أحد ادلاء الحملة الرومانية (39 ق. م) على طريق العطور كان من أهالي مدينة البتراء (26).

بعد دخول الرومان الى المنطقة في عهد "بومبي" 64 ق . م شن الرومان، أو واصلوا الحرب على القوى العربية على هذا الطريق، وكان اصطدامهم الأول مع الأنباط في عهد ملكهم "الحارث"(27).

وبدأ ضعف الأنباط والبتراء، وعاصمتهم الجديدة "بصرى"، بسبب الهيمنة الرومانية على طرق التجارة، وتحويلها لصالحهم. وكذلك بسب السيطرة على موانيء البحر الاحمر الغربية. فبدأت القوافل تتحول عن هذا الطريق، وتسلك طريقاً اخر وصولا الى أعالي الجزيرة. وهي الظروف التي بدأت تظهر فيها " تدمر".

وضع الرومان حداً لاستقلال البتراء في العام 106 ميلادية. أما تدمر المستقلة، فتم تخريبها بعد ذلك بقرنين تقريبا، في العام 272 ميلادية (28).

ولكن تدمير هذه المراكز العربية لم يمنع تواصل ظهور الكيانات العربية خلال القرن الرابع والخامس والسادس. وهي حقبة تاريخية تم التركيز عليها بعمق من قبل الباحثين نظراً لتوفر مصادر غزيرة حول أحداثها. وفي هذه الحقبة دارالصراع بشكل رئيسي بين الفرس والرومان، وكان من الطبيعي أن يكون للعرب دور في هذا الصراع تارة كحلفاء أو تابعين أو متمردين. وشمل هذا الصراع قوى امتدت مناطق نفوذها وتحالفاتها حتى غطت الجزيرة العربية كلها، وأيضا بسبب موقعها التجاري والاستراتيجي، وكونها عقدة مواصلات العالم القديم بين حوض المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط. وشارك في هذا الصراع الحميريون في الجنوب والمعديون في أواسط الجزيرة والكنديون في الشمال والجنوب، والفرس والرومان (29) .

اللافت للنظر أن أسماء ملكات العرب مثل "زبيبة" و "شمسي" التي ظهرت مراراً وتكراراً في الألواح البابلية والآشورية، ظهر ما يماثلها في القرن الرابع الميلادي، حيث شغلت أخبار "ماويّة" ملكة العرب جزءاً كبير من أعمال المؤرخين البيزنطين، وبخاصة ما بين عامي 378 – 394 ميلادية، حين أشعلت هذه الملكة حرباً واسعة على السيطرة الرومانية كما ورد لدى روفينوس مترجم تاريخ اوسيبوس إلى اللاتينية. وجاء في هذه الاخبار أن ماوية ملكة القبائل العربية أشعلت نار حرب شعواء في فلسطين وسوريا وخربت القلاع والمدن والقرى والأرياف، وصولا الى مناطق مصر المأهولة المسماة باقليم العرب، والواقعة على الجانب الايسر من النيل إذا أبحرتَ ضد التيار. وأضعفت ماوية بهذا القتال الدائم القوات الرومانية، وأهلكت الكثيرين، واضطرت الباقين الى الهرب. ولما اشتدت وطأة الحروب على الرومان، اضطروا إلى إرسال سفارة الى ماوية يطلبون الصلح، وتحولت ماوية الى التحالف مع بيزنطة، وشاركت قوات لها في الدفاع عن القسطنطينية حين حاصرتها قوات القوط والهون واللان القادمة من البلقان(30).
وتسترعي الإنتباه أيضاً في القرن الخامس شخصية ملك عربي يدعى "امرؤ القيس" ، ويرد اسمه في المصادر البيزنطية بصيغة "أمورقس" (ولعل هذا التحريف اليوناني لهذا الإسم العربي هو الذي أدخل في اليونانية اسم "مرقس" المعروف). كان هذا الملك وفق المصادر التاريخية يعيش في الأراضي التي يسيطر عليها الفرس، ثم غادرها إلى الصحراء حيث بدأ يقوم بغاراته، ونمت قوة هذا الملك الذي ينتمي الى قبائل "كندة" في الشمال التي لم تفقد صلتها مع قبائل كندة ومعد في أواسط الجزيرة، بالسيطرة على القبائل العربية. وما أن قويت شوكته حتى التفت الى الرومان، ووجه أنظاره في العام عام 473 ميلادية الى جزيرة "يوتابه" (تيران الحالية)، التي هي ملتقى الطرق البحرية والبرية القادمة من الجنوب. وكانت هذه الجزيرة تلعب دوراً مهما في سياسة أباطرة بيزنطة ودولة اكسوم الحبشية والقبائل العربية في الشام ومدن طريق العطور عبر الحجاز. وبسبب أثرها هذا على العلاقات بين آسيا القريبة وأفريقيا وأثيوبيا وعلى الطريق البحري الذي يمر بالبحر الاحمر، كانت مركزاً امبراطورياً مهماً. وبسيطرة امرؤالقيس على جزيرة يوتابه وطرد جامعي المكوس الرومان احتل موقعاً قوياً، وامتدت سلطته على القبائل العربية الى حدود بيزنطة، فسيطر بذلك على الجانب الأكبر من تجارة الشرق الأدنى، واضطرت بيزنطة إلى الاعتراف به، واستقبل كملك للعرب في البلاط البيزنطي، ولم يستطع الرومان استعادة الجزيرة والنفوذ إلا في العام 498 ميلادية (31) .

*

مع مطلع القرن السادس، وبتعزز قوة اللخميين في الحيرة، والذين كانوا حلفاء للفرس، امتدت مطامع "المنذر" الى أواسط الجزيرة العربية. وبفضل النقوش السبئية تبرز واقعة العلاقات التي نشأت بين اللخميين والحميريين التي يتخللها الصراع على أواسط الجزيرة، ومن ورائه الطريق التجاري والأحلاف ايضاً.
اجتهد الحميريون في سياستهم الموجهة ضد النفوذ البيزنطي للحصول على تحالف "الحيرة" التي كان بإمكانها الوقوف أمام النفوذ البيزنطي وإحباط مساعيه للهيمنة على طريق العطور وعلى البحر الاحمر. ولهذا حدث تحالف بين المنذر وذي نؤاس الحميري لتقويض التحالف البيزنطي الأثيوبي الموجه بالدرجة الأولى ضد فارس.

آنذاك كان الصراع البيزنطي – االفارسي يجري على امتداد الحدود بين الامبراطوريتين من القوقاز شمالا وحتى تخوم الجزيرة العربية، وتجاوزها الى سواحل البحر الأحمر. وتحفل النقوش الجنوبية بأخبار المعارك على امتداد هذه السواحل بين الاحباش حلفاء بيزنطة والقبائل العربية التي كانت تعد خاضعة لنفوذ الحيرة. وهنالك أخبار مدونة باليونانية والسريانية عن الاتصالات بين بيزنطة والحميريين والأثيوبيين تتحدث عن بعثات دبلوماسية متبادلة، تنطلق من شمالي الجزيرة وصولا الى نجران ثم الى دولة اكسوم. وكان هدف بيزنطة من الاتصال بالحميريين تأمين الطريق التجاري. وتعد حملات "أبرهة" الحبشي الذي أخضع حمير فترة من الزمن على قبائل عامر ومعد شمالا جزءاً من هذا الصراع الطويل. كان ثمة مصلحة متبادلة بين بيزنطة والحبشة للسيطرة على البحر الأحمر ومنع الفرس الذين ترتبط بهم الحيرة من تهديد هذا الطريق (32).
ولم تجرعلاقات العرب مع هذه القوى المتصارعة على وتيرة واحدة. فقد اختلطت فيها النزعات الاستقلالية، ونزعات التحالف، بالاضافة الى فترات كانت فيها القوى العربية ترغم على الخضوع وتتحول إلى قوى تابعة. إلا أن المسار العام لعلاقات العرب، سواء من جاور منهم الفرس أو بيزنطة يشير إلى أن النزعات الاستقلالية كانت هي الأصل دائما. كان العرب قوة عسكرية مهمة تقع في قلب موقع تجاري استراتيجي، ولهذا كان التحالف معهم أمراً تسعى إليه الامبراطويتان حين تعجزان عن إخضاعهم بالقوة، وهو ما كان يبدو عسير المنال، كما تقول ألواح البابليين والآشوريين وتواريخ الرومان وبيزنطة والسريان، ونقوش شمالي الجزيرة وجنوبها، وما ينطق به ظهور اتحاد قبائلي عربي، أو اسم ملك اوملكة يعد ملكاً أو ملكة للعرب بين عصر وآخر. ولعل آخر معارك الاستقلال عن النفوذ الفارسي في أوائل القرن السابع 604 (معركة ذي قار) تلخص مسار هذا الصراع طويل الأمد الذي حفل به تاريخ العرب قبل الاسلام.
فبعد مقتل النعمان،آخر ملوك الحيرة في سجن خسرو الفارسي، سعى هذا الى الحصول على ترسانته العسكرية، أي أسلحته الشهيرة المودعة عند قبائل بكر. وكان هذا النزاع سبب المعركة التي هزم فيها الجيش الفارسي، واعتبرت بداية جديدة في التاريخ العربي (33) .

4

كان من الطبيعي أن يتحول طريق العطور إلى طريق لمواد أخرى تستجيب لحاجات جديدة، فقد اختفت المعابد الأشورية والفرعونية واليونانية والرومانية التي كانت تستهلك المواد العطرية، وستشهد العلاقات بين الشرق والغرب ثورة تجارية جديدة في القرن الثاني عشر.
وصف ابن جبير في "تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار" الخط التجاري الذي يمر بالحجاز جنوباً وشمالا وبالعكس في أواخر القرن الثاني عشر بما يلي:"ورمنا في هذا الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن، ثم من اليمن الى عيذاب، وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل الينا من كثرته أنه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه في هذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائره من السلع مطروحة ولا حارس لها تترك بهذا السبيل، إما لإعياء الابل الحاملة لها أو

غير ذلك من الاعذار، وتبقى في موضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس" (34) .
وفي الجانب الآخر، أي في الجانب الأوروبي، نجد آثار هذه الصورة في الإشارات العديدة لدى الباحثين الى أن الفلفل كان خلال القرون الوسطى من أهم التوابل، بل أهم ما في التجارة بأكملها، وكثيراً ما كان يستعمل لتسديد أثمان الأراضي والقروض، كما كانت الرسوم التجارية تدفع بأوزان من الفلفل، بل حتى حمولة السفن كانت تقاس بما تسعه من هذه السلعة الشرقية التي باتت مقياساً لجميع الشحنات الأخرى . وأما التجار أنفسهم فقد لقبوا بلقب "أكياس الفلفل" (35) .
وكان للتوابل والسلع الشرقية المشابهة أهمية اكثر في صناعة العقاقير الطبية، وكان هذا بالنسبة لأوروبا الغربية أمراً حيوياً، لأن المدونات التاريخية العائدة لذلك الزمن تتحدث عن تفشي الأوبئة، وكان الفلفل وسيلة وقائية (36).
ومع أن تاريخ غزوات الفرنجة (الغزوات الصليبية بلغة المؤرخين الغربيين)، على كثرة من تناولوه، لم يتعمق في مسألة امتداد مطامع الفرنجة الى ما وراء سواحل المتوسط الشرقية، إلا أن غزوة من نوع عجيب وذي دلالة قام بها رينولد دي شاتيلون حاكم الكرك الصليبي ما بين 1182 – 1183 لشواطىء الحجاز، يمكن اعتبارها مواصلة للغزوات الرومانية والبيزنطية لطريق العطور، وبعد تحوله الى طريق الفلفل وبقية المواد المهمة لأوروبا القرون الوسطى .
نزلت قوات هذه الغزوة الفرنجية كما يروي المؤرخ البريطاني "ستيفن رينسيمان" على أحد شواطيء الحجاز، وتهيأت للزحف على المدينة المنورة، ترافقها خمس سفن حربية لمحاصرة جزر جنوبي شواطيء البحر الاحمر. واستخدم صلاح الدين الأيوبي أسطولا مصرياً اتجه الى سفن رينالد التي حاصرت جزيرة جراي فأسرها، ثم طارد السفن التي كان بحارتها يحاولون الالتحاق بالجنود المتجهين الى المدينة فقضى عليها. وأدرك جنود صلاح الدين الجنود الفرنجة عند المضايق الصحراوية على مبعدة خمسة أيام من الشاطىء ويوم من المدينة، وتم القضاء على معظمهم. وفي مكة تم اعدام مائة وسبعين جنديا نجوا من الموت في المعركة، واقتيد الأسرى الباقون الى مصر(37). ويذكر ابن جبير في التذكرة انه شاهد بعض جنود هذه الحملة في الاسكندرية مربوطين على ظهور الجمال وقد أديرت وجوههم الى ذيولها (38).
فشل الفرنجة في إقامة مرتكز طويل الأمد، سيتلوه بعد ذلك التوسع العثماني الذي امتد الى الجزيرة العربية، فقد استولى الأتراك على اليمن والساحل الصومالى من البحر الاحمر في العام 1532، ثم تقدموا نحو سواحل الخليج العربي في العام 1638، ولم يبق بعيدا عن سيطرتهم سوى أواسط الجزيرة وعمان (39). بالطبع كانت مصر وسوريا والعراق في مقدمة مناطق التوسع، وبهذا سيطر العثمانيون على أحد أهم مراكزالمواصلات التجارية بين أوروبا والشرق، رغم اكتشاف الطريق البحري الى الهند مباشرة بالدوران حول افريقيا ثم رأس الرجاء الصالح. إلا أن من كان يدير الحركة التجارية تحت موجة التوسع العثماني كانت في الحقيقة مراكز تجارية غربية مثل البندقية وجنوة وبيزا، وكلها مراكز ايطالية نشطت منذ عصر حروب الفرنجة، وواصلت نشاطها، وبدأ التجارالانكليزوالهولنديون والفرنسيون والبرتغاليون بمنافسة هذه المراكز القديمة تدريجياً. وامتلكت هذه الحركة التجارية الغربية أحياءً خاصة بها في المدن العربية التجارية الكبيرة، وفنادق ومكاتب في مدن مثل القاهرة والموانيء السورية وموانيء شمالي افريقية. وخلال القرن الثامن عشر تميزت شركة الهند الشرقية الانكليزية بنشاط متوسع على الطريق إلى الهند (40) .
في ظل هذه الحركة التوسعية، لم يكن العرب والأرمن إلا وسطاء ومقاولين يمارسون التجارة بالوساطة عبر مراكز المرور مثل القاهرة وحلب ودمشق وبغداد والقسطنطينية التي كان يتدفق عليها السجاد الايراني والحرير الهندي والقهوة اليمنية والعبيد والذهب والعاج من سواحل افريقيا الشرقية (41).

وعززهذه المكانة التي اكتسبها التجار الغربيون في ظلال الهيمنة العثمانية بضعة عوامل على رأسها نظام الامتيازات الذي كان يمنح السلطان العثماني بموجبه التجارالأوروبيين حقوقا وامتيازات خاصة، وتسهيلات بدأت في القرن الرابع عشر، تتضمن ضمانا للممتلكات وتحديدا للرسوم، وفي ما بعد أصبحت الدول الأوروبية تنظر الى هذه الامتيازات بوصفها حقوقا ثابته لا يمكن فسخها او التراجع عنها (42) .
ومع ضعف الامبراطورية العثمانية الذي بدأ يدب في جسدها، ويشمل ذلك ضعف البلدان العربية التي خضعت للعسكرية العثمانية والتجار الأوروبيين في وقت واحد معا منذ أواخر القرن السابع عشر، بدأ يبرز الصراع الدولي على طرق المنطقة العربية ومنافذها. من جهة، كان هناك التنافس الروسي – النمساوي على منافذ البحر الأسود والبحر الادرياتيكي، ومن جهة أخرى التنافس الانكليزي ـ الفرنسي على منافذ وطرق بلدان شرقي المتوسط. وولد هذا التنافس على تقسيم الامبراطورية العثمانية مصطلح "المسألة الشرقية" الذي كان عنوانا متواصلا للصراعات طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (43) .
بالطبع كان لعدد من الحكام المحليين مطامحهم أيضا، وظهرت في هذا السياق حركات انفصالية عن السلطة العثمانية، مثل حركة على بك المسمى بالكبير في عام 1769، الذي سيطر على مصر والحجاز، وحركة حليفه ظاهر العمر في فلسطين الذي وسع ممتلكاته لتشمل ميناء عكا، وجعله مركزاً تجارياً كبيراً. إلا أن الموجات الخارجية التي نظرت الى طرق المنطقة العربية من منظور استراتيجيات دولية كبرى كانت هي المتغلبة، فلم تجد القوى الاستقلالية المحلية بدا من التحالف معها (44). واخيرا جاءت كبرى الغزوات في العصور الحديثة، الغزوة الفرنسية بقيادة نابليون (1798) لمصر، ومحاولة جعلها قاعدة لشن هجوم باتجاه الهند، بالاضافة الى تهديد الامبراطورية العثمانية وانزال ضربة بانكلترا وقطع اتصالاتها مع الهند. وجاءت هذه الغزوة في ظروف انتشار عدد من القوى الغربية : البرتغال والانكليز والهولنديين الذين بدأوا يقيمون لهم قواعد على امتداد الطريق الى الهند منذ القرن السادس عشربما في ذلك شرقي الجزيرة العربية ومناطق شرقي افريقيا.
على أن نهاية الحملة الفرنسية، والفشل في الوصول الى أبعد من أسوار عكا، سيخلق صراعا مختلفا هذه المرة بين قوة محلية، هي قوة محمد علي الصغير تمييزاً له عن الكبير الذي سبقه، وقوة خارجية هي قوة الانكليز. وشمل هذا الصراع مفتاح الطريق الى الهند أيضا، أي سواحل الجزيرة العربية، ولم يقم محمد علي بالتوسع باتجاه شرق الجزيرة وساحلها فقط، حيث واجهه الوهابيون، ثم الانكليز بعد ذلك، بل وصولا الى تهامة اليمن وتعز في الاعوام مابين (1823 – 1834) (45).
وفي كلا الاتجاهين اصطدم تقدم محمد علي بمقاومة الانكليز الضارية الذين بدأوا بتعزيز قواعدهم على امتداد هذا الطريق المؤدي الى الهند، فقصفوا ميناء مخا، وفرضوا على إمام اليمن اتفاقية منحتهم جملة من الامتيازات، واحتلوا جزيرة سقطرة، وأخيرا استولوا على عدن في العام 1839، وفي الجانب الآخر من الجزيرة فرضوا اتفاقياتهم على حكام السواحل (46). وأدخل الانكليز في صراعهم للسيطرة على مفتاح المواصلات هذا ملف نابليون وخططه لاقامة دولة يهودية في فلسطين تحت الحماية البريطانية لتضمن أمن مواصلات الامبراطورية البريطانية، تقوم كما طرح لورد شافتسبري في العام 1838، على مشاريع لإسكان اليهود في فلسطين، في وقت لم يكن فيه عددهم آنذاك يتجاوزأحد عشر الفا جاء معظمهم للزيارة ولأغراض دينية (47) .
كان الهم الانكليزي اعتماد طريق أقصر، واستبدال الطريق الطويل حول أفريقيا بطريق آخر عبر مصر. وبعد إخضاع محمد علي، حصلت انكلترا على امتيازات مدّ خطوط سكة حديد من الاسكندرية الى القاهرة والسويس، بوصفها حلقة أساسية في الطريق الى الهند. وواجه الفرنسيون في خمسينات وستينات القرن التاسع عشرهذا المخطط بمشروع قناة السويس لربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر

(48). ويلاحظ أن شق القناة ساعد الأتراك على العودة إلى اليمن مرة أخرى ومد سلطتهم على عسير واليمن بحراً. وفي عام 1872 توغل الاتراك في الجبال اليمنية واحتلوا صنعاء (49).
من الواضح إذاً، أن صراع الأزمنة الحديثة يواصل بطريقة أو بأخرى الصراع الاستراتيجي القديم نفسه، الصراع الذي يخضع للجغرافية السياسية. ولئن تغيرت القوى ونوعية المصالح بين يونانية ورومانية وبيزنطية وفرنجية وأمريكية، يظل الهدف واحداً؛ عقدة المواصلات العربية هذه بطريقة أو بأخرى، إما بوصفها ممراً الى ما بعدها، وإما بوصفها منطقة مقصودة لذاتها. ويترك قيام وانهيار الامبراطورية العثمانية الذي عملت القوى الغربية على تأخيره طيلة ما يقارب القرن أثره على المنطقة العربية والأحداث التي تلت الحربين العالميتين: الاولى التي كان ضمن أهدافها تقاسم المنطقة العربية، والثانية التي كان هدفها الأساس تقاسم العالم، فطبعت المنطقة العربية بما يمكن تسميته بتركة الدولة العثمانية الثقيلة، ثم التركة الغربية الأشد ثقلا، وهذه الأخيرة هي التي تحتشد الآن هجمتها العسكرية والثقافية والسياسية والإقتصادية تحت رايات التحالف الغربي (أمريكا –بريطانيا- فرنسا- ألمانيا) بهدفين، الدفاع عن القاعدة العسكرية الغربية القائمة على أرض فلسطين التي أعطوها اسم "إسرائيل"، ووضع اليد على ممرات ومصادر الطاقة.

إشارات

1- Philip K. Hitti, History of the Arabs, third edition, revised, Macmillan and Co., Limited, London, 1946, p.3
2- Ibid.p.3
3- يكتب صاعد الأندلسي نقلا عن الحسن الهمداني من القرن العاشر الميلادي : ".. ليس يوصل إلى خبر من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب ومنهم، وذلك أن من سكن بمكة من العماليق وجرهم وآل السميدع بن هونا وخزاعة، أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب. وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد، وعنهم صدر أكثر ما رواه عبيد بن شرية ومحمد السائب الكلبي والهيثم بن عدي. وكذلك من وقع بالشام من سليم وغسان، خبيرٌ بأخبارالروم وبني إسرائيل واليونانيين. ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإياد فعنه أتت أخبار وبار وطسم وجديس. ومن وقع من ولد نصر بن الأزد بعمان ومن يليها، فعنه أتى كثير من أخبار ملوك السند والهند وشيء من أخبار فارس. ومن وقع بجانب طيء، فعنه أتت أخبار آل أذينة والجرامقة. ومن كان ساكنا في اليمن فأنه أعلم بأخبار الأمم جميعاً لأنه كان في مملكة حمير وفي ظل الملوك السيارة إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال، ولم يكن الملكُ منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها .." (صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، 1985، ص 118– 120).

4- الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، كتاب الإكليل، الجزء الثامن، في محافد اليمن ومساندها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات، تحقيق محمد بن علي الأكوع بن حسين الحوالي، منشورات المدينة، بيروت، 1986، ص 170.

5- عن هذه النقوش التي سجل فيها الملك شيشنق أخبار حملاته، يقول جيمس بريتشارد في ترجماته (إشارة رقم 12) "من المخيب للأمل أن النصوص المصرية لاتوسع فهمنا لحملته في فلسطين، بمعنى أنها لاتتضمن إضافة حقيقية إلى ما ترويه التوراة .. إن إشاراته إلى "جزية من الأرض السورية" أو انتصاراته على "آسيوي البلدان الأجنبية البعيدة" غامضة وعامة" ص.187. ولكن دراسة د. كمال الصليبي (إشارة رقم 11) تكشف بوضوح أن سبب هذا الغموض والتعميم، هو أن هذا المترجم للنصوص كان يقرأ وفي ذهنه خريطة محددة لخط سير حملة شيشنق، فلم يفهم مواقع الأسماء الواردة في النص الهيروغليفي، ولا أسماء "الآسيويين" الذين حاربهم الملك في حملته لأنها تقع في مكان آخر ليس هو فلسطين كما يعتقد أو يريد أن يعتقد. ويخصص د. الصليبي فصلا كاملا في كتابه لعرض ما أطلق عليه "سوء التأويل الذي تعرضت له السجلات الطوبوغرافية المصرية المتعلقة بحملة شيشنق" ويعيد قراءة أسماء الأمكنة ويحددها في شمال عسير وجنوب الحجاز التي توجد فيها هذه الأسماء حتى اليوم، أي على طريق العطور، ص 133 .

6- جيوفري بيبي، البحث عن دلمون، ترجمة أحمد عبيدلي، دلمون للنشر، قبرص، 1985، ص88 .

7- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديم، الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الثانية، 1986، ص 368 .

8- George Roux ,Ancient Iraq, Penguin Books, London, 1964, P.351

9- Ibid. p.351

وكذلك طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديم، ص 555

10- George Roux, op.cit. p. 351

11- كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة، الأبحاث، ص 200 .

12- The Ancient Near East :an anthology of texts & pictures, edited by James B. Pritchard , Princeton University Press , 1958 , P.190

13- Ibid. p. 194

14- Ibid. p. 196

15- Ibid. p. 196

16- Ibid. p. 200

17- جيوفري بيبي، البحث عن دلمون، ص 328 .

18- المرجع السابق، ص 329 .

19- المرجع السابق، ص317 .

20- المرجع السابق، ص326 .

21- The history of Herodotus , translated by George Rawlinson, Grolier Classics , Classics Appreciation Society , U.S.A ,1956, P. 205

22- جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، بيروت، من دون تاريخ نشر، ص 33 .

23- المصدرالسابق، ص 33 .

24- المصدرالسابق، ص30 ، وكذلك كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص 55.

25- د. إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط ، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، 1987، ص 29.
26- المصدر السابق، ص 52 .
27- المصدر السابق، ص 44 .
28- نينا فكتورفنا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، قسم التراث العربي في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص39 .
29- المصدر السابق ، الصفحات من 166 إلى 168
30- المصدر السابق، ص 54 .
31- المصدر السابق، ص 70 .
32- المصدر السابق، ص 187 .
33- المصدر السابق، ص 147 .

34- أبو الحسين بن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، من دون تاريخ نشر، ص 63 .
35- هيئة تحريرالعلوم الاجتماعية والعصرفي أكاديمية العلوم السوفيتية، الشرق في القرون الوسطى: النظام الاقتصادي –الاجتماعي، دار ناؤوكا، موسكو، 1987، ص73 .
36- المصدر السابق ، ص.74
37-Steven Runciman , A history of the Crusades, Volume 2,Penguin Books, London , 1990,P.437
38- أبو الحسن بن جبير، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، ص10 .
39- ف.ب.لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو، 1971، ص 7-8 .
40- المصدر السابق، ص 20 .
41- المصدر السابق، ص 20 .
42- المصدر السابق، ص 21 .
43- المصدر السابق، ص 33 .
44- المصدر السابق، الصفحات من 37 إلى 40 .
45- المصدر السابق،ص107 .
46- المصدر السابق، ص.110
47- المصدر السابق، ص.108
48- المصدر السابق، ص185-186 .
49- المصدر السابق، ص430 .

الفصل الرابع

الجغرافية السياسية للثقافة العربية

كتب القديس أوغسطين في القرن الخامس الميلادي، أي بعد ستة قرون تقريبا مرت على تدمير "قرطاجنة" ومحوها عن الخريطة:

"إذا سألتَ أحد سكان هذا البلد عن هويته، سيقول لك بلسانه البونيقي أنه كنعاني".(1)

اللسان البونيقي الذي يشير إليه أوغسطين هو التسمية الرومانية للسان الكنعاني، أي لغة قرطاجنة، فقد دأب الرومان على تسمية الكنعانيين الذين استوطنوا شواطئ البحر الأبيض المتوسط الغربية بدءا من القرن الثالث عشر ق.م. بالبونيقيين، ترجمة لكلمة الفينيقيين اليونانية إلى اللاتينية. وما زالت التسمية اليونانية شائعة حتى اليوم على رغم أن من يشار إليهم بهذه التسمية لم يستخدموها إطلاقاً، حتى بعد أن أصبحت بلادهم على ساحل المتوسط الشرقي تحت الهيمنة اليونانية بدءاً من العام 332 ق.م.، وأصبحت بلادهم على ساحل إفريقيا الشمالي تحت الهيمنة الرومانية بدءاً من العام 140 ق.م.

ومع أننا أصبحنا في السنوات الأخيرة على حظ وافر من المعرفة بالكنعانيين العرب الذين اكتشفت مدنهم الدارسة، مثل "أُجرِت" و"إبلا" و"قرطاجنة" و"قطن" تحت لارنكا القبرصية و"قرطاجنة الجديدة" في إسبانيا و"العالية" في سردينيا الإيطالية، إلا أن الباحثين الغربيين، ومن يتبعهم من العرب، مازالوا يستخدمون تسمية "الفينيقيين". وإذا كان الباحث الغربي في متابعته لهذا التقليد إنما يعبر عن ولائه لتراثه الغربي، فإن الباحث العربي لاحجة له؛ إنه مطالب بالولاء لتراثه الذي يحتفظ بالتسميات الصحيحة، تلك التسميات التي يدل عليها علم آثار العصر الراهن، وهو مايجعل ولاءه ذا نسب بالعلم وأصحابه قبل أن يكون ذا نسب بالتراث القومي.

هذا الولاء ليس مسألة إجرائية لأغراض البحث والدراسة فقط، بل هو مسألة منهجية سليمة لمقاربة تاريخ الوطن العربي ثقافيا، ورسم حدوده الجغرافية-السياسية، على محوري المكان والزمان. فمن اللافت للنظر أن على رغم إقرار الباحثين، وبينهم علماء لغات وآثار وتاريخ، بالهوية العربية للكنعانيين الذين حولوا البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عربية في الألف الأول ق.م.، مازالوا يقيمون صدعاً ثقافياً وسياسياً وقومياً بين مرحلتين من مراحل تاريخ وطننا؛ المرحلة التي يطلقون عليها تسمية "مرحلة الساميين"، والتي انتهت بتقدير "فيليب حتّي" بسقوط بابل في العام 538 ق.م.، و"المرحلة العربية" التي بدأت مع الموجة الإسلامية في القرن السابع الميلادي. وبين هاتين المرحلتين يقع الصدع الفاصل. على اعتبار أن سقوط بابل كان مؤشراً على نهاية الإمبراطوريات السامية وبداية الإمبراطوريات الهندو-أوروبية (فارسية ويونانية ورومانية) في المنطقة، إلى حين ظهور العرب الذين لم يكن لهم شأن يذكر في التاريخ قبل القرن السابع الميلادي على حد تعبير "حتّي"(2).

في مثل هذا التقديرالتباس يقع في جانبين: الأول، أن من يطلق عليهم الباحثون تسمية "الساميين"، هم موجات القبائل العربية التي أنشأت ما يسمونها الإمبراطوريات السامية، أي الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري، ودول المدن الإرمية والكنعانية. والثاني، أن قيام الإمبراطوريات الهندو-أوروبية في المنطقة كان يمثل هيمنة وسيطرة قوى من خارج المنطقة، ولهذا السبب ظلت البنية السكانية، ثقافة ولغة ومعماراً وديانة، عربية الطابع، فلم تستطع هذه السيطرة حتى مع تطاولها نسبياً القضاء على الإرمية في شرقي المتوسط ولا على الكنعانية في ساحل إفريقيا الشمالي، بل والأهم أنها لم تتمكن من تغيير البنية السكانية، فظلت الجزيرة العربية وامتداداتها على ساحل إفريقيا الشمالي مجالا يموج بسكانه الأصليين بلا أية حواجز من أي نوع. وحقيقة ماحدث مع الظهور الثاني للعرب كقوة كبيرة بدأت توحد ما تناثر من كيانات قبلية، قديمة وجديدة، في القرن السابع الميلادي، هو استعادة هوية وليس تعريبا كما هو شائع حتى الآن في الكثير من الدراسات التاريخية الغربية والعربية على حد سواء.

لقد ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن الماضي دلائل تنقض الشائع من القول عن بداوة الموجات العربية التي غمرت منطقة واسعة تمتد من شمالي الجزيرة العربية حتى أعالي الفرات وامتدت على سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى أعمدة هرقل (جبل طارق)، سواء ما تعلق منها بقيام ثقافة مبكرة في شرقي وجنوبي الجزيرة العربية تقدمت إلى الشمال، أو ما تعلق منها بكون هذه الجزيرة بسواحلها وطرقها الداخلية كانت عقدة مواصلات العوالم القديمة بين حوضي المحيط

الهندي وحوض البحر الأبيض المتوسط منذ أزمان بعيدة تصل إلى الألف الرابع ق.م.، وهو الأمر الذي ظل متصلا حتى القرن السادس عشر الميلادي، أي حتى دخول الأساطيل الغربية (برتغالية وهولندية وإنكليزية) وتخريب هذا الشريان الحضاري الحيوي، وعزل ومحاصرة الجزيرة العربية عن محيطها، ونعني بالجزيرة هنا كما ورد وصفها عند الجغرافيين العرب، وبخاصة" لسان اليمن الهمداني" لا كما يصفها الباحثون الغربيون المعاصرون الذين جعلوا منها شبه جزيرة(3).

والواقع أن ما احتفظت به الآداب الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) من ذكريات عن جزيرة العرب كان شهادة متأخرة على وجود حضاري يمتد عميقا في الزمن، إلى زمن لم يكن فيه وجود لهذه الآداب وأصحابها على مسرح التاريخ. فقبل أن تكون نصوص "هيرودوتس" و"سترابون"، كانت هناك ألواح سومر وأكاد وأبجدية اليمن وهيروغليفية المصريين، وكلها تظهر صورة لوضعية العرب في الجزيرة وحولها تناقض الشائع من القول عن عزلة الجزيرة وبداوتها الأزلية، وتقترح صورة مختلفة تشير إلى قدم التحضر العربي تحت تسميات الأكديين والبابليين والآشوريين والمصريين والكنعانيين. وسنجد أن هذا التحضر امتد شمالا وغربا ورسم جغرافية سياسية للثقافة العربية بتنوعاتها الدينية ولهجاتها هي ذاتها الجغرافية السياسية التي عاد التحضر العربي إلى رسمها في المرحلة الإسلامية. ولم يكن مصادفة أن يجد العرب المسلمون اللغة الإرمية ما زالت قائمة حين أزاحوا الهيمنة البيزنطية عن شرقي المتوسط، وأن الكنعانية ما زالت قائمة حين واصلوا التقدم نحو شمالي إفريقيا. ولم يكن مصادفة أيضاً أن تذوب هذه اللهجات في العربية الأم في زمن قياسي يدهش الكثيرين ولا يجدون له تفسيراً بسبب ضغط المسلمات التي يأخذون بها عن حداثة الوجود العربي في هذه الأرض.

2

نقد التسمية إذاً -تسمية الموجات العربية بالسامية، وتسمية الكنعانية بالفينيقية- يقودنا إلى نقد كامل الصورة المطروحة الآن، الصورة التي ترسم للعربي جذراً في الرمال لا يمتد إلى أبعد من حدود القرن السابع الميلادي، وترسم لجغرافيته شبه جزيرة قاحلة معزولة، فتعزله عن أصوله القديمة

بأن تفرض عليه تسمية "السامي"، وتلصق بقبائله (سكان صحرائه) وشعوبه (سكان حواضره) تسمية "الساميين". من المؤكد أن هذه الكيانات الحضارية التي أظهرت التنقيبات في شرقي الجزيرة العربية وجنوبها وشمالها عواصمها ومنجزاتها الحضارية لم تهبط على أرض العرب من السماء، ولم تختف فجأة تحت موجات التوسع الفارسي واليوناني والروماني، وليظهر بعد ذلك جنس جديد اسمه الجنس العربي.

يقول الباحث البريطاني "دونالد هاردن": "ظهرت كلمة "فينيقي" لأول مرة في الملاحم الهوميرية (مفردها Phoenix وجمعها Phoenixs)، وكانت تشير إلى اللون الأحمر الداكن أو الأرجواني أو الأسمر، ثم أطلقت على شجر النخيل وعلى ذوي البشرة السمراء من سكان سواحل شرقي المتوسط، ومن المعتقد أن اسم الطائر الأسطوري الفينيق (Phoenix) مشتق من مصدر آخر"(4).

أما التسمية الرومانية، "بونيقي"، التي أطلقها الرومان على القرطاجنيين ومن استوطن منهم سواحل المتوسط الغربية وصولا إلى إسبانيا، فهي الترجمة اللاتينية للتسمية اليونانية، ولم يستخدم لا الكتاب اليونان ولا الرومان الاسم "كنعاني" في أي شكل من الأشكال، كما لم يستخدم اليونان أسماء الآلهة الكنعانية إلا مترجمة إلى معناها في اليونانية، ويظهر هذا في إطلاق اسم "أفروديت" أي السيدة الغريبة على عشتار الكنعانية، وفي إطلاق اسم "ساتيرن" على بعل حمون حين سجل يوناني أخبار رحلة "حنو" القرطاجني"(5).

أصحاب هذه التسمية التي اخترعها لهم اليونان ثم الرومان، حافظوا على اسمهم الخاص بهم في شرقي المتوسط وغربه على حد سواء. ويفسر الصراع المتواصل بين الكنعانيين واليونان ثم صراعهم مع الرومان، سبب مثل هذه التسمية. وتشير هذه التسمية أيضا إلى امتداد الصراع إلى اللغة والأيديولوجية. إطلاق الأسماء والألقاب كما نلاحظ قديما وحديثا ليس فعلا بريئاً دائماً، وبخاصة حين يكون موضوعه شعباً موضوعاً على قائمة الأعداء. ولنا في التسمية الرومانية، "البرابرة"، التي تطلق على من هم غير الرومان، والتسمية العربية، "الأعاجم" التي تطلق على غير الناطقين بالعربية، وفي التسميات الشائعة مثل "القراصنة" و"المخربين" التي تطلق على من يقاوم هيمنة الدول الغربية على الشواطئ والمدن، أدلة على ما نذهب إليه. وحين نقرأ ماكتبته الأمم الأخرى عن الكنعانيين، وبخاصة اليونان والرومان، نكتشف كيف يشوه الصراع الفكر واللغة، وكيف يظل التشويه ماثلا في اللغة لأحقاب طويلة حتى بعد زوال الصراع وأسبابه.

اللغة ليست مرآة تعكس الوجود بقدر ما هي تمثيل يخضع للرغبات والأهواء، وهذا هو سر الكتابات التي نجدها في المصادر الغربية المبالغة في عدائها للكنعانيين العرب، باستثناء شهادات نادرة "تشهد لهم بالتمكن في السلم والحرب والإبداع في الفنون كتابة وأدباً، والامتياز في الملاحة والحروب البحرية وفي إدارة أعمال الإمبراطورية"(6).

ليس غريباً إذاً القول أن الباحث الغربي يرث مع ولائه لتراثه الثقافي ما عكسه هذا التراث من صراع وانحياز نلمسهما في ما يطلق عليها نزعة "المركزية الأوروبية"، أي الإنطلاق من أن أوروبا مركز العالم، وبالتالي لايمتلك شيء وجوداً أو اسماً إذا لم ينسب إليها، أو إذا لم تمنحه هي اسماً، ولا يكتسب الوجود والاسم والمكان على خريطة العالم شرعية إذا لم تمنحه أوروبا الشرعية. ولم يأت هذا بسبب مواقف في السياسة المعاصرة فقط، بل وبسبب هذا المشهد التاريخي الحافل بالصراع وتداول الأيام بين الشعوب طيلة الستة آلاف عام الأخيرة، وتحديدا منذ انتهاء العصر المطير في المناطق المعتدلة، وانحسار الجليد عن المناطق الشمالية، فقد كان هذا إيذاناً باكتظاظ البحر الأبيض المتوسط بالأجناس والثقافات والسفن، وتحوله إلى شريان حيوي لابد لكل توسعي من جعل السيطرة على موانئه هدفا استراتيجياً.

من هذا المنطلق ربما ظل اليونان، والرومان من بعدهم، يستخدمون كلمة، "فينيقي" و"بونيقي" بإصرار انسجاماً مع مواقفهم المعادية تجاه المنافسين الكنعانيين. ونعتقد أن التسمية التي حافظوا على استخدامها كانت تحمل دلالة معينة في لغتهم، قد تكون دلالة احتقارأو ازدراء للحط من مكانة الكنعانيين. وهذا ما يوحي به إصرار ذلك الكنعاني على تأكيد هويته بعد ستة قرون مرت على تدمير قرطاجنة وانحسار المد العربي أمام هجوم الإمبراطوريات الهندو-أوروبية من الشرق والغرب. ولازلنا نرى الناس حتى زمننا الراهن يطلقون الألقاب والصفات على بعضهم البعض ساخرين أو معادين أو ممجدين على حد سواء. وكذلك تفعل أجهزة الدول الإعلامية في حروبها حين تحاول طمس الحقيقة بما فيها التسمية الصحيحة لشعب من الشعوب أو قوة من قواه، ووضع "حقيقة" مختلقة في مكانها. ولعل في الأمر أثرا من آثار العقلية الأسطورية القديمة التي تربط بين الشيء واسمه الدال عليه. في هذه العقلية، يعني ذكر الاسم الحقيقي حضور ما يدل عليه حضوراً مادياً ملموساً، وليس حضوراً معنويا فقط، وأفضل طريقة "مجربة" لدى السحرة، لتجنب هذا الحضور المؤلم أو محوه وإعدامه، هي إخفاءه أو استخدام اسم زائف يشير إليه كي يمتنع على وجوده الحضور.

ما نرجحه إذاً، هو أن إطلاق اسم "الأحمر" أو "الأرجواني" أو "الأسمر" أو"زارع النخيل" على الشعب الكنعاني، لا يختلف في دوافعه عن إطلاق اسم "السوداء" على شعوب القارة الإفريقية، واسم "الصفراء" على شعوب شرقي آسيا في الزمن الراهن، بل وإطلاق تسمية "الإرهابيين" على من يدافعون عن حقهم في الحياة ضد نهابي الحضارات ومخربي اقتصاديات الشعوب ووسائل عيشها. في كل هذه التسميات يتم تجاهل أن "الآخر" غير الغربي يمتلك حضوراً ووجوداً إنسانياً لايقل أهمية ومعنى عن حضور ووجود وإنسانية الغربي. وحين يتجاوز هذا التجاهل الطابع اللغوي والثقافي إلى شن حروب الإبادة، ندرك هنا المحركات الحقيقية وراء فعل التسمية؛ إنها محركات صراعية الطابع وعدوانية في جوهرها.

نحن نعرف أن الكنعانيين، وقبل أن يفجر الرومان الصراع ضدهم طامعين بأهراء القمح والمناجم والعبيد، واجهوا اليونان ونفوذهم في البحر الأبيض المتوسط متحالفين مع شعب "أتروريا" القديمة في إيطاليا، شعب "رسينا" أو "الأتروسك" كما هو شائع، وهوشعب ظهر ككيان حضاري (زراعي وصناعي وبحري) حوالي 900 عام ق.م. لمدة خمسة قرون، وهو الشعب الذي ورث الرومان منجزاته وعواصمه وهندسة طرقه ومحوه عن الخريطة(7). فبعد إنشاء قرطاجنة (حوالي القرن الثامن ق.م.) بدأ ازدهارها يواجه الضغوط اليونانية حين اتجهت شمالا وغربا. ومن نتائج هذه الضغوط خوض أسطول كنعاني/ أتروسكي مشترك معركة بحرية ضد اليونان بالقرب من "العالية" في سردينيا، وشارك الكنعانيون الفرس في معركتهم مع اليونان في "سلاميس". وامتدت المراكز الكنعانية على طول ساحل شمالي إفريقيا، ومن هناك انطلقت رحلات "حنو" و"حملكو" حول إفريقيا ونحو بحر الشمال، وبدأت مرحلة ازدهار أمسك فيها الكنعانيون بشريان التجارة الدولية في زمنهم عبر المتوسط وما بعده، وليخوضوا بعد ذلك صراع المئة وثمانية عشر عاما ضد روما.

إذا كان من المؤكد أن اسم "فينيقي" لم يستخدم خارج إطار كتابات اليونان والرومان، فمن المؤكد أيضا أن هذه الكلمة لا أثر لها في أي نص من نصوص الحضارات العربية القديمة أو الحضارات الشرقية الأخرى في فارس والهند وآسيا الصغرى. هناك تسمية فريدة لهم لدى قبيلة "الزولو" التي تنتمي إلى شعب البانتو المنتشر شرقي إفريقيا وجنوبها. فوفق رواية طبيب ساحر من أطباء الزولو جاءت في كتاب تحت عنوان "شعبي" نشر في سبعينات القرن الماضي، توجد أدلة مستقاة من رسوم الكهوف ومن ما يحتفظ به سحرة القبائل من دروع وسيوف ومن روايات شفاهية متداولة، على أن الكنعانيين وصلوا إلى شرقي إفريقيا وأقاموا مستوطنات لهم لاستثمار مناجم الذهب، وأطلق عليهم السكان المحليون تسمية "مال تي"، أي القادمين من "تي". وتتطابق هذه الرواية جزئيا مع خبر الرحلة المصرية في عهد الملك "نكو" (609-593 ق.م.) حول سواحل شرقي إفريقيا بسفن قادها كنعانيون"(8).

إذن أين نجد كلمة "كنعانيين"؟

إننا نجدها بالطبع في الترجمة السبعونية للتوراة، ولكن الوثائق التاريخية هي التي يمكن الركون إليها وليس هذا النص الذي تشوب ترجمته وفك طلاسم لغته العبرية القديمة التباسات لاحصر لها(9). من هذه الوثائق السجلات المصرية القديمة التي ترجع إلى 3000 عام ق.م.، والتي تحدثت عن رحلات تجارية بين مصر القديمة وجبيل الكنعانية. إلا أن ما يؤكد أقدم استخدام لاسم الكنعانيين هو ألواح تل العمارنة المصرية التي ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. في هذه الألواح أن سكان كنعان كانوا يطلقون على أنفسهم بالأكدية اسم "كناهو" Kinahu أو "كنعانو" Kinanu(10). وإذا كان من المعروف تاريخياً أن الكنعانيين سكنوا شواطئ المتوسط الشرقية، فإن مسألة أصلهم لم تعد غامضة. لقد طرح عليهم المؤرخ اليوناني هيرودوتس سؤاله عن أصلهم ومن أين جاؤا، فكان جوابهم كما قال أنهم جاؤا من سواحل البحر الأرتيري، أي البحر المحيط بالجزيرة العربية(11). ومع أن هذه الرواية ثابتة منذ زمن طويل، إلا أنه لم يتم التحقق منها إلا في القرن العشرين بعد المكتشفات الأثرية المكثفة والمتواصلة منذ القرن التاسع عشر، وبخاصة في شرقي الجزيرة وجنوبها، وبعد إزاحة الستار عن موجات الهجرات التي كانت تنطلق من الجزيرة العربية شمالا وغرباً. ويعتقد الباحثون الآن أن الهجرة الرئيسية هي التي جلبت الأكديين

إلى ما بين النهرين في حوالي العام 2350 ق.م.، ثم تلتها هجرة ثالثة جاءت بالعموريين مع نهاية الألف الثالث ق.م.، وجاءت الهجرة الرابعة بالإرميين (الذين يطلق عليهم الباحثون الغربيون خطأ اسم "الآراميين" جريا على التصويت العبري الذي يعتمده هؤلاء). وانتشرت هذه الموجات في الشمال المعروف بالهلال الخصيب(12).

صحيح أن الباحثين الغربيين، وتابعهم العالم في هذا، أطلقوا على هذه الموجات في البداية اسم "الشعوب السامية"، إلا أن الدراسات المستفيضة للهجات هذه الشعوب وعقائدها كشفت عن وحدة ألسنية وثقافية وجغرافية دعت عددا منهم إلى التخلي عن مصطلح "الساميين" بعد أن أصبح خالياً من المعنى، واقتراح أسماء أخرى مثل "شعوب الجزيرة" نسبة إلى الجزيرة العربية المهد(13)، أو اسم "الشعوب العربية" نسبة إلى اللسان الواحد والمهد وإن اختلفت اللهجات(14). وفي الخمسينات كشفت التنقيبات في سواحل الخليج العربية عن مدن العصر المطير وأنماط المعمار والأسماء والمصنوعات ذات الصلة بالمراكز الحضارية الشمالية في وادي الرافدين سبقتها وتزامنت معها(15).

إذن يمكننا القول أن الإصرار على استخدام الاسم "فينيقي" و"فينيقيين"، أي ذوي الجلد الأسمر، يخلو من أي معنى ثقافي أو سلالي إلا في سياقين متصلين بطريقة أو بأخرى هما سياق الاستخدام اليوناني والروماني، وهو سياقٌ دافعه العداء والتنافس كما لاحظنا، وسياق الاستخدام الغربي المعاصر الذي تبنى التسمية ذاتها مواصلا بذلك تراث العداء للعربي، وانسجاماً مع نزعة اعتبار التسمية فعلا من أفعال الهيمنة على الآخر وفرض سلطة خطاب صاحب التسمية بغض النظر عن كونها دقيقة أو غير دقيقة. يضاف إلى هذا، أن أمثال هذه التسميات المصطنعة تحاول إفقاد العربي الراهن أي صلة له بالماضي الحضاري لأسلافه، وقطع الاستمرارية الحضارية بين شعب الأمس وشعب اليوم. ومن نافل القول أن بعث هذه التسميات القديمة المضللة منذ بداية استخدامها في العصور الحديثة استهدف خلق هويات مصطنعة لبعض البلدان العربية، وكان سلاحاً في الصراع الفكري الذي مايزال دائرا حول محور واحد؛ محور دفع العربي إلى التنكر لنفسه ولأسمائه وتفتيت وطنه إلى هويات لاأساس لها إلا في كتب الباحثين الغربيين.

والملاحظ أنه على رغم الدلائل المتكاثرة التي أصبحت بديهيات لدى عدد كبير من علماء اللغات والآثار، فإن تفسير هذه الدلائل وإعطاءها مصطلحاً مناسباً في لغة البحث مازال يتعثر تعثراً غريباً وغير مفهوم، والجامع المشترك بين من يصرون على اعتناق معتقدات القرن التاسع عشر وتبجيلها وكأنها من المقدسات، هو الهرب من تسمية "العربي" و"العربية". ونذكر في هذا الصدد

أن أي اكتشاف لوجود حضاري في أي منطقة عربية، وبخاصة مكتشفات العصر المطير في الجزيرة العربية، تتبعه تساؤلات غريبة عن المكان الذي جاء منه أصحاب هذه البقايا الحضارية، وكأن كل ما له صلة بالتحضر العربي لابد أن يكون مجلوباً من أماكن أخرى، بينما يفترض المنطق العلمي البدء من فرضية أن هذه الآثار هي من منتجات أصحاب هذه الأرض وبيئتها لا العكس(16).

إن اللسان الواحد والعقائد المتماثلة الأصول وطرز البناء، منذ البواكير المسماة "سامية" وصولا إلى الزمن الراهن، لتدل دلالة واضحة على وجود شعب تعددت أقطاره ولهجاته(17). ومع ذلك فإن ما يبذله عدد من المستشرقين في علم الآثار وشراح مكتشفاتهم يكاد يكون عملا معاكساً، بل ومضللا لأدلة علم الآثار والرأي العام. وهذه هي الظاهرة التي أطلقنا عليها مصطلح "الاستشراق في علم الآثار" منذ أوائل تسعينات القرن الماضي. فهم يطلقون على القبائل تسمية "الشعوب"، وحين ترد في ألواح المسند اليمانية تسمية "شعب" في إشارة إلى وجود تنظيم حضري متميز عن التنظيم القبائلي تترجم إلى كلمة "قبيلة". ويطلقون على اللهجات تسمية "لغات"، رغم إدراكهم أن اختلاف طريقة تصويت الكلمات بين عدة مناطق لايعني وجود "لغات" متمايزة. والغريب أن هؤلاء ما أن يعلموا باكتشاف مدينة أو قرية حتى يسارعوا إلى إعطائها اسم "حضارة" مستقلة، وهو ما لايفعلونه في مناطق أخرى من العالم، فهناك يحاولون تجميع الأدلة على وحدة حضارية قدر الإمكان بين مناطق متباعدة، وكأن الأرض العربية ذات الطبيعة المنبسطة في غالبيتها ليست سوى شظايا في كل قطعة منها حضارة منفصلة عما يجاورها، وشعب منفصل لغة وثقافة ومساراً.

إن هذا "السيناريو" التاريخي، الذي تعرض ويتعرض للتقطيع والتجزئة، يحتاج إلى تجميع وإعادة تركيب وفق منهج مختلف عن مناهج الباحثين الغربيين، منهج مستوحى من وقائع الطوابع الموحدة بين حضارات المنطقة العربية، يأخذ في اعتباره الانطلاق من المحيط الأوسع، جغرافياً وثقافياً، أي من فرضية محققة تاريخياً؛ إن هناك حاضنة جغرافية-اقتصادية-ثقافية لهذه الحضارات، حضارات المدن والقرى العربية، وهناك إطار واحد يجمع بينها منذ أقدم الأزمان، بل وأن هذا الإطار يتجلى للعيان كلما عدنا إلى الوراء، إلى الجذور. وإلى أن يثبت العكس، وهو أمر لم يثبت حتى الآن، فلا بديل عن هذا المنهج.

إشارات

1- Donald Harden, The Phoenicians, Penguin Books, London, 1977, p.20

2- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د.جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ص 239

3- الإشارة هنا هي إلى حدود الجزيرة العربية كما وردت عند الهمداني في كتابه "صفة جزيرة العرب"، وهي حدود ترسمها مياه الخليج ونهري دجلة والفرات وصولا إلى جبال طوروس، ثم انحدارا مع شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى نيل مصر، فالبحر الأحمر، وصولا إلى المحيط الهندي الذي تحيط مياهه بالجزيرة من الجنوب. مرجع سبق ذكره، ص 57

4- Donald Harden, op. cit. p.25

5- Ibid.p.120

6- Ibid. p.30

7-The Eternal Etruscans, National Geographic, June 1988, p.708

8- فيليب حتي، ص 108

9- Kamal Salibi, op.cit.p.34

10- Donald Harden, op.cit.p.25

11- Kamal Salibi, op.cit.pp.11,25

12- Donald Harden, op.cit.p.30

13- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمه عن الألمانية د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، 1977، ص 14

14- طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم: مايسمى في العربية بالدخيل، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1967، ص 30

15- جيوفري بيبي، مرجع سبق ذكره، ص 36

16- المرجع السابق، ص 303

17- Julian Baldick, Black God: The Afroasiatic Roots of the Jewish, Christian and Muslim Religions, I.B.Tauris & co Ltd, London, 1998, pp. 19-

الفصل الخامس

ألسنة أم لهجات لسان واحد؟

حين كنا نشاهد خطوطَ اللغاتِ القديمة على الألواح الطينية بأشكالها العجيبة الشبيهة بضربات المسامير أو الشبيهة برسوم الأطفال المصورة، كان يأخذنا العجب من الكيفية التي تتحول فيها هذه الخطوطُ إلى كلمات مقروءة ومفهومة تحمل هذا القدر الكبير من القصص والشعر والأخبار والملاحم. كان الأمر معجزاً بالنسبة لنا قبل أن نتعرف على الجهود الخارقة التي بذلها علماء لفك هذه الرموز، وتحويل الخطوط والصور إلى كلمات فسطور فنصوص كاملة، فنعرف شيئا من قواعد القراءة والترجمة إلى اللغات الحية. إلا أننا رغم هذا لا زلنا نرى في الأمر أعجوبة، ولازلنا نتساءل كيف تسنى للعلماءِ إدراك أصوات الحروف والكلمات وهم ينظرون إلى أشكالها الساكنة على الألواح الطينية والمسلات الحجرية والجدران الصخرية في ظل غياب أولئك الذين كانوا ينطقونها.

نبهني أحد طلبة قسم الآثار في جامعة بغداد ذات يوم إلى ورود بعض الكلمات العربية، لفظاً ومعنى، في نص آشوري، حتى وإن قرئت بالحروف اللاتينية. وأعرف اليوم أن هذه المقاربة تشير بوضوح إلى مدى دقة العلماء الذين نقلوا الخطوط القديمة إلى الأحرف اللاتينية، رغم أننا لن نجد حروفنا العربية الشهيرة (العين والضاد والغين.. والحاء..) في اللاتينية إلا إذا عدنا إلى أصولها على الألواح الطينية.

لا ينتقص هذا بالطبع من جهود هؤلاء العلماء، بل يثير في الذهن أفكاراً حول نصوص الحضارات الشرقية القديمة، والعربية منها بخاصة، والتي لازالت تُترجم بتوسيط الحرف اللاتيني

فتبتعد بأصواتها ومعانيها عن الأصل ثلاث درجات، فتصلنا شاحبةً ملتبسة وغير مفهومة في أحيان كثيرة.

من المعروف أن العربية في عصورها القديمة، هي غير عربيتنا الراهنة، سواء من حيث تغير معاني بعض الكلمات وموت بعض آخر، أو من حيث خط الكتابة، فقد كتبت العربية القديمة بما يشبه ضربات المسامير في الأجزاء الشرقية والشمالية من الجزيرة العربية، وكتبت بالخط المعروف بالمسند بحروفه المنفصلة في معظم أجزاء الجزيرة، وبخاصة جنوبها، كما كتبت بالخط الكنعاني المتطورعن المسند الذي تطورت عنه الأبجدية اليونانية، ولا تزال آثاره ماثلة في رسم اللغات السلافية حتى الزمن الراهن. وأخيرا كتبت العربية بالخط الهيروغليفي في المراحل المبكرة لتطور الحضارة المصرية القديمة(1). وفي كل هذه الحالات كانت أصوات اللغة تتغير تبعا للحرفِ المتخذ وسيلة للكتابة. ففي الخط المسند مثلا لا تُكتب حروف المد التي تلفظ فقط(2). وفي الخط المسماري "تأثرت الأكدية جراء تدوينها بالخط المسماري، ولاسيما أصواتها، فاختفى بعضها من الكتابة وبوجه خاص حروف الحلق والأصوات الأخرى المسماة سامية مثل الضاد والطاء والعين والحاء لعدم وجود علامات مسمارية خاصة تؤديها"(3).

ويشير عدد من الباحثين إلى هذا الأمر منذ أن بدأ تدوين الأكدية بحدود النصف الأول من الألف الثالث ق.م. بالخط المسماري. فقد لاحظت الباحثة الأميركية "هارييت كراوفورد" في كتاب لها صادر في العام 1991، أنها وجدت دلائل على تزايد الأسماء السامية (العربية) المضطرد في سجلات الألف الثالث ق.م. في مدن شمالي وشرقي الجزيرة العربية، وهناك أدلة على ظهور أسماء شخصيات سامية (عربية) في بعض الألواح المبكرة مع بداية ما يطلق عليه عصر السلالات بالخط السومري. وتشير الباحثة إلى وجود دلائل على ميل الميزان الألسني لغير صالح السومريين حوالي العام 2000 ق.م. حيث توقف الحديث باللغة السومرية. ومع العام 1800 ق.م. صارت السومرية لغة ميتة، وهو ما يجعل من الممكن الافتراض أن السكان بدأوا يعتبرون السامية (العربية) لغتهم الأم(4).

ويزيد عالم عربي هو الاستاذ "طه باقر" هذا الأمر وضوحا، حين يقول "أن اللغة الأكدية - والأكديون عرب من الجزيرة العربية- في عصرها القديم، أي منذ بداية تدوينها (2370 – 2160 ق.م.) وحتى نهاية سلالة أور الثالثة (2004 ق.م.) ظلت محتفظة بالأصوات العربية القديمة، ومنها أصوات الحلق، ولكنها أخذت بالضياع بعد ذلك بسبب اتخاذ الخط المسماري وسيلة لتدوينها، وهو الخط الذي ابتكره السومريون لتدوين لغتهم الخالية من أصوات الحلق المميزة للغة

الأكدية. وحافظت الأكدية إلى مابعد نهاية البابلية القديمة على حركات الإعراب مع صيغة "التمييم" التي تقابل التنوين في العربية، ثم أخذ الإعراب بالزوال بعد العصر البابلي والآشوري القديم، وطرأ الإهمالُ على حركات الإعراب وهي الضم والفتح والكسر"(5).

إذا انتقلنا إلى سواحل المتوسط حيث كُتبت الكنعانية بخط مسماري أبجدي مكون من 28 رمزاً مرتبة بترتيب الألفباء العربية نفسها(6)، نجد أن بعضاً من نصوص "أجرت" أو كما تم تصويتها وفق التصويت العبري الذي درج عليه بعض الغربيين عن غير بصيرة باسم (أوغاريت)، لم يتضح غموضها إلا في ضوء العودة إلى المعاجم العربية التقليدية. وهو ما دفع الندوة العالمية للدراسات الأوغاريتية التي عقدت في دمشق في العام 1979 إلى التشديد على أهميةاللغة العربية في دراسة ألواح "أجرت" بالإضافة إلى استخدام العربية الدارجة في سوريا. ولم يتم ذلك إلا بعد براهين عملية قدمها الباحث لؤي عجان حين استطاع إيضاح غموض أكثر من 20 كلمة في نص كنعاني بالاستعانة بالمعجم العربي(7).

ويمكن، وفق الباحث د. عبد اللطيف البرغوثي، التعرف بسهولة ومن دون بذل أي جهد على ما يقارب 418 مفردة عربية معاصرة في قائمة تضم 1800 مفردة مأخوذة من الأساطير الكنعانية القديمة أحصاها الباحث جي. سي. ل. جبسون واستخرجها من قراءة ألواح "أجرت". وهذه المفردات سهل على الباحث التعرف عليها لأنها لا تزال مفردات حية مثل: أب ab‘، أخah ، أختaht‘ ، وأكل akl، وأمر amr ، وأسر asr‘، وأرض rs‘، وجمرgmr ، وجنة gn، ودم dm، وأيل ayl (وعل)، وسبلة sblt.. إلخ. أما المفردات التي لم يتعرف عليها فلا شك عندنا أنها إما من المفردات المهجورة، أو مما يمكن العثور عليه في المعاجم(8).

وهنالك أمر لم يلتفت إليه المترجمون العرب للنصوص الأكدية والكنعانية من اللاتينية إلى العربية، وهو أن الكتابة القديمة، باستثناء المقطعية، كانت تكتب بحروف ساكنة، أي من دون حروف العلة، وحين قام الباحثون الغربيون بنقل هذه الكتابات إلى الحرف اللاتيني أضافوا إليها حروف العلة وفق التصويت العبري(9) على أساس افتراض مسبق مفاده أن العبرية هي أم اللغات، وليست لهجة من لهجات الكنعانية. وهكذا ساهم هذا التصويت في إضافة تغيير خطير أبعد الأكدية والكنعانية وحتى المسندية(10) والمصرية القديمة عن أصولها العربية(11). وينسحب هذا على تحريف المعنى، بل وأحداث القصص الكنعانية وأسماء أبطالها، وقد اتيحت لنا فرصة قراءة نصوص كنعانية ترجمت مرتين، المرة الأولى في الأربعينات والمرة الثانية في الستينات من القرن الماضي، ووجدنا تغيراً جذرياً في بنية النصوص. وتبين أن المترجم هـ. أ. ميديكو في

الاربعينات اعتبر "القمر" مؤنثاً كما هو في اللغات الغربية وليس مذكراً كما في اللغة العربية ولهجاتها، وكذلك الشمس التي تم تذكيرها(12). ولم يكن هذا إلا هفوة في سياق أخطاء قاتلة حرفت معاني الكلمات وسير الأحداث وأماكنها وشخصياتها، وبخاصة في ترجمات نصوص "أجرت" التي ترجمها ديل ميديكو ونشرها تحت عنوان "التوراة الكنعانية" في العام 1950، بعد أن زج في مروياتها تعسفاً إشارات إلى مرويات توراتية بعيدة عنها في الزمان والمكان(13).

في وادي النيل لا يزال الباحثون يطلقون لفظة "حورس" على الصقر الذي يرد في الكتابة الهيروغليفية بلفظة "حر" (H R W)، من دون أن يستثنوا حتى حرف السين الزائد الذي هو لاحقة يونانية. وفي هذا المجال تلفت النظر دراسة الباحث "ف. لوريه" في العام 1903 لأصل هذا الصقر واسمه، حين يسجل مقارنة لغوية بين التسمية المصرية "حور" التي تشير إلى الصقر والتسمية العربية "حر" التي تشير إلى صقر من نوع Pelerine.

يقول ف. لوريه أن التسمية المصرية للصقر Bik التي تطلق على الطائر "حور" لا تزال موجودة في اللغة القبطية باللفظ "بوز". وهذه التسمية قريبة من التسمية العربية "باز" و"بازي" التي تطلق على بعض الطيور الجارحة. وأكثر من ذلك، لوحظ أن الكتّاب العرب وبخاصة كتاب الطبيعيات، وبعض اللهجات العربية، يطلقون تسمية "باز" و"بازي" على الصقور. مثل صقر الباز أو البازي. وهكذا تنطبق الدلالة في كل من المصرية القديمة والعربية في الألفاظ Bik وباز وبازي على الصقور. ويخلص ف. لوريه إلى نتيجة مفادها أن أصلا مشتركاً في العربية والمصرية القديمة كان يستخدم للدلالة على الصقر، ويرى أن دراسة الأسماء العربية للصقور المختلفة تؤدي إلى نتيجة غير متوقعة وذات أهمية بالغة. فكلمة (H R W) مماثلة للكلمة العربية "حر" الدالة على الصقر من نوع Pelerine. ويستشهد بما جاء في كتاب الحيوان للدميري نقلا عن "ابن سيده": "الحر.. الصقر والبازي" وقال "ابن سيده": "الحر طائر أنمر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس وقيل أنه يضرب إلى الخضرة ويصيد". ويستخلص ف. لوريه من هذا النص أن "بازي" و"صقر" في اللغة العربية كلمتان مترادفتان يماثلهما في اللغة المصرية القديمة الكلمتان: H r w وBik، وأن كل ما جاء في النص من أوصاف للحر ينطبق بشكل دقيق على "حور" أو H r w (14). وليست كلمة "حر" هي الكلمة العربية الوحيدة في المصرية القديمة المبكرة، فهناك كلمات أخرى عديدة كما تظهر دراسة د.علي فهمي خشيم في كتاب "آلهة مصر العربية"، وكما يظهر أي تصفح سريع للمعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي للفرنسية برناديت موني (15)

إلا أننا استعرضنا في هذا التحليل كلمة "حور" لأنها اسم الطائر "الحر" المقدس البارز في مصر القديمة.

ما نخلص إليه من هذه الملحوظات هو أننا نتبين ثلاث مراحل انتقلت فيها الكلمة العربية مبتعدة عن الأصل، بل هي في الحقيقة أربع مراحل، تبدأ الأولى بالتغير الذي يلم بأصوات العربية حين تكتب بأبجدية لا تفي بكل أصواتها وبخاصة الحلقية (الأبجدية المسمارية)، ثم تأتي المرحلة الثانية حين تترجم هذه الكتابة إلى لغة أخرى تفتقر إلى مكافئ للأصوات العربية (الأبجدية اللاتينية)، وترافق هذه المرحلة مرحلة ثالثة، وهي مرحلة تصويت الحروف الساكنة وفق قواعد التصويت العبري لا العربي. وأخيرا تأتي المرحلة الرابعة حين ينقل النص العربي من اللاتينية إلى العربية المعاصرة دون وعي بما دخل عليه من تحريفات المراحل السابقة، أو مع القليل من الاجتهاد في استخدام الحدس لمعرفة نطق الحرف الأصلي لأن معظم المترجمين العرب لا يعرف اللغات القديمة، ولم يحدث أن وقع نظره على لوح طيني.

ما تقوله الألواح الطينية والمساند وواجهاتُ المعابد والقصور إذاً، قد يكون شيئا مختلفا عما يصلنا ووصلنا حتى الآن عبر الوسيط اللاتيني، باستثناء نصوص قليلة قرأها باحثون عرب بنصها الأصلي ونقلوها إلى العربية، ولم "يترجموها" كما يقال خطأ.

من هذه النصوص القليلة "ملحمة كلكامش" التي يقول مترجمها د. طه باقر أنه ألزم نفسه بعد كل طبعة أن يعيد القراءة والمقابلة بين الترجمة والأصل البابلي، والرجوع للمقارنات المختلفة في البحوث والدراسات الأجنبية(16). وكذلك "أخذة كش" التي نقلها البير نقاش وحسني زينة من الكتابة المسمارية المقطعية إلى الألفباء العربية مباشرة لا عبر اللاتينية (17). ولعل بدايات الالتفات إلى المعاجم العربية، وعودة الباحثين العرب بأنفسهم إلى النصوص الأصلية، هو ما سيجعلنا نقرأ نصوص حضاراتنا القديمة بشكل أصح نسبيا مما اعتدناه حتى الآن.

يقول ألبير نقاش وحسني زينة عن جملة ضربا بها مثلا من أُخذة كش بلغتها الأصلية الأكدية وتأديتها في العربية:

"أن أوجه الشبه بينهما (بين الأكدية والعربية) بادية للعيان ولا سبيل إلى إنكارها، وأنها لتشير إلى وحدة الجوهر اللغوي بين اللسانين. والتشابه اللغوي بينهما يوازي ذاك الذي يقوم بين نص للأديب الإنجليزي تشوسر بصيغته الأصلية وبين تأديته بالإنجليزية الحديثة، أو بين نص للشاعر الفرنسي فييون بصيغته الأصلية وبين تأديته بالفرنسية المعاصرة. على أن التشابه بين الجملتين المشار

إليهما لايعبر مدى خمسة قرون وحسب، مثلما هي الحال مع تشوسر وفييون، بل يتخطى أربعة آلاف سنة. والجملة هي:

" آخُذْ فاكِ شَ رقّتِ" (بالأكدية)

" أخّذتُ فاكِ ذا الرقّةِ" (بالعربية) (18).

ويصرح الباحثان بأنهما يعتقدان اعتقاداً جازماً أن الألفباء العربية والخط العربي أليق من الألفباء والخط اللاتيني بكتابة التراث المشرقي القديم، وأنهما في استعمالهما لثروة المعاجم العربية لإلقاء بعض الضوء على كلمات لم تتيسر معرفة معانيها في الأكدية لم يبتدعا بدعة تخالف الأعراف، بل ترسما خطوات باحثين من أمثال "غيليب" و"فون زودن"(19).

2

في العام 1975، وبعد ما يقارب عشر سنوات من التنقيب في تل مرديخ -50 كيلومترا جنوب حلب السورية- اكتشفت البعثة الإيطالية مكتبة القصر الملكي لما كان يدعى مملكة إبلا القديمة التي انتهي وجودها السياسي في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. كانت المكتبة ضخمة تضم ألواحاً طينية منقوشة بالخط المسماري بلغ عددها 15 ألف لوح تقريبا؛ نقوش مسمارية بكتابة مقطعية، ولكن اللغة حسب تقدير علماء الآثار الإيطاليين، ووفق المصطلح الشائع آنذاك كانت سامية عجيبة، وربما أقدم كنعانية عرفت حتى ذلك الوقت.

تحديد لغة الألواح ربما هو أول مهمة من مهمات البعثة الأثرية، لأن قراءتها هي التي ستمكنها من معرفة طبيعة الموقع وزمنه وحياة سكانه ونظمهم، ولكن اللغة لم تكن ذات هوية واضحة للوهلة الأولى لدى أكثرية العلماء الذين اطلعوا على ألواح مكتبة "إبلا" المسمارية. فوضعها "جيوفاني بتيناتو" خبير البعثة اللغوي في عداد اللغات السامية الشمالية الغربية حسب التقسيم التقليدي الجغرافي لهذه اللغات إلى سامية شرقية وسامية غربية وسامية جنوبية، أما رئيس البعثة

"باولو ماتييه" فأطلق عليها اسم لغة "إبلا" تبعا لاسم المدينة التي وجدت فيها الألواح، مع اعتراف الباحثين بأن هذه لغة جديدة عليهم، ولم يسبق أن تضمنتها نقوش أخرى مكتشفة (20).

بعض العلماء أكد على الخصائص المشتركة بين لغة "إبلا" واللغة الأكدية ولغة جنوبي الجزيرة العربية، وعاد "بتيناتو" وأطلق عليها تسمية "الكنعانية القديمة". ولكن "ما أن تعمق الدارسون لغة إبلا حتى وجدوا أنها أقدم لغة عربية، فهي مشابهة للأكدية التي ظهرت أولا في عهد سرجون الأكدي، ثم هي أصل الكنعانية ولكنها أقدم من الأولى بجيلين. وهذه اللغات هي لهجات متنوعة للغة واحدة أو لأسرة من اللهجات أطلق عليها خطأ اسم "الأسرة السامية"، وقد أصبح من المفضل أن يطلق عليها اسم "الأسرة اللغوية العربية"، "ذلك أن مفهوم السامية بعيد عن العلم والإثبات في التاريخ، بينما كلمة "عرب" تعني سكان هذه المنطقة الذين كانوا يتكلمون لهجات مختلفة، وتربطهم روابط جغرافية واحدة، وحضارات متشابهة معاصرة لبعضها، ويتفاعلون مع بعضهم باستمرار عن طريق التجارة والهجرة والحروب"(21).

بالطبع لم يكن مصدر هذه "الأفكار بعض المؤلفات العامية التي تفتقر إلى الجدية، والتي كتبها أشخاص غير متخصصين وتروج لأفكار مغلوطة حول تاريخ الكتابة" كما زعم أحد المستشرقين الناشئين في نقاش بيني وبينه (22)، بل بناء على دراسة لغوية شارك فيها عدد من العلماء، كشفتْ عن خصائص هذه اللهجات التي ترجع إلى لسان واحد، فحين درس "بيلو فرانزا رولي" من جامعة فلورنسا نقوش "إبلا"، لم يجد حلا لصعوبات التعرف على معاني الكلمات إلا بالاستعانة بالمفردات العربية، وتبين له "أن بعض الأسماء والمفردات الإبلائية لاتزال حية حتى الآن في اللغة العربية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الوحدة بين اللغة الإبلائية واللغة العربية الحديثة ما زالت قائمة على الرغم من مرور خمسة آلاف سنة" (23).

باحث آخر هو "كريبرنيك"، تثبت، في دراسات متعلقة بالأصوات، من أن كثيراً من الأصوات "السامية" القديمة مثل الضاد والظاء والعين لم يعثر عليها إلا في العربية والأوغاريتية، وأشار إلى "ضرورة الاستعانة بالمعجم العربي من أجل تفسير المفردات الإبلائية لأنه لا غنى للباحث العلمي واللغوي عن ذلك من أجل قراءة صحيحة ودقيقة لرقم إبلا المسمارية" (24).

يقول "عفيف بهنسي" من جانبه، أن العلاقة بين اللغات القديمة، الأكدية والابلائية والكنعانية، وبين العربية ظاهرة وواضحة، بل أن من الخطأ أن ننطق الألفاظ القديمة بحسب نطقها العبراني، وذلك لأن اللغة العبرانية خليط، أما اللغة العربية فهي صرفة، والألفاظ الدخيلة فيها معروفة بوضوح. ويضيف أن عدم الاعتماد على اللغة العربية يخلق مشكلات أمام الباحثين، منها عدم العثور على

كثير من معاني الألفاظ القديمة، أو إساءة ترجمتها، ومنها عدم التمكن من نطقها جيداً، نظراً إلى أن أكثر الحروف غير مشترك مع اللاتينية والعبرية، بل هو مشترك بوضوح مع العربية مثل حروف القاف والغين والعين(25). وهناك سبب آخر يمكن إضافته وهو أن تصويت العربية قد تم وهي لغة حية، بينما تم تصويت العبرية بعد أن ماتت بعدة قرون، حين قامت فئة من أحبار اليهود، وهم المعروفون بالمصورتيين (أي أهل التقليد) ابتداءا بالقرن السادس الميلادي وحتى القرن العاشر الميلادي بضبط تهجئة النصوص التوراتية عن طريق إدخال الحركات والضوابط عليها بصورة اعتباطية في أحيان كثيرة، مما غير إعراب الجمل وحور المعاني (26).

أول محاولة لوضع هذه الرؤية الجديدة إلى العلاقات اللغوية بين العربية واللغات القديمة موضع التطبيق، على حد علمنا، كانت محاولة ألبير نقاش وحسني زينة التي أشرنا إليها في نقل أكادية (أخذة كش) إلى العربية مباشرة. وحول هذا الأمر يقول نقاش "إن العلماء الأجانب يقومون بنقل نصوصنا القديمة إلى العبرية الحديثة، قبل نقلها إلى لغاتهم لكي يحافظوا على روحيتها الشرقية كما يزعمون، وهو أمر مؤسف، لأن الأولى أن ننقل هذه النصوص إلى العربية مباشرة فنستعيد رابطنا الثقافي بماضينا" (27).

ويلاحظ أن الباحثين الأجانب لا يأخذون بنظر الاعتبار عند ترجمة نصوصنا الكتابية خصائص اللغة العربية، فقد كتبت هذه النصوص بالحرف الساكن أولا، ثم يأتي التصويت وإضافة الحروف الصوتية والحركات، وهي التي تعطي الكلمة معناها الدقيق لأنها تغير منحى الاشتقاق. وعند نقل النصوص القديمة المدونة بالمسمارية إلى لغة أجنبية كثيراً ما يغفل الباحثون دور هذه الأصوات (الحروف الصوتية والحركات) فتأتي الترجمة مشوهة (28).

يضاف إلى هذا أن هؤلاء الباحثين يجهدون أنفسهم في تصنيف نصوص الرقم الطينية المكتشفة ولهجاتها وفق تقسيمات جغرافية اتباعا لمنهج تجزئة المناطق العربية إلى حضارات مستقلة، وتبعاً لذلك إلى "لغات" مستقلة، وتجاهل التناغم اللغوي والديني والإجتماعي بين سكان هذه المناطق. والعنصر الجامع بين هؤلاء، والأكثر لفتا للنظر، هو أن غالبيتهم تتجاهل علاقة هذه اللهجات باللغة العربية رغم اعتراف بعضهم بنوع من سيادة لغة واحدة في مرحلة من المراحل ترجع إلى أواخر الألف الثالث ق.م.، ثم بدأ تعدد اللهجات يتخذ طريقه.

جاء في خطاطة ترسم تاريخ التطور اللغوي في شرقنا العربي نشرها وليم ف. البرايت في العام 1938، توضيحا للخلافات التي ثارت بمناسبة اكتشاف رقم "أجرت" (موقع رأس شمرة شمالي الساحل السوري) بين من يراها ذات علاقة وثيقة بما يسمونها الفينيقية والعبرية (المدرسة

الأمريكية-الفرنسية) وبين من يرونها لغة وسطا بين الآرامية والعبرية (المدرسة الألمانية)، إن الاعتراضات الألمانية على النسب الوثيق بين الأوغاريتية والعبرية لاضرورة لها لأن العبرية التوراتية تعكس مرحلة متأخرة جداً من مراحل اللغة الكنعانية، بينما ترجع لغة أوغاريت إلى منتصف الألف الثاني ق.م. (29) أي أن العبرية لم يكن لها وجود في زمن لغة أُجرت، وبالتالي من الحماقة إقامة مثل هذا النسب. وجاء في خطاطة البرايت أيضا " إذا عدنا إلى أواخر الألف الثالث ق.م. لا نستطيع أن نميز سوى ثلاث لغات" سامية-حامية" مستقلة نسبيا في الشرق الأدنى القديم، هي الأكدية والسامية الشمالية الغربية والمصرية القديمة، وفي الوقت الذي تباعدت فيه المصرية عن السلف المشترك للألسنة السامية الآسيوية، طورت الأكدية خصائصها الصوتية والنحوية التي ميزتها تميزاً حاداً عن الألسن السامية الأخرى قبل سلالة أكد حوالي العام 2500 ق.م.، ولم تتغير سوى تغير طفيف خلال الألفين اللاحقين. وقبل العام 2000 ق.م. نستطيع تمييز ثلاث لهجات أكادية على الأقل. وإذا درسنا تدوين الأسماء والكلمات السامية الشمالية الغربية بالحرف المسماري والهيروغليفي حوالي العام 2000 ق.م.، لن نجد بالمقارنة إلا علامات على اختلاف في اللهجة لا أهمية لها، إذ تتفق أشكال الأسماء والأفعال اتفاقا وثيقا مع أشكال الأسماء والأفعال في جنوبي الجزيرة العربية بدءا من القرن الثامن ق.م. فصاعدا، ومع أشكالها في شمالي الجزيرة العربية بدءا من القرن السابع ق.م.، بحيث نستطيع الاستنتاج بثقة تقريبية أنه كان هناك وجود للغة مشتركة من حيث الجوهر مفهومة من شواطئ المحيط الهندي إلى جبال طوروس، ومن جبال زاغروس إلى حدود مصر"(30). ويضيف البرايت "من المحتمل أن هذه اللغة (باستثناء الأكدية والألسنة السامية التي قد تكون انقرضت) كانت متجانسة كما كانت متجانسة اللغة العربية قبل ألف سنة، أعني أنها كانت تنطق بلهجات كثيرة، ولكن الاختلافات بينها كانت بالغة الضآلة إلى درجة أنها لم تقم حدوداً صلبة تمنع التفاعل الاجتماعي"(31).

إن ارتباك وتشوش علماء اللغات الأجانب، بسبب تجاهلهم تسمية هذه اللغة الواحدة الجامعة رغم تعدد لهجاتها، يصل أحيانا حدا طريفاً، ويوضح مثال ذكره د. كمال الصليبي المدى الذي يمكن أن يمضي إليه إهمال العربية ومعاجمها، فقد ظل قراء نقش ما يسمى "نقش ميشع" في غاية التشوش حول تفسير هذه الجملة:

"لما كان لديه من بقرن (أبقار) ومعـ(ز) (ماعز) وصءن (ضأن)"

إلى درجة أنهم أخفقوا في التعرف على هذه الكلمات الثلاث الأخيرة، كما تظهر في النقش، بما تعنيه في الواقع. وفي حين أن كلمة (بقرن) هي بوضوح بقر، بصيغة الجمع المذكر، فقد قرأوها

على أنها بـ قرن التي معناها "بقرى". أما الكلمتان معز وص٥ن فقد حذفتا كليا من الترجمة بسبب سوء التأويل العام للإطار الذي وردت فيه هاتان الإشارتان الصريحتان إلى الماعز والأغنام(32).

إن الارتباك والخطأ اللذين لم ينكشفا إلا أخيراً، وبعد أن شاعت وتفشت الترجمات المغلوطة إلى حد أصبح من المتعذر معه تصحيح أخطائها في الأذهان، لا يمنعان الباحثين العرب الذين يجيدون قراءة اللغات القديمة على الألواح مباشرة، وليس عبر اللاتينية، من إعادة قراءة ما انتشر في المنطقة العربية من نصوص انطلاقا من فرضية أصبحت محققة، وهي أن هذه اللغات القديمة لهجات متفرعة عن لسان واحد مرجعه الأساس المعجم العربي.

3

منذ العام 1928 فصاعدا، دخلت في نطاق دراسة الآداب الشرقية القديمة المسماة اصطلاحاً "الآداب السامية" ملاحم شعرية كنعانية ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. اكتشفت في أطلال مدينة تقع شمالي سوريا يطلق عليها الباحثون تجوزا اسم "أوغاريت" بينما اسمها حسب النقش الاصلي "أجرت" (U.g. r. t) (33). ورغم إشارة الباحثين إلى قرابة لغة هذه الألواح من العربية؛ 30% من ألفاظها لاتزال حية على اللسان العربي حتى الآن (34) إلا أنهم أعطوها تسمية خاصة: "اللغة الأوغاريتية" وضموها إلى ما أصطلحوا عليه اسم مجموعة اللغات السامية الغربية. فهل يمكن اعتبار لغة هذه الملاحم الشعرية لغة عربية قديمة؟.

يشير الباحث س. هـ. هوك في كتاب له عما سماها أساطير الشرق الأوسط إلى الصعوبات التي واجهت العلماء الغربيين وهم يقفون أمام لغة ألواح "أجرت"، فهي نصوص مكتوبة بالحروف الساكنة، أي دون صوائت (حروف علة)، ورغم ساميتها الواضحة، وأبجديتها التي تبلغ 28 حرفا، كما هي العربية، فقد ظلت غير مفهومة بالنسبة لهم بشكل كامل، ومازال الدارسون يختلفون اختلافا كبيرا في ترجمة نصوصها وتفسيرها(35).

بعضهم أدرك عدداً من أسباب الاضطراب، ومنها أنهم اتبعوا في تصويت كلمات هذه النصوص الأسلوب العبري الذي لم يكن سوى تصويت مصطنع حديثا (القرن السادس الميلادي) ولا صلة له بلغة مكتوبة قبل ذلك بما يقارب الألف عام. ومنها أن الباحث الغربي يصيب استنتاجاته التشويش

حين لا يكتشف الفرق بين (لهم) و(لحم) فيعتقد أن جذرهما واحد بسبب تشابه نطق حرفي الهاء والحاء في اللاتينية. ومنها، وهو الأكثر أهمية، تجاهل المعجم العربي الذي لم يحتل مكانه كمرجع أساسي في قراءة ما يسمونها "اللغات السامية" إلا حديثا ولدى قلة من الباحثين.

إن قراءة العربي العابرة لهذه اللفظة الأُجرتية: "MLK " تجعله يدرك فورا أنها لفظة "ملك" العربية، وإن لفظة "GRT" تجعله يدرك أنها "قرية" وأن "MSS" "مص".. وهكذا هو حال مئات الألفاظ التي تتكون منها سطور هذه الملاحم الشعرية، وهي ألفاظ لاتزال حية على الألسنة. وقد نجد في هذه الملاحم الشعرية ألفاظا غامضة يصعب الوصول إلى معناها، ولا نجدها في لغتنا المعاصرة، إلا أن السبب على الأغلب هو أنها من الألفاظ المهجورة، ولكن الكثير منها يمكن العثور عليه في المعاجم العربية.

لم تُكتب ألواح "أُجرِت" بالأبجدية العربية الراهنة، بل بأبجدية مسمارية، كما هو حال الأكدية المعاصرة لها، ولم يستقر الحال بالعربية في أبجديتنا الراهنة إلا بعد تطورات استخدمت فيها الأبجدية الكنعانية والأبجدية اليمانية القديمة، وأخيراً الإرمية فالنبطية، وصولا إلى الأبجدية التي نعرفها الآن. ولكن هذا لا يمنع من النظر إلى نصوص "أُجرِت" بوصفها نصوصا عربية، أو نصوص لهجة من اللهجات العربية كما يرى بعض الباحثين، فالعربية لفظا وتركيبا هي من اللغات النادرة التي يمكن العثور على نصوص قديمة لها يرجع أقدمها إلى الألف الثانية ق.م.. وهي من اللغات النادرة التي يستطيع العربي المعاصر إذا اتيحت له فرصة قراءة علاماتها المسمارية أو الكنعانية أو اليمانية منقولة إلى أبجديته، أو أي أبجدية أخرى يعرفها، فهم عدد لا بأس من معانيها بسهولة بالغة.

على سبيل المثال فان سطور ملحمة كلكامش المكتوبة أصلا بالمسمارية، والمنقولة إلى اللاتينية، لا يكاد يخلو سطر منها من كلمة أو كلمتين عربيتين أو أكثر لا يزال العربي المعاصر يستخدمها، وبعضها مما يظنه بعض الناس عاميا شائعا في بعض اللهجات دون غيرها.

حينما التقى جلجامش بالسابئة، صاحبة حانة الخمر، دار بينهما هذا الحوار بالأكدية، ونقل د. طه باقر أصواته بالحروف العربية هكذا:

سابيتم أنا شَاشُم إزكّرا أنا جلجامش
جلجامش إيش تدال
بلْطَم شَا تَسخّورا لاتُتّا

جِنُمـّـا إيلاني إبنو أويليتم
ماتـَـم اشكُونُو أنا أويليتم
بلاطـَـم إنا قاتيشونو إصبطو
أتـا جلجامش لو مِلئي كرشكا
اوري و موشي خِدادو أتـا

ثم نقلها إلى عربية معاصرة هكذا:

قالت السابيتم لجلجامش
ياجلجامش أي شيء تسعى إليه؟
الحياة التي تنشد لن تجدها
حينما خلقت الآلهة البشرية
قدرت الموت على البشرية
وضبطت الحياة بأيديها
وأنت ياجلجامش ليكن كرشك مملوءا
وافرح ليل نهار(36).

*

رغم أن ألواح "أجرت" تم تحديد تاريخها بحدود العام 1400 ق.م. إلا أن ما تحتويه من حكايات أسطورية وتاريخية يرجع إلى أصول أقدم من ذلك بكثير، أي أن تدوينها لا يعني لحظة وجودها. ويمكن تقسيم الجزء الملحمي الشعري من هذه الألواح إلى ثلاث مجموعات؛ المجموعة الأكبر بينها، موضوعها مغامرات ومآثر "بعل" وعلاقاته ببقية الآلهة الكنعانية. وجملة أسماء هؤلاء لم تكن أمرا مفاجئا للباحثين، لأنها أسماء وردت في حكايات وأساطير مناطق عربية أخرى أمثال "آل" و"عشتار" و"يم" و"موت" و"عنات"... وما إلى ذلك.

وتضم المجموعة الثانية ملحمة "كرت" ملك "حبر" وتحتوي على عناصر أسطورية وثيمات تتردد في العديد من الحكايات الشعبية العربية، أما المجموعة الثالثة، فهي حكاية أسطورية عن "اقحت" ابن الملك "دنل"، وتتردد فيها أيضا الكثير من عناصر شائعة في أساطير المنطقة العربية، وتمتلك هذه الأخيرة تكاملا أفضل مما تمتلكه بقية المجموعات، لأن ألواحها سليمة، رغم فقدان اللوح الأخير الذي يأتي على نهاية الملحمة (37).

تبدأ ملحمة "أقحت" الشعرية، التي تصلح عناصرها لإعطاء فكرة عن طبيعة هذه الملاحم، بمشهدِ الملك "دنل" وهو يقدم قربانا للآلهة كي تهبه ولداً، ويتوسط "بعل" لدى أبيه "آل" ليستجيب، فيعد هذا "دنل" بأنه سيحظى بولد، فيبتهج ويدخل على امرأته التي ستحمل وتلد ولداً يخاف أباه ويقوم بكل واجباته الضروية. ثم يبدأ الفصل الثاني بمشهد "دنل" في البيدر وهو يقيم العدل وينصف اليتامى والأرامل. وخلال ذلك يقترب منه غريب يحمل قوساً وسهاماً. فيأمر زوجته بإعداد وليمة للضيف ومرافقيه، وخلال المأدبة يقنعه بأن يمنحه القوس والسهام التي يضعها بعدئذ على ركبتي ابنه.

في المشهد الثالث تظهر "عنات" وقد رأت مهارة "اقحت" ابن الملك باستخدام قوسه، فترغب في امتلاكه، إلا أنه يرفض طلبها، وينصحها أن تبحث عن قوس آخر. فتصر "عنات" وتعده أن تمنحه الخلود إن تخلى عن قوسه، ويرفض "اقحت" طلبها مرة أخرى قائلا، أنها لا يمكن أن تمنح الخلود للإنسان الذي قدره أن يموت، مضيفا، إن القوس هو سلاح الرجل لا المرأة. تغضب "عنات" وتستخدم كائنا يسمى "يتبان" ليحصل لها على القوس، فيتحول هذا إلى نسر يهاجم "اقحت" ويضربه بجناحه ويأخذ قوسه، إلا أن القوس يضيع رغم ذلك، ويموت "اقحت" وتصاب "عنات" بالإحباط وتنتحب بسبب موته، وتعد بإعادته إلى الحياة حتى يمنحها القوس والسهام وتعود الخصوبة إلى الأرض لأن موت "أقحت" كما يبدو تسبب بالجفاف وخراب المحاصيل.

وهنا تظهر شخصية جديدة هي شخصية "بغية" أخت "اقحت"، فقد شاهدت النسور تحوم فوق البيادر، وعلامات الجدب الذي أصاب الأرض، وتطلب من "دنل" أن يفعل شيئا لمواجهة هذا الأمر، وتفشل كل محاولاته، وتحل سبع سنين عجاف. ويأتي الرسلُ بخبر موت "اقحت" فيقسم "دنل" على الانتقام ويتضرع إلى بعل أن يمكنه من اكتشاف النسر الذي التهم جثة ابنه حتى يستعيدها ويدفنها، ويأتي بعل بالنسور واحداً بعد الآخر، إلى أن يكتشف "دنل" بقايا ابنه في بطن أحدها. ويعود "دنل" إلى قصره ويقيم الحداد على ابنه طوال سبع سنوات. وخلال ذلك تسعى "بغية" لتنفيذ خطة الانتقام، وتستخدم "يتبان" لهذا الغرض من دون أن تعرف دوره في موت "أقحت".

ومن الواضح أن الأسطورة يجب أن تنتهي بعودة "اقحت" إلى الحياة، ولكن الأمر غامض لأن بعض ألواح الملحمة مفقود (38).

*

تمتاز الشعرية الأجرتية بعدة سمات أسلوبية، أهمها سمة التوازي التي هي سمة عامة في شعر الشعوب العربية القديمة. ويتضمن التوازي بين سطر وآخر تطابق عناصر تركيبية معينة. وهناك نوعان من التوازي، المباشر والحر. والأخير يتمتع بحرية في وضع العناصر المتوازية. إلا أن هذه السمة لا تستمر طويلا مع الخروج من الشعر الغنائي إلى الشعر الملحمي، حيث يختفي التكرار والتوازي، وتبدو المقاطع قريبة من لغة الحياة اليومية (39). ولأن أمثال هذه الملاحم كان يرتبط بأداء وظيفة اجتماعية، نجده يتوفر على الصفات الثابتة التي لا تتغير. صفات الأشياء والأبطال والمشاعر، فالصفات الشخصية غير الثابتة النابعة من تجربة الراوي لا تهم المستمعين كثيراً، إن ما يهمهم هو التجربة الاجتماعية الموروثة جيلا بعد جيل. ويمكن القول أن (القوالبية) تكاد تكون سمة عامة في هذا الشعر، فنجد أن الشاعر يستخرج التركيبات من مخزون ذاكرته، مما يجعل الأحاديث والعواطف موحدة متشابهة كما نلمس في الشعر العربي الجاهلي. ومع ذلك لا يخلو الأمر من إبراز الطوابع الخاصة بكل شخصية على حدة. ويشغل وصف الطبيعة جانباً أساسياً من أسلوبية هذه الشعرية، حيث نجد الطبيعة أو بعض عناصرها، تشارك مشاركة فعالة في شؤون البشر انطلاقا من فكرة أساسية عن ترابط الظواهر، أو وحدة العوالم في الفكر القديم.

4

كلما تأملتُ الأبجدية اليونانية أو الأبجدية السلافية المعاصرة المشتقة منها، تداعت إلى الذهن تلقائيا صور أبجدية المسند التي كانت شائعة في الجزيرة العربية منذ أزمنة قديمة (الألف الأول أو

الثاني ق.م. على أبعد تقدير). وظلت حتى وقت قريب بحدود القرن العاشر الميلادي معروفة ومقروءة حسب رواية "الهمداني"(40). سبب التداعي بالطبع هو تماثل رسم عدد كبير من الحروف مثل الباء والجيم والدال والعين والنون والواو.. وهي الأكثر وضوحاً، بين هذه الأبجديات.

وتحضر في الذهن أيضا الأبجدية الكنعانية التي لا تُخفى قرابتها مع أبجدية المسند أمام عين الخبير، تلك التي تواتر منذ زمن بعيد خبر انتقالها إلى أرض اليونان، فكان هذا التماثل يرسم خطاً متصلا من التبادل البشري والتجاري والثقافي يبدأ من الجزيرة العربية (عقدة مواصلات العالم القديم) ويصل إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط شرقا وشمالا وجنوبا.

في مطلع القرن العشرين اكتشف عالم المصريات "فلندرز بيتري" حروفا أبجدية في منطقة سرابيط الخادم في سيناء على تمثال حجري، أعتبرت آنذاك حلقة وسيطة بين أبجدية جنوبي الجزيرة العربية وأبجدية الكنعانيين الشمالية، وأرجع "البرايت" الذي قام بزيارة الموقع هذه النقوش إلى العام 1500 ق.م.

ويعتقد "ويندل فيلبس" الذي كان أول من قام بتنقيبات منظمة في حضرموت ومأرب، أن أبجدية المسند ربما استعيرت من الألفباء الكنعانية التي كانت شائعة في سوريا الكبرى في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.(41). ومهما يكن من أمر هذا الموضوع الدقيق الذي يحتاج إلى تنقيبات أوسع لم تحدث لسوء الحظ في جنوبي الجزيرة، فإن الواضح هو وجود صلة أبجدية بين المسند الجزيري والكنعاني الشمالي فاليونانية، مما يعكس الصلات القديمة التي قامت على امتداد خط تجاري يخترق الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال منذ أبعد الازمنة.

قبل اكتشاف نقوش الخط المسند لم تكن مصادر تاريخ الجزيرة العربية تتجاوز المرويات الأسطورية، وشيئا من الشعر والأخبار المتفرقة، أما بعد اكتشاف هذه النقوش بدءا من القرن التاسع عشر فقد أصبحت بين أيدي الباحثين مادة ثمينة وموثوقة، وكانت حصيلة السعي الأثري الذي تكثف منذ الثلاثينات على يد بعثات عربية وأجنبية، نشر ما يقارب عشرة آلاف نقش عثر عليها على صخور الجبال أو حجارة المباني أو المنحوتات.

لغة النقوش تتوزعها أربع لهجات؛ لهجة سبأ ومعين وقطبان وحضرموت. وترجع كلها إلى لسان واحد هو اللسان العربي. ويعتبر الخط الذي كتبت به فرعا من ما يسميها العلماء الغربيون حتى الآن الخطوط السامية الجنوبية، وله شيء من العلاقة بالخط الحبشي من جهة، وبالخطوط المتداولة في أواسط الجزيرة العربية وشمالها من جهة أخرى قبل الإسلام. وقد أطلق عليه علماء

المسلمين اسم الخط المسند، وفيه 29 حرفا أبجديا، تكتب خالية من الألف والياء والواو، وأحيانا اذا كانت إحداهما ساكنة، فيجوز تركها أو إثباتها (42).

أما عن موضوعات هذه النقوش، فيمكن تقسيمها على أربعة مجالات:

الأول: مجال تنظيم الحياة العامة، وهي نصوص تشمل المراسيم التي يصدرها الملك أو القبيلة أو المعبد والتي تعالج موضوعات مختلفة مثل، أنظمة السوق، وتوزيع أو استثمار الأرض ونظم الري ودخول المعبد واستعمال بركة جماعية.

الثاني: النصوص الدينية، وهي الأكبر عددا، وأكثرها أهمية نقوش الهبات والقرابين والاعترافات العلنية ونصوص الاحتفالات التذكارية بإتمام بعض الطقوس كالصيد الشعائري، وتنصيب عاهل جديد. وهنالك موضوع الشعر، حيث وصلت إلى أيدي الباحثين قصيدة ذات طبيعة دينية، ويلحق بهذه النصوص التذكارية النصب الجنائزية وشواهد القبور.

الثالث: نصوص متعلقة بالممتلكات، وهي تتعلق بالدرجة الأولى بمناسبة إقامة منشآت وتوسيعها، وتحدد في الوقت نفسه حقوق الأشخاص فيها، والغالب منها يتعلق بممتلكات قبيلة، وقد تكون مساكن وملحقاتها أو آبارا وسدودا وقنوات أو إقامة أعمال زراعية.

الرابع: نصوص تذكارية تمجد الشخصيات المهمة لقيامها بأعمال كبيرة(43).

وقد بذل عدد من العرب منذ أوائل القرن العشرين جهدا للتعرف على الجزيرة العربية، جزيرتهم، فأرسلت مصر في العام 1936 بعثة ذات اهتمامات علمية متعددة برئاسة الجغرافي سليمان أحمد حزين، وعضوية عالم النقوش خليل يحيى نامي، وكانت حصيلة عملها 91 نقشاً جاءت بعد تنقيبات سريعة وسطحية في قاعدة معبد تألب أوام بعل حدثان. وقام عالم الحشرات محمد توفيق برحلة إلى اليمن في العام 1944 والعام 1945 واستنسخ عدداً من النقوش التي نشرت فيما بعد. الأكثر أهمية كانت رحلة عالم الآثار المصري أحمد فخري الذي زار مأرب والجوف في العام 1947 وعاد بصور 136 نقشا(44).

ومن المساهمات في دراسة الخط المسند، دراسة الدكتور محمود علي الغول، "اللغات اليمنية القديمة والعربية الفصحى" ومساهمته في تأليف المعجم السبأي، وما عثر عليه من نقوش خلال زياراته العديدة لليمن، ودراسة حول لغات النقوش المسندية القديمة ونحوها وتصريفها للأستاذ الفريد بيستون، وعدد كبير من صورالنقوش يصل إلى 122 نقشاً. من بين هذه النقوش يلفت النظر نقش معيني مكتشف في جزيرة ديلوس اليونانية في بحر إيجه، محفور على مذبح

أسطواني، ومصحوب بإهداء باللغة اليونانية ينص على أن هذا المذبح مقدم إلى ود إله المعينيين. وبالفعل فإن النص بالخط المسند يشير إلى زيد آل ذي خاذب الذي نصب المذبح لود(45).

ولا يمكن القول أن دراسات الخط المسند وصلت إلى اكتمال من نوع ما في ظل تشتت النقوش التي توزعت بين عدة أقطار غربية، وفي ظل الفرضية الأساسية التي ينطلق منها البحث الغربي باعتبار لهجات المسند لغات، واعتبار هذه اللغات مستقلة عن اللسان العربي، وهو ما يفرض على الباحثين العرب إعادة قراءة النقوش التي ظهرت طيلة المراحل الماضية.

*

هنالك كلمة غير مألوفة في المعاجم هي "دثأ" ترد في المراجع اللغوية الأساسية بوصفها صيغة النسب (د ث ء ي). عن هذه الكلمة يقول "لسان العرب" لابن منظور، أنها تعني نتاج الغنم في الصيف والمطر الذي يجيء إذا قاءت الأرض الكمأة وبعد اشتداد الحر، وكذلك الأمر في "تاج العروس". هل هي كلمة صيغت بصيغة النسب أو أنها نسب بالأحرى؟!

إذا عدنا إلى نقوش المسند، كما يوضح الباحث "مطهر علي الإرياني" نجد أن الأصل هو كلمة "دثأ" أي الصيف بلغة المسند حيث فصول السنة من الصيف إلى الخريف تأتي هكذا "دثأ وخريف وسعسع وملي". والدثأ هو الموسم المطير في الصيف، وتعني الأمطار الغزيرة في "بارق الدثأ" موسم السفر في الصيف، والدثأ أو ذو دثأ هو اسم لأحد شهور الصيف(46).

ماالذي يعنيه هذا؟

هذه الكلمة هي واحدة من مئات الكلمات العربية التي لم تدخل المعاجم العربية، لا بدلالتها الأصلية، ولا بصيغها المختلفة، وبعضها سقط تماماً ولم نعرف به حين تم تدوين المعاجم وفق منهج لم يقم وزناً لمفردات المناطق العربية الحضارية، ولم يعتن باستقصاء اللهجات العربية القديمة في مناطق أبعد من الصحراء.

هذا المنهج الذي اعتبر اللغة العربية هي لغة البداوة نشأة وجذوراً، هو الذي أسقط من المعجم ألفاظا تعامل بها عرب مناطق الاستقرار والتمدن.

وقد أدى هذا المنهج إلى تحريف عدد من النصوص التي دونت بعد مئة عام من قولها. ومثل ذلك ما يورده "الإرياني" حول رسائل النبي محمد صلى ا عليه وسلم إلى أهل اليمن. فقد جاء فيها

توصية تتعلق بالزكاة، فيورد المدونون الذين جهلوا مفردات الزراعة وما إليها بعد مئة عام أنه قال "لهم فراغها ووهاطها وعزازها، يأكلون علافها ويرعون عافيها، ولنا من دفئهم وصرامهم.. إلخ". وموضع التحريف هو "علافها" و"دفئهم" و"صرامهم". إذ أن "العلاف" هو قرون الطلح، وهو علف معروف للبهائم، ولا يعقل أن يترك للمزارعين ليأكلوه، بل المقصود "علاتها" الواردة في نقوش المسند، وتسمى اليوم "المعلاة" وتعني ما يزرع من الحبوب في المناطق العالية. أما "الدفيء" فهو منتجات الغنم، وهذه لا تطالها الزكاة، لأن زكاة الحيوان لا تقع على نتاجها ولا ألبانها، والإشارة هنا هي إلى زكاة الحبوب "دثئهم". وكذلك الأمر مع كلمة "صرامهم" فهي في نقوش المسند نسبة إلى "الصراب" أي الحصاد، والكلمة الأصلية لا شك أنها "صرابهم" أي حصادهم. وكل هذه كلمات لاتزال حية على الألسن في اليمن حتى اليوم، وهو ما ينسجم مع معاني ومقاصد رسالة الرسول الذي كان يعرف عن ماذا يتحدث بالتأكيد (47).

وقد تعرضت كلمة "شعب" لما تعرضت له دلالة الكلمات الأخرى من ضياع لمعانيها ودلالتها الحقيقة، ولايزال هناك من يعتبر أن كلمة "شعب" لا دلالة لها في التاريخ العربي، بل هي متعلقة بتاريخ الشعوب الأخرى. وأن اللفظة العربية "قبيلة" هي اللفظة الدالة على النظم الاجتماعية في الجزيرة العربية، إلى درجة أن الباحثين الأجانب حين صادفوا لفظة "شعب" في نقوش المسند ترجموها إلى لفظة "قبيلة" "Tribe" بدلا من كلمة (people) التي هي الأحق بها. والواقع أن كلمة "شعب" واردة في النقوش العربية القديمة، وبخاصة الجنوبية، وتدل على مستوى معين من التطور والحياة الحضرية، بينما كانت كلمة "قبيلة" ذات المنشأ الشمالي تدل على مستوى آخر من مستويات النظم الإجتماعية.

المعاجم لم تسقط الكثير من أمثال هذه الألفاظ فقط، بل أن واضعي المعاجم وصفوا الكثير من الكلمات العربية الأصيلة بأنها إما من "الدخيل" وإما من "المعرب" وذلك وفق منهجهم المشار إليه أعلاه. لاشك أن اللغويين القدماء قاموا بجهود كبيرة وجبارة، ولكن هذا لا يعني خلو أعمالهم من النقص، سواء لجهة إسقاط مفردات المناطق الحضارية أو لاعتبار العربي الأصيل دخيلا.

والغريب أن عدداً من المفردات العربية القديمة اقتبستها لغات أخرى كالفارسية واليونانية ثم عادت إلى العربية فوضعت تحت باب "الدخيل" أو "المعرب". هذا الأمر الأخير لم يكن ممكنا اكتشافه إلا في ضوء مكتشفات القرن التاسع عشر وتقدم دراسة اللغات القديمة، وهو ما يفرض بالطبع إعادة النظر في مسائل الدخيل والمعرب مجدداً، وإرجاع المفردات إلى أصولها العربية كما طالب د. طه باقر منذ زمن طويل (48).

على أن أهم نقص في المعاجم العربية يقع في جانبين، الأول هو إهمال متابعة تطور معاني المفردات عبر التاريخ والمعاني الاصطلاحية للمفردات كما هي مستخدمة في عدة حقول، أو ضيق مجال الاصطلاح وحصره بما كان ذات يوم وتوقف عنده، والثاني أن هذه المعاجم حتى الآن ليست حية بالمعنى الذي يمثله المعجم المعاصر الذي يسعى اللغويون إلى إضافة ألفاظ مستجدة إليه. بل أن القاعدة تكاد تكون العكس، وهو أن الدارج على ألسنة الناس لا يؤخذ به عادة ولا يضم إلى المعجم! ولهذا نجد الكثير من المفردات الحية موجود خارج المعجم، والكثير من الكلام المهجور لا يوجد إلا في المعجم.

إشارات

1- من أبرز الدراسات الحديثة التي تناولت هذا الموضوع باستفاضة دراسة د.علي فهمي خشيم المنشورة في مجلدين تحت عنوان "آلهة مصر العربية". فقد اكتشف بالمصادفة أن"كتاب الموتى" الفرعوني يحتوي على كلمات عربية تتعلق بالتسبيح والدعاء ويوم الحساب، فقرر دراسة هذه اللغة التي كتبت بالحروف الهيروغليفية، وقضى أكثر من ثلاث سنوات في تتبع المصادر والمراجع المتعلقة باللغة المصرية القديمة، وتوصل بعدها إلى أن اللغة المصرية ليست إلا فرعا من اللغة العروبية الأم، وأن لها أوثق الصلات بالعربية في قديمها وحديثها. أنظر: "د. علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص11".

وقبل ذلك بسنوات أورد د. فيليب حتي ملحوظة عابرة حول علاقة العربية بالمصرية القديمة وإن كان مصطلح "السامية" هوالذي استخدمه جرياً على عادة علماء الغرب الذي وضعوا هذه التسمية المصطنعة. يقول "حتي": "إن اللغة المصرية القديمة مشتقة من السامية وبالأخص من الكنعانية.. وقد جاء المهاجرون الساميون الأوائل إلى مصر من سوريا وأدخلوا معهم القمح وزراعة الكرم"، في محاولة منه لتفسير وجود هذه الكلمات العربية وغيرها، لفظاً ومعنى، في المصرية القديمة.

أنظر: "فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982، طبعة ثالثة، ص16".

وكان "سيريل آلدريد" قد ربط، مستخدماً أيضا مصطلح "السامية" بدل العربية، ظهور الكتابة الهيروغليفية في مصر بظهور لغة التخاطب ذات المكونات السامية: "تزامن ظهور الكتابة في مصرمع الفترة التي قويت فيها لغة الكلام ذات العناصر والمكونات السامية على حساب اللغة ذات العناصر والمكونات الحامية والبربرية. ومن المحتمل أن هاتين الظاهرتين، ظهور الكتابة وتغلب اللغة ذات العناصر السامية، رافقت كل واحدة منهما الأخرى. وقد تغلبت اللغة ذات الخصائص السامية نظرا إلى أن طريقة الكتابة والتدوين ابتكرت في الأصل لتسجيل الطريقة السامية في النطق والكلام". أنظر: "سيريل آلدريد، الحضارة المصرية القديمة: من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة وتحقيق مختار السويفي، مراجعة وتقديم د. أحمد قدري، الدار العربية اللبنانية، بيروت، 1989، ص65".

2- جاء في باب حروف المسند من كتاب "الإكليل": "وإنما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتّاب، وكانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط الحرف مثل ألف همدان وألف رئام، فيكتبون رئم وهمدن، ويثبتون ضمة آخرالحروف واواً (عليهمو)". انظر: "أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، كتاب الإكليل، الجزء الثامن، في محافد اليمن ومساندها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات، تحقيق محمد بن علي الأكوع بن الحسين الحوالي، منشورات المدينة، بيروت، 1986، ص196".

3- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، طبعة ثانية، 1986، ص358.

4- Harreit Crawford,op.cit.p.10

5- طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم: ما يسمى في العربية بالدخيل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1980، ص.20.

6- عن اكتشاف هذه الأبجدية تحدث الباحث صاموئيل هنري هوك، فذكر أنه "بين العدد الكبير من الألواح المكتشفة في رأس شمرة، كانت هناك مجموعة مكتوبة بخط بدا أنه مسماري، ولكنه لم يكن مألوفا لدى خبراء الخط المسماري. وأوحت قلة عدد العلامات المستخدمة في الكتابة، أنها قد تكون كتابة أبجدية، وبالفعل سرعان ما تبين أن هذا الظن كان صحيحاً، وثبت أن الألواح موضوع البحث كُتبت بأبجدية تتكون من 28 حرفاً، وبلغة لم تكن معروفة آنذاك. أما الآن فقد ظهر أن هذه اللغة التي أصبحت تعرف باسم "الأوغاريتية" تنتمي إلى المجموعة السامية، وأن صلتها وثيقة

بالعربية والآرامية والعبرية. وفي ضوء الإشارات المرجعية في الألواح صار من الممكن إرجاع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م.". أنظر:

S.H.Hooke, Middle Eastern Mythology, Penguin Books, London, 1976,p.19

وانظر أيضاً:

رأس الشمرة، تقرير البعثة الفرنسية المنقبة، ترجمة فهمي الدالاتي، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، 1980، ص.74

7- ملف الندوة العالمية للدراسات الأوغاريتية، مجلة التراث العربي، عدد نوفمبر 1979، أوراق جون هيلي من جامعة ويلز البريطانية، ولؤي عجان وجبرائيل سعادة وعلي أبو عساف، ص50-51. وتلفت النظر ملحوظات الباحث أبوعساف على نهج المهتمين بدراسات اللغات الشرقية حيث يقول: "إن معظم هؤلاء العلماء قللوا من استشهادهم بمفردات اللغة العربية وقواعدها حين يدرسون نصا أوغاريتياً أو آرامياً، واكتفوا في غالب الأحيان بإيراد مرادفات عربية لكلمات واضحة المعنى، وتجنبوا نهائياً مقارنة أي كلمة ذات معنى غامض مع الكلمات العربية. ومرد ذلك صعوبة الإمساك بمفردات الكلمات العربية وقواعدها المخزونة في قواميس كبيرة. اللغة العربية ليست إلا المرحلة النهائية التي تطورت إليها لغات بلادنا القديمة التي وصلت إلينا مكتوبة بالخط المسماري أو بالحروف الأبجدية. إن لغتنا العربية هي وريثة تلك اللهجات بكل ما في الكلمة من معنى، ولدينا لهجات نسميها عامية تعود في أصولها إلى تلك اللهجات القديمة من أكادية وكنعانية وآرامية ويمانية".

وتتعزز صحة هذه الملحوظات النقدية التي قيلت في سبعينات القرن الماضي مع كل إعادة قراءة للترجمات الغربية الشائعة، ومع كل كشف جديد عن أخطاء في قراءات وترجمات لغاتنا القديمة، وعن انحرافات منهجية، لم يكن أقلها سوء استعمال الباحثين الأوائل حول اليمن القديم الحروف العبرية لنسخ الحروف اليمنية القديمة، أي ما يعرف بحروف الخط المسند. أنظر: "د.محمد عبد القادر بافقيه وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985، ص120".

8- د. عبد اللطيف البرغوثي، التراث الشعبي الفلسطيني: جذوره وخصائصه، من أبحاث كتاب "التراث الفلسطيني: جذور وتحديات" إعداد عبد العزيز أبو هدبا، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، فلسطين، 1991، الطبعة الأولى، ص31.

9- كان العالم الايطالي جيوفاني غاربيني من النقاد الأوائل الذين نبهوا إلى خطأ اعتماد التصويت العبري في تحريك صوامت اللغات "السامية" القديمة. وقد أكد المستشرق الألماني د. فرنر داوم

في حوار لي معه على هذه النقطة حين ذكرته برأي غاربيني، فقال "أن غاربيني من الباحثين البارزين في هذا الميدان، وهو قال هذا فعلا. والحق معك، قد يكون في الأمر تعسف وخطأ". أنظر: "فيرنر داوم ومحمد الأسعد، وجها لوجه، مجلة "العربي"، الكويت، عدد 546، مايو 2004، ص 74

10- تقدم كتابات الأمريكي "ويندل فيلبس" الذي ترأس بعثة تنقيب عن آثار اليمن القديمة بين العامين 1951-1952، مثالا خالصاً لما يمكن أن تفعله نزعة رؤية العالم من منظار المرويات التوراتية. فقد قرأ هذا، ومعه عضو البعثة "البرايت" الذي يعده "واحداً من أكبر علماء اللغات في العالم الذي يتكلم خمسا وعشرين لغة"، النقوش اليمانية القديمة كما لو أنها كتابات توراتية، ليس بتحريك صوامتها وفق قواعد العبرية فقط، بل وبنسبة أسماء الأعلام والأماكن فيها إلى أماكن وشخصيات توراتية. أنظر: "ويندل فيلبس، كنوز مدينة بلقيس: قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن، تعريب عمر الديراوي، دار الكلمة، صنعاء، 1985، ص120.

11- في معرض ذكره لنتائج استحواذ الأوروبيين على الدراسات المصرية، يحدد د. علي فهمي خشيم نتيجتين قادت الأولى إلى قراءة مقلوبة للهيروغليفية، والثانية إلى إبعادها عن أسرة اللغات العربية التي تنتمي إليها: "في مجال دراستهم للغة المصرية وفكهم رموز الهيروغليفية، وجهوها وجهة تتفق مع نمط كتابتهم وأصوات لغاتهم، فكان أن قلبوا أشكال هذه الرموز وعكسوها صورة وكتابة. فالرموز الهيروغليفية تمضي عادة من اليمين إلى اليسار، وأحيانا من أعلى إلى أسفل، فكان لابد لكي تسهل قراءتها من أن يعدلوا مسار الكتابة لتصبح من اليسار إلى اليمين، وتبع هذا عكس الرموز بالطبع. نحن إذن نقرأ الهيروغليفية مقلوبة، كما نقرأ التاريخ مقلوبا أيضا هو الآخر.

أما النتيجة الثانية فجاءت في مجال نقل الرموز الهيروغليفية حرفيا إلى الحروف اللاتينية. إذ من المعلوم أن المصرية تحتوي على أصوات لاتوجد في اللغات الأوروبية، مثل العين والحاء والخاء والقاف، مما لامقابل له في الألفباء اللاتينية، فكان كل باحث منهم يستنبط رمزا من اللاتينية يضيف تحته نقطة أو خطاً يشير إلى الصوت المعني. ومن هنا جاء الاختلاف في العلامات. ومضوا أبعد، فافترضوا أن المصرية لاتحتوي على أصوات نجدها في العربية مثل الضاد والطاء، فوضعوا بدلا منها الدال والتاء. ودرجت القراءات على هذه الصورة حتى رسخت، وهي قد لاتكون كذلك. وزادوا على ذلك بأن افترضوا تحريكا للصوامت، إذ المصرية كبقية أسرة اللغات العربية تعتمد الصوامت، وأكثروا من الصائت "إيي"، مساوقة للغات الأوروبية من دون

دليل على وجود هذا الصوت في المصرية، فيحركون Kmt (وهو اسم لمصر) مثلا ليقرأ K e m e t، ولم أجد من قرأه K a m t اتساقا مع العربية". أنظر: د.علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، ص9.

12- هـ. أ. ميديكو، التوراة الكنعانية من خلال النصوص المكتشفة في رأس شمرة، ترجمة جهاد هواش وعبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1988، الصفحات 31، 32، 33.

ومن الذين انتبهوا إلى الهوة الواسعة بين ترجمة وأخرى، كان صوموئيل هنري هوك، فأشار في كتابه إلى نصوص "أجرت" التي كتبت كلماتها من دون حروف علة، وقال "رغم أن اللغة سامية بوضوح إلا أنها لاتزال غير مفهومة فهماً تاماً، والكثير منها لايزال مبهماً. وهناك خلافات كبيرة بين الباحثين في الترجمة والتأويل على حد سواء. ومع أنه تم الوصول إلى جوانب اتفاق إلا أن الشقة بين الترجمات كانت واسعة، وخاصة إذا قارنا ترجمات "فيروليو" بالترجمات الأقرب عهدا لأمثال "جنسبرغ" و"جاستير" و"جوردون". انظر:

S. H.Hooke,op.cit.pp.80-81

13- هـ. أ. ديل ميديكو، الصفحات 36-41. ونُقل جزء من ترجمات كتابه هذا إلى العربية ونشر تحت عنوان "اللآليء: من النصوص الكنعانية"، ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ثانية، بيروت، 1989. الجدير بالذكر أن هذه النصوص نفسها سيأتي الباحث أ. ش. شيفمان بعد عدة عقود فيصفها كما يلي: "من الواضح أن نصوص بعض الروايات الشعرية المعروفة في عدد من الألواح قد نسخت عن الأصل نفسه. وفي بعض الحالات الأخرى وصلتنا بعض المقاطع المكتوبة التي لايربطها، من حيث المظهر، أي رابط. ويبدو جليا أنها تنتسب إلى أساطير مختلفة لكنها سجلت على لوح واحد، وهذه على الأرجح تمارين طلابية تلخصت في نسخ النصوص أو في كتابتها كإملاء". أنظر: "أ. ش. شيفمان، ثقافة أوغاريت، الأبجدية للنشر، دمشق، 1988، ص56".

14- عرض د. أحمد فخري تحليل ب. لوريه لاسم "حورس" وأصله في كتابه "دراسات في تاريخ الشرق القديم" في الصفحات من 139 إلى 141. وقد أشار د. علي فهمي خشيم في كتابه "آلهة مصر العربية، الجزء الأول" (ص 375) إلى هذا التحليل إلا أنه نسبه إلى د. فخري بدل أن ينسبه إلى صاحبه الفرنسي.

15- برناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، مصري/عربي، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1984.

16- طه باقر، ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1980، ص5

17- أُخذة كش، أقدم نص أدبي في العالم، تقديم وتحقيق ألبير فريد هنري نقاش و حسني زينة، مكتبة لسان المشرق، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، .1989

18- المرجع السابق، ص8

19- المرجع السابق، ص11-12

20- علي القيم، امبراطورية إبلا، الأبجدية للنشر، دمشق، 1989، ص31

21- المرجع السابق، ص101

22- رد من مارك باريتي: أساس الأبجدية ليس عربيا، صحيفة "القبس"، الكويت، 6/12/ 1997، العدد 8610، ص 29. جاء رد باريتي هذا، والذي كان قائماً بأعمال السفارة الفرنسية في الكويت آنذاك، على مقال لنا بعنوان "مهما تعددت المصطلحات والأهواء أصل الأبجدية عربي" (القبس، 1997/5/29)، انتقدنا فيه استخدامه لمصطلحات القرن التاسع عشر وتسمية لغات وشعوب المنطقة بأسماء يونانية ورومانية، فينيقية تارة وبونقية تارة أخرى، وإغفال أن الحديث يدور هنا عن أبجدية ابتكرها الكنعانيون العرب، وعن لغات أسرة لغوية واحدة تعددت لهجات الناطقين بها. وكانت الحجة التي استخدمها في إنكاره لعروبة الأبجدية واللهجات التي يطلق عليها علماء الغرب ومن والاهم بإصرار عجيب اسم "لغات سامية"، هي "أن أقدم الأبجديات التي تم التعرف عليها (الأوغاريتية والفينيقية) أُكتشفت في ما يعرف حاليا بلبنان وسوريا، ومن الناحية الجغرافية لا تنتمي هذه الأمكنة للجزيرة العربية بحصر المعنى، ومن الناحية اللغوية لم تكن الشعوب التي عاشت فيها تتكلم العربية وإنما لغة تنتمي إلى مجموعة السامية الغربية". وللرد على قولنا بعربية اللهجات، خلط باريتي بين إتقان أبجدية ما وإتقان لغة، وزعم، وهو محق، أن "الأبجديات غير متطابقة، والشخص الذي يتقن الأبجدية العربية دون سواها لايتمكن من قراءة نص سرياني أو نبطي ناهيك عن فهمه"، ولكنه لم يكن محقا في هذا الخلط بين هوية اللغة وأبجديتها، لأن عبارة "ما له ولي" مثلا يختلف رسمها بين الخط السرياني والعربي، ولكن نطقها واحد، ومعناها واحد. ولاتنتفي صفة اللغة التركية مثلا عن لغة ذلك التركي الذي تعلم أن يقرأ لغته بالأبجدية العربية قبل أن تتحول دولته إلى كتابتها بالأبجدية اللاتينية التي لايمكنه قراءتها. على أن أعجب ما جاء به هذا المستشرق هو صمته عن تحديدنا العربي للجزيرة العربية المحاطة بالماء من كل أطرافها كما عرفها العرب وكما عاش فيها العرب على مر التاريخ (تحديد أبو الحسن الهمداني وابن حوقل

وبقية الجغرافيين العرب)، وإصراره، رغم تسليمه بأن الكنعانيين هم من ابتكر الأبجدية، وأنهم يرجعون في أصلهم إلى الجزيرة العربية، على أنهم "ليسوا عربا"! (تعقيب من مارك باريتي: صفة العربية تشكل التباسا، ويجب أن تحظى بموافقة المجتمع العلمي بأسره، القبس، 1997/7/3، العدد 8631، ص10).

23- علي القيم، إمبراطورية إبلا، ص.101

24- المرجع السابق، ص.42

25- المرجع السابق، ص.101

26- Kamal Salibi,op.cit.p.26

27- علي القيم،إمبراطورية إبلا، ص.101

28- المرجع السابق، ص.103

29- W. F. Albright, Recent Progress,op.cit. p.20
30- Ibid.p.21
31- Ibid.p.21
32- Kamal Salibi,op.cit.p.70

33- في مسألة تصويت هذا الإسم المكتوب في الأصل بهذه الحروف الأربعة، والذي جرت عادة التصويت الغربية على تصويته هكذا Ougarit، وينقل إلى العربية محافظا على هذا التحريف، نميل إلى اعتماد ما جرى عليه ألبير نقاش وحسني زينة حيث ذكرا أنهما "يعرفان من النصوص المكتوبة بالأبجدية أن اسم هذه المدينة كان يكتب أُ. ج. ر. ت، ومن النصوص المكتوبة بالمقطعية الصوتية أن الاسم كان يحرك كما يلي: أُجرِت. ولهذا كتبنا اسم هذه المدينة "أُجرت". أنظر: ألبير نقاش وحسني زينة، أُخذة كش، ص.12.

34- د. عبد اللطيف البرغوثي، التراث الشعبي الفلسطيني، ص.31

35- S.H.Hooke,op.cit.p.80

36- طه باقر، ملحمة كلكامش، الصفحتان 33، 34.

37- S.H.Hooke,op.cit.p.80
38- Ibid.p.89

39- أ. ش. شيفمان، ثقافة أوغاريت، ص.56

40- الهمداني، الأكليل، الجزء الثامن، ص196.

41- ويندل فيلبس، كنوز مدينة بلقيس، ص49-50.

42- د. محمد عبد القادر بافقيه، مختارات من النقوش اليمنية، ص.68

43- المرجع السابق، ص.99

44- المرجع السابق، ص110-.111

45- المرجع السابق، ص.296

46- مطهر علي الإيرياني، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، 1990، ص.312

47- المرجع السابق، ص.313

48- طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم، ص6-7.

الفصل السادس

ميلاد تاريخ فلسطين القديمة

كثيرا ما يوصف الاستشراق بأنه بنية أقيمت على عنصري القوة والهيمنة المعرفية. وبسلطة هذين العنصرين فرض الغرب نوعاً من التحليل والتركيب على جسد الشرق وأنشأه إنشاء. فما عاد شرقاً بالمعنى الذي يقصده الإنسان حين يشير إلى موضوع خارجي بالنسبة له، بل أصبح شرقاً بالمعنى الداخلي البحت، أي أنه شرق الغرب تحديداً، صنعه من أجله، وليس شرق أبناء الشرق ومن أجلهم.

الكثيرون بالطبع اعتبروا هذا الإنشاء تشويهاً، ويطالبون بشيء من العدالة. ولكن لو كانت الأمور تجري في سياق نقاش حول الظلم والعدل لكان من الممكن أن نتوقع إصغاء إلى أصوات العدالة، وأن يتنازل الغرب عن "تمثيله" لنا، أو عن "محونا" حيث يتخطى الاستشراق تمثيل "الآخر" إلى محاولة محوه كما يحدث في تعامله مع الفلسطيني ووطنه. إلا أن الأمر ليس كذلك. الأمر مرتبط باستراتيجيات الهيمنة الثقافية، وهي استراتيجيات يهيمن عليها منطق القوة حتى هذه اللحظة، وليست خاصة بمنطقة واحدة بل تمتد حيثما امتد التوسع الاستعماري.

تتحدث الباحثة النيوزيلندية "ليندا تيهوووائي" عن المنخرطين في بحث قضايا سكان الأرض الأصليين المطالبين بالأرض، أو باستعادة حقوقهم ورواياتهم وأسمائهم، معتقدين أن هذه الحقوق بينة بحد ذاتها، ومفترضين أنه "حين تظهر الحقيقة"، ستكون برهانا كافيا على أن ماحدث كان خطأ أو غير شرعي، وعندها فإن المحاكم والهيئات الدولية وغير الدولية ستصحح الأمور. ويؤمن أصحاب هذا النهج بأن التاريخ موضوعه العدالة أيضا، وأن فهمه سيلقي الضوء على قراراتنا المتعلقة بالمستقبل. وتعلق الكاتبة ".. هذا تفكير خطأ، لأن التاريخ في الغالب الأعم موضوعه

القوة أيضا. إنه رواية الأقوياء، وكيف امتلكوا القوة، وكيف يستخدمون هذه القوة للبقاء في مواقع تمكنهم من مواصلة الهيمنة على الآخرين. وبسبب هذه العلاقة بالقوة يتم إقصاء الشعوب المستعمرة وتهميشها، وتصبح "آخرين". التاريخ، بهذا المعنى، ليس مهما بالنسبة لهذه الشعوب، لأن ألف رواية عن "الحقيقة" لن تغير حقيقة أنها لاتزال مهمشة ولاتمتلك القوة على تحويل التاريخ إلى مدار العدالة"، ومع ذلك، كما تعبر الكاتبة، فإن "إعادة زيارة التاريخ جزء مهم من عملية تصفية الاستعمار. كيف؟ الجواب يكمن في تقاطع ثلاثة عناصر؛ نهج هذه الشعوب تجاه ماضيها، ونهجها تجاه مشروع التاريخ المعاصر ذاته، ونهجها تجاه استراتيجيات المقاومة المستخدمة"(1).

يضاف إلى هذا، أنه ليس هناك إنشاء، وينطبق هذا بصفة خاصة على الخطاب الاستشراقي، يخلو من وجهة نظر، من افتراضات مسبقة، من توقعات، من فهم مسبق لما يقوم هذا الإنشاء بتمثيله حتى وإن كان أثراً مادياً استخلصه المنقبون من أعماق الأرض أو الماضي. كل هذه الآليات لصناعة خطاب إنما هي وليدة منظور ثقافي بأسسه المعرفية واتجاهات الأشخاص الذين تولدهم ثقافة.

يقول الكاتب الأمريكي لورنس ديفيدسون "في حقل علم الآثار كما في الكثير من جوانب حياتنا، الحقيقة موجودة في عيني ذلك الذي ينظر، أو هي، إن كان موضوعنا علم الآثار، في عين الثقافة التي تنتج عالم الآثار.. ويعبر مايكل شانكس عن هذه الفكرة بالصيغة التالية؛ نحن لانصل إلى الماضي بمجرد الحفر عميقاً، فالفهم يتضمن الإسقاط. ولدينا توقعاتنا، ولدينا دائما فهم مسبق لما نعثر عليه"(2). بعبارة مختصرة، لدينا "رؤيا" و"إحساس" بهدف. وحين تسود الرؤيا ويتغلب الإحساس لايسمح بأن تتغير مجريات التاريخ، إنه حكاية حدثت مرة واحدة وإلى الأبد، ولا تضيف إليها خبراتنا البشرية ولا المكتشفات الجديدة منظوراً جديداً، أو لا تعود هناك حاجة للخبرات والمزيد من المكتشفات خارج حدود توسيع "الرؤيا". فإن لم تعزز المكتشفاتُ والتجارب الجديدة "رؤانا" أتهمناها بالخطأ. وهذا هو بالضبط ما يمثله عملُ الأمريكي اللاهوتي وليم ف. البرايت خلال السنوات العشر التي قضاها في فلسطين (1919-1929). فقد ظن في البداية، كما يقول نيل آشر سلبرمان، أن تجميع وتسجيل الفولكلور الفلسطيني يكفي للكشف عن تاريخ "فلسطين التوراتي"، ولكن "ما إن زار موقع التنقيبات البريطانية في عسقلان، وتعلم من مناقشاته مع اللاهوتي البريطاني وليم آدامز كيف يمكن أن تكون شظايا الفخار مفتاح فهم التاريخ التوراتي وليس الفولكلور، حتى اقتنع بأن تشغيل عدد كبير من العاملين للتنقيب في التلال والبحث عن صروح معمارية لم يعد ضرورياً، ولا يضيف جديداً إلى فهمنا للتاريخ التوراتي"(3). وكان هذا

التعليم بتأثير نظرية ربط أنماط الفخار بالأعراق البشرية، والتغير فيها هو نتاج غزو عرق لآخر التي أشاعها فلاندرز بيتري آنذاك:

"..أرجع بيتري، متأثرا بنظرية تحسين النسل، قوة التاريخ الدافعة في الشرق الأوسط، كما في أي مكان آخر، إلى انعدام تساوي الأعراق الفطري، حيث تهيمن الأنماط الإنسانية "المتفوقة" طبيعيا على الأنماط الإنسانية "الوضيعة"، وعنى هذا المنظور إلى التاريخ ضمناً الإعتقاد بأن توسع الغرب في الشرق الأوسط لم يكن سوى آخر حلقة من حلقات الغزوات العرقية التي امتدت طيلة الألفيات السابقة. وبهذا الإيمان العميق، بأن النزاع بين الأعراق كان طبيعيا، بل وحتى النظير الحتمي للتقدم، أصبح بيتري رسولا ذا نفوذ لإنجيل بايولوجي مبشر بالخراب وإعادة الإعمار في الشرق الأوسط "(4).

لقد توجه الغرب إلينا مسلحاً بأسطورتين؛ أسطورة حق القوي في الهيمنة وفرض روايته، وأسطورة توراتية اعتبرت تاريخاً ملائماً لفهم مجريات الماضي "يعول عليه بالضبط كما يعول على أي مصدر مباشر في أي فرع من فروع البحث التاريخي" كما جاء في سياق نقد وتوبيخ جاكوب فنكلشتين لدعاة هذا الاتجاه الذي انتشر في خمسينات القرن الماضي(5).

إنطلاقاً من الأسطورة الأولى، يستمد "العربي" شرعية الوجود، مدناً وأنماطاً فكرية وحياتية من اللمسة الغربية. فما لم تمر عليه هذه اللمسة عد غائباً أو لاوجود له، أو غير مرئي في أفضل الأحوال، وما لم تنقذه هذه اللمسة من الغيابِ سيعد وجوداً ضائعاً ووحشياً. وليس من الصعب اكتشاف المعيار؛ إنه المصالح السياسية والتجارية والعسكرية. ولهذا ليس غريباً أن يوصف الحكام والأمراء العرب الذين ناهضوا الهيمنة البريطانية مثلا بالجهل والهمجية، بل وبالجنون أحياناً كما جاء في رسائل هاوية الآثار والعاملة في جهاز الاستخبارات الآنسة "جيرترود بيل" عن أمير حائل ابن رشيد حين لم تستطع إخضاعه وإقناعه بالانضمام إلى العمليات الحربية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى.

جاء في إحدى رسائل هذه الآنسة: ".. إنه يأبى الإصغاء إلينا.. إنه جاهلٌ وأحمق إلى حد لايمكن تصوره، وآمل أن تعمد شمر إلى التمرد عليه واختيار أمير بديل عنه، وهذا أمر محتمل جداً لأن أبناء قبيلته يدركون جيداً مدى ما هو عليه من ضعف وجنون"(6).

وبالطبع لابد من صناعة نخبة من السكان الأصليين، أو "أكاذيب حية" بتعبير جان بول سارتر(7) معتدلة وطيبة وعقلانية وواقعية تردد ما تسمع في العواصم الغربية، وتحاول أن تجد لها مكان الشريك "في الإطار الثقافي الغربي"(8).

هذا هو المعيار الأساس الذي أقيم عليه إنشاء التاريخ والوجود ما بين القرنين السابع عشر والعشرين على يد الاستشراق البريطاني والفرنسي، ولايزال هو المعيار الذي يقيس به الاستشراق الأمريكي الراهن المساحة العربية.

وانطلاقاً من الأسطورة الثانية، أي أسطورة أن روايات التوراة تاريخ، يكاد العربي يتحول إلى ضبابٍ في أفق التاريخ ماضياً وحاضراً. ولا يحضر إن حضرإلا مقروءاً، لغة وأرضاً وتاريخاً، بأبجدية التوراة. ولئن كانت "الرواية الغربية الأدبية تقع في قلب ما يقوله المستكشفون والروائيون عن مناطق العالم الغريبة" كما يقول إدوارد سعيد، و"تخوض الإمبريالية معركتها الرئيسية حول الأرض بالطبع.. وحين يصل الأمر إلى من يملك الأرض ومن له الحق في أن يستوطنها ويعمل فيها ومن يستردها ويدير شؤونها ومن يخطط لمستقبلها الآن، تنعكس كل هذه القضايا وتناقش في الرواية"(9)، إلا أن هاهنا، حين يتعلق الأمر بالرواية التوراتية، شيئا خاصا؛ إنها رواية أو "رؤيا" جاهزة سلفاً ولاتُستمد من العاديات الأثرية، وكل ما على علماء الآثار التوراتيين القيام به هو إيجاد أو اصطناع ما يبرهن على صحتها، وعلى ما يثبت أنها تاريخ واقعي حدث فعلا ويحدث، حتى وإن اقتضى الأمر تلفيق آثار ملائمة واصطناع نصوص إضافية أكثر ملائمة. هنا يتم "تمثيل" الأرض والسكان مسبقاً أيضا باستخدام النص التوراتي. ولا يتوقف الأمر عند حدود التمثيل، بل يتجاوزه إلى محو الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية سلفاً، وإخلاء المسرح من كل لغة أو إنسان أو مشهد ينقض النص الجاهز. وما يبقى بعد كل هذا هو المسرح الخالي الذي يتوالى على خشبته علماء آثار وسياسيون وعسكريون وصحافيون يجرون على "فلسطين نوعاً من انتقال في الزمن يكون فيه الماضي التوراتي واقعا من وجهة نظر جمهور المشاهدين، والحاضر العربي إما فضيحة أو خواء تشغله عملية تطابق الماضي التوراتي الإلهي من أسرحياة مرجأة تاريخيا"(10).

أساس هذا التلازم بين الأسطورتين هو ما سماه د. مروان فارس "اختراق اليهودية للتراث المسيحي الغربي"(11)، ذلك الاختراق الذي تشهد عليه بواكير الكتابات الغربية حول الأرض العربية. ولئن بدا الأمر في هذا الإطار بعيدا عن وسائل القوة المادية المجردة، أي العنف بكل ما يتضمنه من قتل وحروب إبادة وسلب للأرض، وقريبا من مشكلات سوء الفهم الثقافي الذي يحتاج إلى حوار حضارات وتوفيق بين الأديان وما إلى ذلك من هذا الهراء، فإنه لايزال في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين يتجسد تجسدا تاما في إطار القوة المادية المجردة وإرادة الهيمنة، لأنه حقيقة لم يكن خارجهما في يوم من الأيام.

أحد مفكري اللغة الإسبانية، خورخي لويس بورخيس، لا يتوقف الأمر معه عند حد قوله "أنه نشأ على قراءة التوراة"(12)، بل يتجاوز ذلك إلى التصريح في محاضرة له في الأرجنتين بأن "إسرائيل تشكل جزءاً عميقا منا جميعاً وأشد عمقاً من الانتساب برابطة الدم أو التحدرمن عنصر واحد". لقد كان بورخيس، حسب قول الكاتب إلن ستافانس "مفتوناً طيلة حياته، هو غير اليهودي، بالموضوعات والرموز اليهودية، الأمر الذي قاده إلى محاولة التعرف على سلف يهودي له في شجرة نسبه، وهو ما جعله في النهاية يعتبر نفسه يهوديا"(13).

إن تحول الهم "اليهودي"، الذي تُرجم صهيونياً إلى حركة استعمارية، إلى هم عام في الضمير الغربي لم يعد بحاجة إلى المزيد من الشواهد، ولكن من الخطأ الاعتقاد أن جذور هذا الهم ترجع إلى عصر ظهور النازية استناداً إلى تمويهات بعض الكتّاب؛ الأصح القول أنه يرجع أساسا إلى تغلغل اليهود في جهاز الكنيسة الرومانية وفرض التوراة كعهد قديم شارح للعهد الجديد، وإصرار هذه الكنيسة حتى الآن في وثيقة صادرة عن "لجنة العلاقات الدينية بالعبرية" على أن "المسيح عبراني وهو كذلك إلى الأبد"، بعد التأكيد على "أن أصل المسيحية يقع في العبرية، وأن الوعد الالهي في التوراة هو وعد يخص المسيحية أيضا.. ويجب تقديم أحداث العهد القديم ليس كأحداث تخص العبريين فقط، بل وتخصنا شخصيا"(14).

وحين يقف الكاتب الألماني جونتر جراس، الحائز على جائزة نوبل للآداب، في الهند قائلا "إن ثاني مشكلة تعانيها البشرية اليوم، بعد مشكلة الخطر النووي، هي مشكلة الحفاظ على الأقلية الإسرائيلية الحزينة المهددة بالإبادة في المنطقة العربية"(15)، ربما لايكون واعياً أن هذا الهم لا يرجع فقط إلى عقدة الضمير الغربي تجاه ظهور النازية، بل إلى عهد أبعد من ذلك، إلى عهد صارت فيه التوراة أداة إنشاء العالم وقضاياه في يد الإمبراطوريات الغربية الاستعمارية في القرن التاسع عشر. ويمكن تتبع تشكيل هذه الأداة منذ تكوين الكنيسة الكاثوليكية، مروراً بما يسمى عهد الإصلاح، وصولا إلى أزمنة الاستعمار الغربي الحديثة.

يشير برتراند رسل البريطاني إلى أن الكنيسة الكاثوليكية مستمدة من ثلاثة عناصر، "فتاريخها المقدس يهودي، ولاهوتها يوناني، وحكومتها وقانونها، على الأقل بطريق غير مباشر، رومانيان. وجاء الإصلاح الديني فنبذ العناصر الرومانية وحد من العناصر اليونانية وزاد من قوة العناصر اليهودية زيادة كبرى"(16).

ويفصل جون هرمان راندال الأمريكي بداية هذا المسار ونهايته في المطاف النهائي على يد اللاهوتي الإصلاحي "مارتن هانز لوثر" ومعاصره "جون كالفن" بطريقة دالة:

"من مجموع هذه العناصر؛ العدالة العبرية والمحبة المسيحية والإيمان الإغريقي بالعقل والتقشف الهليني، صاغ آباء الكنيسة القديمة وحدة عضوية كاملة"(17).

ومع عهد الإصلاح بداية بالربع الأول من القرن السادس عشر، دفع لوثر بالعنصر التوراتي إلى مرتبة الصدارة في التعاليم الكنسية:

".. كانت التوراة بالنسبة للوثر وحدها ما يعطي الكتاب المقدس(أي الإنجيل) قيمته الحقيقية. لم تكن التوراة أساس إيمانه، بل كان تجربته الخاصة التي وجد في التوراة تأييدا لها"(18).

أما كالفن، فقد أصبحت التوراة بالنسبة له "السلطة السامية المعصومة من الخطأ في جميع الأمور. ولئن عجزت الكنيسة الكاثوليكية عن السيطرة على الناس، فما ذلك بسبب فسادها وإنما لخطأ تأويلها للتوراة"(19).

وسرعان ما تجلّت هذه "الإصلاحات" الدينية، ولم تعد تموه محركاتها الأساسية حين اتفق كلا المصلحين، لوثر وكالفن، على "تقوية الاتجاهات الرأسمالية والصناعية والتجارية السائدة في عصرهما، كما اتفقا على الفردية وسيادة الدولة القومية، وعلى اعتماد التوراة مرجعا أعلى"(20).

نقطة التقاطع هذه بين النزعة الاستعمارية والأقنعة الدينية يلخصها أحد رؤساء الوزارات البريطانية، فهو يتحدث منذ نحو قرن تقريبا عما تحدث به "بورخيس" الأرجنتيني و"جراس " الألماني، وكأن الثلاثة المختلفي الجنسيات والمواقع يعزفون نغمة واحدة. جاء في كتاب عن تاريخ الصهيونية لوالتر لاكيور فصل فيه قصة الدعم الأوروبي للصهيونية وصولا إلى إنشاء دولة إسرائيل أن ديفيد لويد جورج قال لروتشيلد مرة "إن الأسماء التوراتية التي ورد ذكرها في حديثه مع د. حاييم وايزمن كانت مألوفة بالنسبة له أكثر مما هي مألوفة أسماء المدن والقرى التي ترد في البيانات العسكرية عن الجبهة الغربية"(21).

قد يحسب المرء أن القضية تتعلق بأرض فلسطين فقط التي كانت بريطانيا تستعد لاستعمارها، إلا أنها تتعلق في الحقيقة بكل الأرض العربية، ويمكن أن تمتد إلى أي أرض تشير إليها المطامع الاستعمارية. فبناء ما يدعونها "أورشليم" الذي يقوم على أسطورة "الغزو" و"إبادة" السكان الأصليين و"الاستيطان" حاضر أيضا في استعمار أمريكا الشمالية.

يقول بروس ترجر:

"أصبحت أمريكا أرض كنعان ثانية، أرضاً يأخذها ا من سكانها الأصليين ليعطيها لشعبه المختار الجديد. بل ويوسع رئيس جامعة يال، إزرا ستيلس، هذا التماثل في العام 1783، فيردد ما قاله

قبله باحثون إسبان وفرنسيون حرفياً؛ إن الهنود كانوا من نسل الكنعانيين الذي طردهم يوشع من فلسطين"!(22).

هذا الإنشاء الثقافي الذي يقف كأحد دعائم النزعة الاستعمارية الغربية تجاه الوطن العربي يمكن أن نسميه إنشاء لمسرح يتحدث فيه ممثلون عنا، ويمثلون تاريخنا أمام الجمهور الغربي. وعلى هذا المسرح يختفي واقعنا الراهن والماضي وتحل محله صورة تمثيلية تصنعها أساطير التوراة على لسان علماء آثار وسياسيين وعسكريين وصحافيين يتبادلون أدوارهم على هذه المسرح كما أشرنا آنفاً.

بعض الباحثين الغربيين اعترف بأخطاء المنظور الغربي، ونبه إلى سخافة المركزية الأوروبية التي قامت على الأساطير، كما فعل أوزفالد شبنجلر في كتابه "إنحطاط الغرب" حين سخر من فكرة تقسيم تاريخ العالم إلى قديم ووسيط وحديث من منظور غربي(23)، ونظر إلى تاريخ العالم "من ناحيتين، ناحية مجاري حياة الحضارات العظمى وناحية العلاقات بين هذه الحضارات"(24).

بل ومضى بعضهم مثل يوليوس فلهاوزن وإرنست رينان إلى مدى أبعد، فاستخدما مناهج فقه اللغات المقارن لنقض تفسير التاريخ بالتوراة، و"فتحا الطريق أمام باحثين وقراء من مختلف الاتجاهات للتعرف على شرق جديد غير توراتي"(25). ولكن مايشبه اللاوعي الذي تشكل في الجمع بين تعاليم "يهوه" و"المسيح" رغم تناقضهما البين، لا يزال يرفض إدانة التوليفات الزائفة التي خلقها وحاول تثبيتها خطاب الاستشراق، ليس لأنها مريحة للعقلية العامية فقط، بل لأنها تبرر كل نظريات الهيمنة والتفوق على "الآخر" غير الغربي، على "نصف الإنسان" أو "من لم يصل بعد إلى درجة الإنسان الكامل" حسب تصنيفات هذا الخطاب للأعراق البشرية(26).

يقول الباحث "أرنست دوبلهوفر": "إن نتائج الدراسات في حقل الكتابة المسمارية بدلت تصورنا عن مظهر الشرق القديم، فمنذ مئة عام فقط كان التاريخ يبدأ بالنسبة لنا بهوميروس، أما الآن فهو يبدأ ببابل وآشور ومصر"(27). ولكن من الملاحظ، رغم تعديل التصورات والأدلة الملموسة، أن التاريخ لايزال مشوشاً في الوعي الغربي العام بفعل عشرات المعاهد التوراتية، وبفعل الإسقاطات التي أسقطها عدد كبير من الكتاب والفنانين والرحالة والعلماء الذي وفدوا إلى الشرق وعلى رأس مهماتهم إسناد الهوية "التوراتية" لكل ما يقع عليه بصرهم، وفي المقابل محو الواقع العربي الراهن على أساس أنه واقع طارئ وهامشي قام فوق جوهر ثابت لابد من استعادته.

حين كان الفرنسي "أندريه مارلو" يكتب في ما يسمى "اللامذكرات" عن رحلاته في الأرض العربية، لم يكن يكشف لنا في الحقيقة عن صورتنا في ضوء حضارتنا وأزماننا، بل كان يكشف

لنفسه ولقارئه سطوة وهيمنة المعرفة الغربية. كان يقرأنا لصالح النص الغربي وفي ضوئه، ويضيء وجودنا بضوء يستمده من جملةِ موروثه التوراتي والأحداث الاستعمارية، فكأننا لسنا أنفسنا، أو لسنا حتى كينونة ذات تخوم، إنما نحن بحجم وذاكرة تعطينا إياهما ذاكرة أخرى. ولايتعرف هذا الذي قيل أنه تجول في الزمن كثيراً على المدينة العربية إلا بقرينة خارجية ليست منها بالتأكيد. مدينة "جدة" مثلا لا تظهر على خريطته إلا لأن "لورنس" البريطاني مر بها، ومدينة "عدن" ليست موجودة إلا لأن الشاعر الفرنسي "رامبو" عاش فيها ذات يوم وهو في طريقه إلى شرق إفريقيا ليتاجر بالذهب والعبيد(28).

ولعل من المشروع أن نتساءل هنا عن شيء لم يخطر بباله: هل كان يمكن أن توجد هذه المدن في ذهنه لولا وجود هذه القرائن؟. من المعروف أن إسقاط ألف لام التعريف يحول الاسم إلى نكرة، فهل كان مرور الغربيين بهذه المدن هو أداة التعريف التي لا يعرف شيء من دونها؟. الواضح أن الزمن الذي تجول فيه "مارلو" لم يكن حقيقة غير زمنه هو وزمن ثقافته رغم هذه الرحلات الواسعة نسبيا إلى أصقاع الغرب والشرق.

"سانت جون فيلبي" البريطاني، ضابط المخابرات وهاوي البحث عن الآثار في الجزيرة العربية، يقدم لنا نموذجاً أكثر وضوحاً لعقلية ثقافة متمركزة حول توراتها وأهدافها الاستعمارية. فقد عاش هذا 50 عاماً كما يقال في الجزيرة العربية، إلا أنه كما يظهر من كتاباته كان يعيش في زمن آخر وجغرافية خيالية أخرى، إذ لم تخرج معارفه عن الناس والطبيعة على حدود تشبعه بالخلفية التوراتية. فهو يطلق على "يثرب" اسم العاصمة الأصلية لليهود: "غادرنا المدينة من جهة بوابة دمشق، وعبرنا خرائب مدينة يثرب العاصمة الأصلية لليهود"(29). أما جبل "أحد"، فهو الجبل التاريخي "الذي يقوم على أحد قممه الشاهقة أحد الأضرحة الكثيرة لهارون"(30). ويخيل لمن يقرأ جولات هذا البريطاني أنه كان يتجول في تضاريس نص يحفظه جيداً، بحيث لم يجد في نفسه حاجة إلى الاهتمام بما تقع عليه عينه إلا من زاوية ربطه بهذا النص الخيالي: ".. وهناك منطقة تدعى "المليلة"، كنت قد زرتها في العام 1931 لكي أنقب في إحدى خرائب المدن اليهودية الأثرية، غير أنني لم أكن أذكر الكثير عن تلك المدينة التي كان يطلق عليها اسم وادي القرى"(31).

اللافت للنظر أن هذا المنقب لم يكن يقيم وزناً لأي أثر أو نقش عربي، فكلها في نظره لا أهمية لها، ويصيبه الغيظ حين تُحمل إليه أكوام من الحجارة المنقوشة التي تعود إلى عهد ثمود ولاتحمل نصوصا عبرية:

"عرضتُ بحماقة على أهالي خيبر مبلغ ريال، ويساوي شلنين، لكل من يدلني على حجر يحمل نقوشا، أو يدلي بأي معلومات تؤدي إلى العثور على هذه الحجارة شريطة أن لاتكون نقوشا عربية لاقيمة أثرية لها، وكانت تلك المنطقة مليئة بالنوعين من تلك الحجارة، أما التي كنت أسعى إليها فهي الحجارة التي تعود إلى عهد ثمود وتحمل نقوشا عبرية. ومما أغاظني بالفعل أنني تلقيت كيسا مليئا بحجارة تحمل نقوشاً إلا أنني لم أجد بينها أي نقش عبري يحمل اسم أي يهودي أو يتحدث عن نشاط اليهود في خيبر"!(32).

مارلو وفيلبي ليسا بدعاً في مضمار القراءة النصية، وسنجد أن هذا النوع من القراءات التي ستقدم إلينا نتائجها على أنها "العلم" الذي لاعلم بعده رافق الذين توافدوا إلى الشرق منذ فجر الاستشراق المعاصر، ويشكل هذا النوع فصلا من فصول ما يمكن أن نسميه "المعرفة الكاريكاتورية" بدءا من القرن الخامس عشر، أي مع بداية اندفاع الأساطيل والحملات العسكرية الغربية لاحتلال الشرق القريب والبعيد على حد سواء حتى الآن.

ولعل مما له دلالة بالغة الأهمية في هذا السياق أن هذه الاندفاعة بدأت بأن قسم مرسوم بابوي الكرة الأرضية إلى قسمين، قسم غربي من نصيب الأساطيل الإسبانية وقسم شرقي من نصيب الأساطيل البرتغالية. فبعد أن تصاعد الصراع بين البرتغال وإسبانيا على "الحقوق"، رسم البابا خط تقسيم طولي وافق عليه الطرفان في معاهدة "توردیسلا" في العام 1494، يكون فيه كل ماوراء جزر كيب دي فردي ملكا لإسبانيا، أي الأراضي التي اكتشفها كولومبس حديثا، وكل العالم شرقي هذا الخط، أي إفريقيا والمحيط الهندي وما بعده، ملكاً للبرتغال(33).

في هذا السياق اتجهت وفود الرحالة والحجاج إلى الشرق، ليس بحثا عن هذا الشرق، بل "عما يثبت أقاصيص التوراة". فرأوا "في الأهرامات المصرية خزائن يوسف، وفي هليوبوليس المخبأ الذي استراحت فيه العائلة المقدسة في طريقها إلى مصر، أما النقوش الهيروغليفية التي كانت عاجزة عن الإفصاح بشيء يتعلق بأقاصيص التوراة فلم تلق اهتماما"(34). ولم يتوقف الأمر عند حدود الأرض العربية بل امتد إلى المناطق المجاورة. يقف فيوسافات باربارو، مبعوث جمهورية البندقية إلى إيران سنة 1472، أمام نقش رستم الشهير الذي يصور الملك الساساني شابورالأول وقد أسر الإمبراطور الروماني فاليريان في العام 260 ميلادية، فيراه منحوتة تصور شمشون التوراتي(35). وحين "تنشر مذكرات رحلة باربارو بعد سبعين سنة تقريبا يسمع عالم العلم بهذه اللوحات النافرة بعد تأخر طويل، أما تصويب ذلك التفسير الخطأ فكان أمراً لاسبيل حتى لمجرد التفكير فيه"(36). ويتكرر الأمر مع البريطاني السير كير بورتر، الذي نظر من المنظور نفسه

إلى نقوش ومنحوتات صخور جبل بهستون الفارسي، تلك التي تصور الملك داريوش وأمامه أسراه، فيرى في ملامح هذا الملك شلمنصر الثالث الآشوري، والشخوص الماثلة أمامه صورة الأسباط الإسرائيليين العشرة، وفي عمامة من يقف في الصف الأخيرالمدببة عمامة أحد كهنة سبط لاوي(37).

لم يكن الأمر إذاً أمر تعرف وقراءة واقع تاريخي قائم بل إسقاط وعي زائف، وإنشاء ما يدعم نصاً في المخيلة، وتطبيقاً لآليات خطابٍ سيظل يفعل فعله كلما واجه الغربي واقعة عربية أو شرقية. ومن المفيد والمضيء هنا ذكر تفاصيل إضافية عن الرحلة الدنمركية الشهيرة لعدد من العلماء إلى بلادنا (1761-1767) المعروفة باسم "بعثة نيبور"، والتي ولدت من اقتراح الألماني "يوهان ميشاليس" من جامعة "جوتنجن".

جاء في الخبر المنشور عن الرحلة في جريدة "كوبنهاكن بوست" في 1761/1/20، أن هدف أفرادها "إرسال مخطوطات شرقية ذات قيمة" وإن هذه الرحلة تنطلق من "أجل تقدم المعارف العامة، ومن أجل ترجمة أكثر صحة للكتاب المقدس خاصة"(38).

وينقل توركيل هانسن عن يوهان ميشاليس أنه "بدا له أن القيام برحلة إلى البلاد العربية سوف يلقي الأضواء على كل الأمور والتساؤلات المتعلقة بالدراسات اللغوية للكتب المقدسة.. وسيكون بالإمكان مثلا التعرف على الأشجار والحيوانات في البلاد العربية، وفحصها ومطابقتها بما جاء ذكره في التوراة. كما يمكن دراسة شبه الجزيرة العربية، وبخاصة حركة المد والجزر في البحر الأحمر كدليل كبير في محاولة فهم موضوع الهروب من مصر"(39). ويقول أن صاحب اقتراح فكرة الرحلة الألماني "كان مقتنعاً أن في العربية السعيدة (اليمن) إمكانية عظيمة لوجود آثار متنوعة شبيهة بتلك التي في إسرائيل القديمة وأحسن من تلك التي في فلسطين"(40). وجاء في التوصيات الملكية لأعضاء البعثة "أن عليهم شراء مخطوطات التاريخ الطبيعي والجغرافيا والتاريخ، وشراء المخطوطات القديمة للتوراة ونسخ الترجمة العربية للتوراة والغائر في القدم منها بخاصة، وعليهم أن يلاحظوا تقاليد وعادات أهل البلاد، وخاصة تلك التي ألقى عليها القليل من الضوء الكتاب المقدس والتوراة اليهودية، وعليهم أن يعملوا على اكتشاف كل شيء عن العرب والإسرائيليين والسوريين ويسجلوا أي اختلافات يجدونها عما جاء في التوراة"(41).

وباختصار، يمكن القول أن البحث عن إثباتات تؤكد تاريخية الروايات التوراتية كان البوصلة الموجهة لأعمال بعثة نيبور. ولهذا نجد أن الغضب والشعور بتقصير أعضاء البعثة كانا كبيرين حين ذهبت البعثة إلى صحراء سيناء المصرية، وزارت جبل المكاتب وجبل سيناء، ولم تعثر إلا

على نقوش ومقابر مصرية قديمة. وبما أن عضو البعثة، العالم اللغوي فون هافن، لم يجد شيئاً مما ترويه القصص التوراتية فقد أتهمه من أرسلوه بالإهمال. ونال نيبور مانال صاحبه العالم اللغوي بعد أن ذهب بنفسه وعاد بمثل ما عاد به صاحبه.

كانت جغرافية النص الخيالية أقوى من أن تغلبها الجغرافية الواقعية، وكأن على أعضاء البعثة أن يكتشفوا ما ليس موجوداً إلا في أذهان كتبة حكايات. وحتى هانسن المعاصرلنا الذي كتب كتابه عن سير أعمال هذه البعثة لا يبدو أنه تخاص من سطوة النص، فاتهم فون هافن المسكين بالإهمال أيضا(42).

2

في أواخر العام 1984 ثارت في الصحافة الغربية قضية أصل التوراة اليهودية ونشأة الدين اليهودي. ورغم أن هذا الموضوع حظي في الماضي بأوسع الدراسات في الثقافة الغربية، مراجعة تارة ونقداً تارة أخرى، إلا أن الإثارة الجديدة جاءت مختلفة نوعياً عما درج الغربيون على إثارته. فقد جاءت بعد أن تجرأ باحثٌ عربي هو د. كمال الصليبي على نقض الخطاب الشائع الذي يربط الجغرافية الفلسطينية بجغرافية القصص التوراتي.

كان الكتاب صدمة في العمق، ليس لهذا الحقل من الدراسة الذي احتكره علماء اللاهوت العاملون في مجال علم الآثارفقط، بل لما أقيم على أساس افتراضاته وما تلازم معها من مشروعات استعمار أرض فلسطين، وإحاطة هذه المشروعات بسياج متين من "يقينيات" لا سبيل إلى إعادة النظر فيها.

ويمكن فهم عمق هذه الصدمة إذا عدنا إلى أواخر القرن التاسع عشر. فبعد التغلب على الصدمة الألمانية التي وصفناها، تلك التي نقضت مفهوم المركزية الأوروبية، عاد الغرب المتمدد على القارات إلى مركزيته زاعما حسب تعبير روجه غارودي أنه "مركز المبادهة التاريخية الوحيد، ومبدع القيمة الوحيد، ومن ثم، هو من ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية"(43).

وهكذا، وانسجاما مع هذا المنطق، منطق الهيمنة على الجغرافيا وعلى التاريخ كما يصوره ثالوث اليونان والرومان وكتبة التوراة، عزز الغرب سلطة إنشاء تاريخ للعالم خاص به، وعزز نظرية

مركزيته جاعلا كل ما حدث ويحدث في العالم منسوباً إلى التاريخ الغربي، فإن لم يتصل به من قريب أو بعيد كان مكانه العدم أو اللاوجود.

في هذا السياق جاءت النقلة النوعية الأولى مع مطلع القرن العشرين مع اكتشاف وجود "الآخر". وكان الاكتشافُ صاعقاً إلى الدرجة التي دفعت عدداً من فناني ومفكري الغرب، ومنهم اوزفالد شبنجلر، إلى القول أن الآلاف المؤلفة من عصور الحضارات القديمة تؤكد أن حضارة الغرب هي لحظة في زمن طويل ليس غربيا بالضرورة. ومن هنا جاء نقده للتقسيم الدارج للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث من وجهة النظر الغربية. وكذلك جاء تأكيد أرنولد توينبي بعد مايقارب نصف قرن من عكوفه على دراسة التاريخ:

"لكي ننظر نظرة متوازنة عالمية، علينا أن نخلص أنفسنا من الوهم أن بلداً معينا وحضارة معينة وديناً معيناً، من تلك التي يحدث أنها ملكنا، هي لهذا الاعتبار مركزية ومتفوقة"(44).

هذه النقلة أبرزت عمق خرافة الثالوث. وأثبتت نصوص الحضارات القديمة، من مصرية وكنعانية وآشورية وبابلية وسومرية، كم هي شاسعة المسافة بين الوقائع التاريخية كما حدثت وبين رواية حكاية عن التاريخ. لقد ألقت المدن القديمة بألواحها، وظهرت في هذه الألواح أصولُ ما كان يعتبر إبداعاً يونانياً ويهودياً ورومانياً. فإذا بالتاريخ تُعاد قراءته، بدءاً من التمثال اليوناني الذي ينتصب حالياً بوقفته وسماته المصرية المميزة في متحف "دلفي" على سفح برناسوس اليوناني، مروراً بملاحم "أجرت" التي أومأت إلى فصول في الأساطير اليونانية(45)، ووصولا إلى قصص الخلق(46) والطوفان(47) التي وجدت أصولها في ألواح الطين السومرية والبابلية والآشورية.

على هذه الأرضية بدأ المنظور الغربي يتخذ حجمه الحقيقي، كمنظور مرتبط بأيديولوجية ولا يقوم على وقائع ملموسة. وعلى هذه الأرضية بدأ ما يسمونه الشرق باستعادة حجمه الحقيقي، فتتقابل آلاف السنوات من عمر حضارته مع آلاف السنوات من عمر الغرب الذي كان خلالها يحبو في غابات ومستنقعات أوروبا. ولايعني هذا تأييد الفكرة المبتذلة القائلة بأن الشرق أفضل وأرقى، بل يعني أن المصائر التاريخية لم تكن صناعتها وقفاً على هذا النتوء الضيق على أطراف آسيا الغربية.

ولعل هذه الفكرة هي التي حاول "روجيه جارودي" استباقها في كتابه "حوار الحضارات"، داعياً إلى الاعتراف بالآخر والحوار معه بهذه العبارة الاستهلالية الحاسمة:

"الغرب عارض طارئ؛ هذه هي المصادرة الأولى في كل اختراع يتناول المستقبل"(48)، مع أن القضية تجاوزت طلب الاعتراف من الغرب نفسه، إلى ما تفرضه سلطة الحقيقة التاريخية،

وسلطة الوقائع الراهنة التي تصنعها شعوب حضارات تعرضت للإبادة على يد القوة الغربية المادية وخطابها على حد سواء.

على أنه إذا كان هناك من أصابه القلق على مصير الخطاب الغربي المغلق على أساطيره، فإن هناك من لايزال يكابر من منطلقات القرون الماضية، قرون الشرق البدائي المتوحش، الجاهز فقط للاستعمار والخضوع، وتسليم نفسه كموضوع لاصوت له للباحث الغربي.

هذا الموقف المكابر هو الذي برز خلال المناقشات التي أثيرت إثر صدور كتاب أستاذ التاريخ "د. كمال الصليبي".

فما الذي قاله هذا الكتاب وأثار حفيظة التوراتيين؟

طرح الكتاب نظرية تقول أن مسرح أحداث التوراة، المتقدم منها على الأقل، لم يكن في فلسطين، وإنما في منطقة تقع غربي الجزيرة العربية، منطقة جبال عسير. وأسند د. كمال الصليبي نظريته "بتحليل ألسني لأسماء الأماكن التوراتية التي أعتقد أنها تساء ترجمتها إساءة متواصلة"(49) وبقراءة جغرافية وبيئية، مقارنا بين أسماء المواقع في النص التوراتي، بعد قراءتها قراءة سليمة، وأسماء المواقع في غربي الجزيرة العربية التي ماتزال متداولة حتى الآن، ومطابقة الإحداثيات كما يرويها النص وكما تظهر على الأرض.

على أن ثمة مستندات أخرى تعتبر دعامة قوية لهذه النظرية. منها مثلا أن تنقيبات أكثر من قرن ونصف في فلسطين لم تظهر أي أثر ذي أهمية لوجود الكيان السياسي الذي يزعم مترجمو التوراة أنه قام في فلسطين، وكل ما أظهرته التنقيبات المتواصلة حتى اليوم هو الوجود الكنعاني، مدنا وحضارة وثقافة ولغة. ومنها أيضا أن القراءة السليمة لنصوص الحضارات المعاصرة، حتى حسب الافتراض التوراتي، لهذا الكيان السياسي، من بابلية وآشورية ومصرية وحتية، تظهر غياب أي ذكر لمثل هذا الكيان، وما جرى تأويله على أساس أنه إشارات إلى أسماء توراتية في هذه النصوص، لا يعدو إساءة قراءة متعمدة أحيانا أو سوء فهم بسبب سيطرة الافتراضات المسبقة على أذهان الباحثين الغربيين. فإذا ورد ذكر لقبيلة "خزاعة" مثلا (خزاءاة في الألواح الآشورية) ترجمها التوراتيون إلى "غزة"، وإذا ورد في ألواح مدينة "العمارنة" المصرية ذكر لشكوى الولاة المصريين من غزوات من يسمون "العابيرو"، أي البداة، أفترض الباحث الغربي أن المقصود هو "العبرانيون". وهكذا لم يكن للنص التاريخي المكتوب في زمن الأحداث التي يصفها سلطة على الباحث، بل كلّ السلطة للنص التوراتي المكتوب بعد ألف سنة على ما يفترض أنه حدث في تلك الأزمان. والطريف أن بعض هؤلاء قام بتزوير مفضوح لبعض نصوص الحضارات القديمة حتى

يجد علاقة لها بأقاصيص التوراة كما أظهر توماس تومسن في اكتشافه لتزوير ارتكبه توراتيون ليصنعوا وجوداً تاريخياً لما يسمى "عصرالآباء" المذكورين في التوراة.

يروي تومسن اكتشافه كما يلي:

"حين بدأت بحثي كنتُ مقتنعاً تماماً بتاريخية المرويات عن "الآباء" في سفر التكوين، إلى درجة أنني قبلت من دون تساؤل التماثل المزعوم بين تقاليد هؤلاء"الآباء" وبين ماورد في العقود العائلية لأواخر عصر البرونز المكتشفة في تنقيبات مدينة "نوزي" القديمة شمالي وادي الرافدين. ولهذا السبب كانت الخيبة بالغة حين أصبح واضحا في العام 1969، بعد عمل استمر طيلة سنتين، أن الأعراف العائلية وقوانين الملكية في نوزي القديمة لم تكن غير فريدة في شرائع الشرق الأدنى القديم فحسب، بل ولم تتضمنها مرويات سفر التكوين. لقد أسيئت قراءة كثرة كاثرة من هذه العقود وأسيء تفسيرها. وهناك واحد منها على الأقل ترجم ترجمة خاطئة بهدف خلق تماثل مع النص التوراتي. لقد كان الزعم بوجود تماثل بين أعراف نوزي وأعراف "الآباء" تلفيقا مفضوحا نتج عن رغبة بخلق عالم اجتماعي كامل لم يكن له وجود أبداً "(50).

هذا النص لم يتوقف عن ممارسة سلطته على أذهان بعض الباحثين والعلماء المتعصبين للنص حتى الآن، ولم يتوقفوا عن اعتماد قصصه الخيالية في إنشاء التاريخ، رغم الاعتراف الواسع الآخذ في الازدياد بمغالطته للجغرافيا والتسلسل الزمني وعلوم البيئة، وكل الوقائع التي أظهرتها الكشوف الأثرية في المنطقة الممتدة من أعالي الفرات إلى بلاد النوبة في مصر.

في ضوء كل هذا، جاءت نظرية د. الصليبي لتضع الحصان أمام العربة، داعمة بذلك شكوك عدد من الباحثين من أمثال "دوزي" و"فلهاوزن" في أن تكون فلسطين مسرحا لأحداث التوراة، أو يكون للتوراة قيمة تاريخية تتجاوز كونها مرويات شعبية. وجاءت ردود الفعل الغربية متفاوتة تتراوح بين اتهام أطروحة الكتاب "بالوقاحة" و"العبث الفاضح" و"انعدام الروح العلمية إلى أقصى حد" وإبداء الاستياء "من نشر هذا الكتاب سواء في طبعته الألمانية الأصلية أو الإنجليزية"، وكلها تعابير وردت في مقالة أنثروبولوجي من جامعة أوتاوا(51)، وبين كيل الشتائم الهستيرية مثل أن الكتاب "قمامة تافهة وهراء من بدايته حتى نهايته" أو أن تحليلاته الألسنية "لاأساس لها في فقه اللغات المقارن" كما نقل هشام أحمد من جامعة كاليفورنيا في رده على هذا "النقد"(52)، وبين رفض منهج د. الصليبي والنتائج التي توصل إليها(53).

ويبدو من ردود الفعل المتشنجة هذه التي انهال معظمها على صفحات الصحف حتى قبل نشر الكتاب، أن الغرب يستكثر على باحث عربي امتلاك سلطة معرفية تؤهله لإنشاء تاريخ مستقل عن

الأساطير الغربية. فهم كما يقول د. الصليبي، اعتادوا على أنهم هم من ينتج المعرفة لا أن يتلقوها.. و"أصبح علماء التوراة ومؤرخو الشرق الأدنى القديم يشكلون حلقة مغلقة تمقت أي تدخل إلا بإذن منهم. لقد أقاموا مبنى على أساس افتراضات في غالب الأحوال يحاولون تمريرها كوقائع، ويرفضون في الوقت نفسه أي فحص جذري لمادة البحث"(54). هذا سبب إضافي يفسر الحملة الضارية على الكتاب، ولكن هناك سبب آخر بالطبع، وهو قدم ورسوخ الصور التي تشكلت في الذهن الأمريكي بخاصة تحت تأثير الصحافة منذ أن احتل البريطانيون فلسطين، وتدفقت روايات علماء الآثار التوراتيين التي محت محواً تاماً الواقع الفلسطيني في الماضي والحاضرعلى حد سواء، وأحلت محله واقعا مفترضا مستمداً من النص التوراتي، كما تظهر دراسة لورنس ديفيدسون للدوافع "المحركة التي تنامت بين علم الآثار التوراتي والجمهور الأمريكي والصحافة في عشرينات القرن الماضي"(55).

بالطبع تحتاج هذه النظرية التي جاء بها د. الصليبي إلى تحقيق إضافي تقوم به التنقيبات الأثرية في المنطقة المشار إليها، ولكن مهما كان من نتائج هذه التنقيبات، سلباً أو إيجاباً، تبقى هناك الحقيقة الصلبة، وهي انتفاء وجود ما يدل على صحة ادعاءات من يطلق عليهم لقب "علماء الآثار التوراتيين" في فلسطين.

على أن هناك مخاوف عربية في المقابل تمثلت، كما تقول الباحثة بديعة أمين، في التصور "الذي أشيع في بعض الأوساط الصحافية العربية من أن الصليبي يدل الصهيونية على أرض عربية جديدة لتستحوذ عليها"(56). ولكن هذه مخاوف تستند من جانبها على الخلط الصهيوني بين اليهودية كدين شأنها في ذلك شأن الديانات الأخرى في قيامها وانتشارها بين شعوب مختلفة، وبين الزعم أنها قومية شعب أو عرق واصل البقاء، وهو الأمر المفتعل لأغراض استعمار أرض فلسطين.

تقول الباحثة أن د. الصليبي لم يترك هذا الأمر دون أن "يقطع بصورة حاسمة ذلك الخيط الواهي الذي اختلقته الصهيونية ودعاتها من فرسان مطلع العصر الإمبريالي في أوروبا، ليقيموا به رباطاً يشد مابين يهود العصر الراهن واليهود الساميين القدامى، متجاوزين بذلك الزمان والمكان وكل النظريات التي تبحث في شؤون السلالات والأعراق البشرية والتي جاء بها علماء غربيون في موسم ازدهار الفكر الإمبريالي"(57). وفي هذا تشير الكاتبة إلى ما أورده د. الصليبي في مقدمة كتابه (الطبعة العربية) من أن "الادعاء السائد بين يهود العالم بأنهم من سلالة بني إسرائيل هو إدعاء شعري لا يقوم على أي أساس من التاريخ. وبناء على ذلك، فإن الإدعاء "الصهيوني"

الحديث بأن اليهود ليسوا مجتمعاً دينياً فحسب بل شعب وريث لبني إسرائيل، وأن له الحقوق التاريخية لبني إسرائيل، إنما هو إدعاء باطل أصلا، لأن بني إسرائيل شعب باد منذ القرن الخامس قبل الميلاد. وهو باطل حتى في حال إقرار بأن للشعوب حقوقاً تاريخية في أراض معينة تبقى قائمة على حساب الآخرين مهما طال الزمن. وأقل ما يقال في هذا المبدأ أنه غير مقبول إلا من أصحاب الهوس العرقي"(58).

ويكفي في هذا الصدد التذكير بأن الأبحاث اللغوية والسلالية والأناسية أظهرت زيف الربط بين حملة الدين اليهودي وبين قومية أو عرق محدد. من أوسع هذه الأبحاث إحاطة ما نشره الكاتب الهنغاري "آرثر كوستلر" تحت عنوان "القبيلة الثالثة عشرة: دراسة في موروث دولة الخزر"، وفيه دراسة وافية معمقة وتاريخية لتحول قبيلة الخزر التركية إلى اليهودية في القرن الثامن الميلادي، ونزوحها إثر تقويض دولتها إلى أوروبا الشرقية. ويستدل "كوستلر" على أن غالبية يهود العصر الراهن، وبخاصة في أوروبا الشرقية، هم من أحفاد هؤلاء الخزر(59).

في هذا الضوء، نظرية د. الصليبي ليست معنية بالبحث عن وطن لليهود، لأن أوطانهم قائمة، فمنهم البولندي والروسي والفرنسي والبريطاني والعربي.. إلخ. وإنما هي معنية بتقويض خرافة علاقة التوراة بفلسطين، وتحمل إشارة إلى ضرورة كتابة تاريخ لفلسطين القديمة بعد أن طمس التوراتيون هذا التاريخ وأنشأوا تاريخا مصطنعاً.

وتحمل أطروحة "كوستلر" أكثر من مغزى في هذا الاتجاه. فبعد بحثه المشار إليه يتوصل إلى أن ما يسمى الرابطة القومية اليهودية إنما "هي رابطة دينية، ولدت في ظروف "الجيتو" وخلقت نوعا من الشعور بالمشاركة، ولا أساس لها من عرق أو هوية قومية"(60)، وأظهر "أن الأدلة الأنثروبولوجية والتاريخية تدحض المعتقد الشائع بوجود عرق يهودي متحدر من القبيلة التوراتية"(61). وعلى هذا الأساس طالب اليهود الذين استعمروا فلسطين بأحد حلين، إما التزام أوطانهم أو الاعتماد على وجودهم في فلسطين على أساس الأمر الواقع الذي أوجدوه بقوة السلاح (62)، أي باغتصاب أرض الفلسطينيين. وهذا هو في الحقيقة الأساس الذي قامت عليه دولة الاستعمار الصهيوني، والسياق الذي ولدت فيه، وتحاول الاستمرار بشروطه، إذ لاشيء يربط بين يهود عدة شعوب، وبين القبيلة البائدة التي نشأ الدين اليهودي في أحضانها، أو بينهم وبين الأرض الفلسطينية.

يلاحظ المؤرخ البريطاني "كيث وايتلام" أن كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد فتح المجال واسعا أمام عدد من المؤرخين الهنود ليحاولوا استعادة ماضيهم وإنقاذه من براثن الخطاب الاستشراقي، ولكن لم يقدم أحد عملا مماثلا في نطاق نقد الافتراضات الاستشراقية لخطاب الدراسات التوراتية، مع أن كتاب "الاستشراق" يبرهن على أن الدراسات التوراتية جزء من المشروع الاستشراقي. من هذا المنطلق يقدم "وايتلام" مساهمته الكبيرة في كتابه "اختلاق إسرائيل قديمة..إخراس التاريخ الفلسطيني"(63).

أطروحة هذا الكتاب التي أثارت الأوساط الأكاديمية الغربية يمكن تلخيصها، حسب تقديم صاحبها، على أنها مجرد بداية طرحت موضوعا في غاية الأهمية على صعيد الحاضر الراهن هو موضوع اختلاق الخطاب الغربي، وجزئه الصهيوني، لإسرائيل قديمة على صورة الدول القومية الأوروبية الحديثة من جانب، وإخراس التاريخ الفعلي لفلسطين من جانب آخر. واكتشف وايتلام، مستندا إلى المكتشفات الأثرية والتقصي التاريخي، أن هذا الاختلاق كان ولايزال من إحدى مهمات خطاب الدراسات التوراتية التي يعتبرها امتدادا للمشروع الاستشراقي، وولد في سياق مصالح سياسية ودينية، وفي خدمتها.

لقد ادعى هذا الخطاب، مستنداً إلى "رؤيا" لاهوتية، الحق في تمثيل تاريخ فلسطين القديم مابين أواخر الألف الثاني ق.م. وأوائل الألف الأول ق.م.، أو ما يدعى أواخر عصر البرونز وأوائل عصر الحديد. ويشكل هذا الاحتكار استمراراً لمزاعم الرحالة الأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ونتيجة للقبضة الخانقة التي أمسك بها خبراء وعلماء آثار توراتيون دراسة فلسطين والشرق الأدنى، أصبح تاريخ فلسطين القديمة أحد التواريخ المطموسة طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين. واستتبع هذا في الغرب إنكار حق التاريخ الفلسطيني أن يكون له مكان في الخطاب الأكاديمي الغربي.

ورافق اهتمام أوروبا الإستراتيجي بفلسطين سعيها نحو اكتشاف جذور حضارتها الخاصة بها بوصفها هي ذاتها جذور إسرائيل القديمة والتوراة. وبقبول الباحثين التوراتيين على نطاق واسع ببنية الماضي كما تقدمه الموروثات التوراتية، انطلقوا للبحث عن وجود مادي ملموس لإسرائيل بين الخرائب والصروح على الأرض. وما وجدوه، أو ما افترضوا وجوده مسبقا، كان إسرائيل أنشأوها وفق نموذج دولهم القومية في القرن التاسع عشر. وقدمت إسرائيل بوصفها بداية دولة قومية تبحث عن أرض لها لتعبر فيها عن وعيها القومي، وأصبح هذا الإسقاط على الماضي

مهيمنا وشائعا. واكتسب تمثيل الماضي هذا نفوذاً وفرض نفسه كحاجة ملحة إضافية مع ظهور الحركة الصهيونية التي هي مشروع أوروبي من حيث الجوهر. ونظر إلى نشوء الصهيونية كمرآة تعكس صورة استيلاء إسرائيل القديمة على الأرض، وما تبعه من إيجاد دولة قومية سرعان ما هيمنت على المنطقة وفق الرواية التوراتية.

هذه الرواية الكبرى، والتي هي في جزء منها فرضية ونتاج مسلمات خطاب، ظلت من دون تحد حتى سبعينات القرن العشرين. ورغم إعادة صياغة بعض التفاصيل حيثما ظهرت هناك تساؤلات حول طبيعة هذه الإسرائيل القديمة، أو حول الأسلوب الذي استولت فيه على الأرض، لم يكن هناك أي تساؤل بالنسبة للخطاب التوراتي عما إذا كان هذا الماضي هو حقا ماضي إسرائيل وأرض إسرائيل، ناهيك عن التساؤل عن حق سكان الأرض الأصليين أو تاريخهم الخاص، فهذا التساؤل لم يكن ذا معنى في هذا السياق.

وامتلاك تقديم هذا الماضي، مع تكراره المتواصل على لسان شخصيات متنفذة في هذا المجال، ونشره في الكتب الأكاديمية والشعبية وكتب الجيب، سمات "واقع" أصبح من الصعب وضعه موضع تساؤل. كان هذا "الواقع" يعلن عن نفسه أمام عدد لايحصى من الطلبة والباحثين والأكاديميين المحترفين والقراء العاديين، ووصل ذروته بالسعار الذي انتشر في السبعينات على حد تعبير إدوارد سعيد. ولم تكن معظم التواريخ التوراتية لإسرائيل قديمة سوى تكرار لأقاصيص التوراة العبرية أو إعادة صياغة لها. كان بكلمات الباحث فيليب ديفز (1991) تاريخا تعليميا توراتيا أضفيت عليه صبغة عقلانية. ومع ذلك واصل نموه القلقُ من قدرة هذه الإسقاطات على الصمود في وجه نقد ديفز الذي ترافق مع انتشار واسع لما سمي بالتواريخ الجديدة المنقحة.

وساعد تشظي السياقات التي قامت عليها هذه الأقاصيص، جنبا إلى جنب مع تحولات أخرى حدثت في هذا الفرع المعرفي، على إظهار كم أن هذا الماضي المتخيل مصنوع وفق نماذج التجربة المعاصرة. وساهم انهيار الاتحاد السوفييتي، والنقاش حول وحدة أوروبا ومستقبلها، والانتفاضة الفلسطينية بخاصة، في إحداث انهيار وتفتت متواصلين بدأ يلم بهذه المنظورات التي كانت في أساس بناء هذه الرواية الشائعة. ولكن في كل الحالات ظل تأثير تنامي تواريخ ما بعد المرحلة الاستعمارية ضئيلا على مشروعات التأريخ التي تباشرها الدراسات التوراتية، فالقبضة الخانقة التي أمسكت بها هذه الدراسات عنق الأبحاث الأوروبية في هذا المجال حافظت عليها الأبحاث الإسرائيلية والأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين، وظل الإسقاط قائما في هذه المرحلة بوصفها مرحلة ظهور إسرائيل وهيمنتها كدولة كبرى في المنطقة. وقد أشار إدوارد

سعيد إلى المدى الذي حظيت به إسرائيل منذ إقامتها في العام 1948 بهيمنة مذهلة على البحث في مجالات عديدة أخرى، وذلك باستثمار المصادر الواسعة ماليا وفكريا بحثا عن إسرائيل قديمة من دون أن يواجه هذا البحث سعي نحو تاريخ فلسطيني للمراحل نفسها أو أي مراحل لاحقة. وتوالفت الحوافز اللاهوتية والسياسية الكامنة وراء البحث في إسرائيل والغرب مع التنكر لحق السكان الأصليين في أن يقوموا هم بتمثيل تاريخهم. لقد أقصى اللاهوت تاريخ فلسطين القديمة، وتجاهله التاريخ.

إن السعي نحو ايجاد تاريخ لما بعد - الاستعمار، ومنح صوت لعدد كبير من التواريخ التي حكم عليها أن لاتكون جزءا من التواريخ المعتمدة رسميا، ليس قضية "ضرب في جثة ديناصور ميت" كما يزعم "جيلنر"، لأن الاستعمار ليس ميتا طالما أن مزاعم التفوق وحق القوة في الهيمنة لاتزال قائمة في طنين خطابات الدراسات التوراتية، الطنين الذي التقطته وعززته الدراسات الإسرائيلية لحاضر فلسطين أيضا منذ العام 1947 وما بعده، محاكاة للخطاب الاستشراقي في محاولته "تمثيل" الفلسطينيين المعاصرين بصور تكاد تكون نسخا عن "تمثيل" هذا الخطاب لسكان أمريكا واستراليا ونيوزيلندة وكندا الأصليين. فهم حسب خطاب الاستشراق في نسخته الصهيونية لدى أمثال ياكوف شيموني وفاشيتس وبيني مورس:

"مجتمع بدائي متخلف، لم تكن لديه نزعة قومية متميزة، أما سبب الانهيار السريع للفلسطينيين في العام 1948 فهو عيوب فطرية متأصلة في مجتمعهم"(64)، وهي ثلاث مغالطات لا تقوم على استقراء تاريخي بقدر ما تقوم على تمثيل مستعار من جملة تمثيلات استشراقية دأبت على صناعتها الدوائر الاستعمارية لتبرير حروب الإبادة وسرقة أراضي سكان البلاد الأصليين، ويكفي للرد عليها الاستشهاد باعتراف لأستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة العبرية حاييم جيربر، انطلاقا من موقف نقدي للذات، يدحض أمثال هذه الأقاويل، ويبين في ضوء الوقائع التاريخية أن المجتمع الفلسطيني قبل الاحتلال البريطاني كان مجتمعا ناميا على الصعيد الاقتصادي والسياسي والفكري ومتحركا بمقاييس ذلك الزمن. أما أسباب انهيار المجتمع الفلسطيني في العام 1948 التي ينسبها جملة من أصحاب هذه المغالطات إلى عيوب متأصلة فلا ينتمي واحد منها إلى هذه العيوب، فهي "أسباب بعضها طارئ وبعضها نتاج الضعف البالغ في وجه خصمين هائلين، أحدهما إمبراطورية عالمية معادية بالمطلق للمجتمع الفلسطيني، والثاني قوة، وإن كانت صغيرة عدديا، إلا أنها رفدتها بشكل غير معتاد قوى اقتصادية وبشرية، ودعمتها قوى دولية متمكنة سياسيا واقتصاديا على حد سواء"(65). وكان الاحتلال البريطاني الطارئ على المجتمع الفلسطيني "قوة قمع وحشية فاقت

وحشية القمع النازي حسب وصف أحد الموظفين البريطانيين، وطال هذا القمع كل جوانب الحياة الفلسطينية (التعليمية والاقتصادية والسياسية) طيلة ثلاثين عاما، في الوقت الذي كان فيه هذا الاحتلال يقوم بدور الحاضنة لتنمية "دولة" الصهاينة الاستعمارية. وهكذا، حين جاء العام 1948، كانت معظم القيادات الفلسطينية بين قتيل أو سجين أو منفي"(66).

لقد أنتج هذا الطنين بناء للماضي والحاضر وواصل الدفاع عنه، ذلك البناء الذي يحط من قيمة ثقافات أصحاب الأرض الأصليين وتواريخهم. وما طنين الدراسات التوراتية إلا طنين الصهيونية المعاصرة نفسها في رفض الاعتراف بالقيم المتجذرة في ثقافة أصحاب الأرض الأصليين وحقهم في تاريخهم الخاص بهم.

على صعيد مقاومة هذا الواقع المصطنع واكتساب تصريح بتقديم رواية فلسطينية معاصرة، كما يقول وايتلام، فشلت الجهود التي قام بها أنطونيوس ومصلح وطيباوي والخالدي وأبو لغد وإدوارد سعيد وأخرون في تخليص الماضي القديم من قبضة الغرب وإسرائيل الخانقة. وتتلخص هذه الوضعية بكتابات إعادة النظر، مثل كتابات بوفر ستوك القائلة بأن المرحلتين الرومانية والبيزنطية تحظيان باهتمام جديد في المنطقة كمحاولة لاستعادة جزء من التاريخ المستبعد. والملحوظ أنه يطلق على هذه المرحلة اسم نهاية "المرحلة التوراتية" حتى ظهور الإسلام. وهكذا فإن الماضي الفلسطيني، أي المرحلة السابقة على الرومانية والبيزنطية متروك للغرب وإسرائيل. بل وتلقي إسرائيل القديمة المخترعة بظلها حتى على المراحل السابقة، فتصبح مراحل "ما قبل تاريخ إسرائيل".

لقد شكلت الدراسات التوراتية تراتبيات معقدة من سلطة عسكرية واقتصادية وبحثية، ينكر فيها على الفلسطينيين حقهم في الحضور التاريخي والمعاصر على حد سواء. وحتى حين يشير عدد كبير من الباحثين إلى المنطقة في تلك العصور القديمة بوصفها فلسطين، بما في ذلك استخدام تعابير مثل "اقتصاد فلسطيني" و"مرتفعات فلسطينية" و"ساحل فلسطيني"، يظل السكان مجهولي الاسم والهوية، أو يصنفون تحت تسمية عرقية تعزز الافتراض القائل أنهم تخلفوا وتجاوزتهم إسرائيل. ويشتكي إدوارد سعيد من أن أحد أكبر نجاحات الصهيونية هو "غياب تاريخ موسع لفلسطين العربية وشعبها، ويبدو الأمر كما لو أن شبكة العنكبوت الصهيونية خنقت الفلسطينيين وحجبتهم، ليس عن العالم فقط، بل وعن أنفسهم أيضا".

ولكن إخراس التاريخ الفلسطيني، كما يقول وايتلام، أكثر عمقا مما يقدر سعيد، فاهتمامه منصب على تاريخ فلسطين المعاصر كرواية مضادة للتواريخ الصهيونية والتواريخ المتأثرة بها، تلك التي

تتعامل مع القرن الثامن عشر وحتى الآن، إلا أن بحث أوروبا عن ذاتها الذي أخذته الصهيونية وعززته في سبيل إعطاء شرعية لجذور لها في الماضي، محا تملك الفلسطينيين لمراحل أواخر عصر البرونز وأوائل عصر الحديد (عصري ازدهار الحضارة الكنعانية)، وبلغ هذا المحو من الشمول حد أن فكرة تاريخ لفلسطين القديمة لم تعد موضع عناية وتأمل الكتاب المعاصرين الذين تعنيهم مواجهة تواريخ الصهيونية للزمن الراهن.

إن ثقل الصمت الفادح يسيطر على كل الدراسات المتعلقة بالتوراة، وأي اعتراف بالسياق الذي يعمل فيه المؤرخون وعلماء الآثار التوراتيون، أي سياق الصراع المعاصر على الأرض وتقرير المصير، غائب. وإذا حضر، فإنما يحضر على شكل تحسر على هذه الأرض المضطربة والأمل في سلام شعوبها.

ومع ذلك، بدأت بواكير مناقشة موضوع إسرائيل القديمة مع تزايد أعداد الباحثين الذين يضعون تفسير معطيات علم الآثار المستلهم من التوراة موضع تساؤل. فمثلا كان الافتراض المهيمن منذ أيام "آلت" و"البرايت" أن نمو المستوطنات الفلسطينية في المرتفعات يتماهى مع ظهور الإسرائيليين، ولكن الأبحاث الجديدة تظهر أن سكان هذه المستوطنات هم من سكان البلاد الأصليين. وأصبح مصطلح "إسرائيلي" عندما يستخدم لوصف هذه المستوطنات بلا معنى كما يكشف توماس تومسن حين يقول "أنه لمن المضلل الحديث عن صفة "إسرائيلي" في السياق الآثاري لعصر الحديد الأول في فلسطين". ووفرت معطيات علم الآثار عن تلك العصور معلومات قيمة حول السكان والمستوطنات والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي للمجتمع الفلسطيني. وأصبح كل هذا يطرح مسألة ميلاد تاريخ فلسطين القديمة، لأن البحث لايزال، رغم كل المعطيات، يحاول استبدال مصطلح "سكان المستوطنات" بمصطلح "سكان إسرائيليين"، وهذا الاستبدال لايعدو كونه أداة خطابية طنانة تحاول الإبقاء على التنكر للتاريخ الفلسطيني وإبقاء السكان مجهولي الاسم. ومع ذلك هناك من يشير، مثل "هـ. فيبرت" إلى أن معطيات التاريخ الحاسمة وما تثيره من مشكلات في علم الآثار الفلسطيني لهذه الفترة، تقوض التحقيب المجزأ للإنشاءات القائمة على أساس التوراة. وتظهر المكتشفات الأثرية أن شبح "إمبراطورية إسرائيل" الذي نشأ نتيجة إسقاط صورة دولة إسرائيل الراهنة على تلك العصور البعيدة قد شوه تماما التمثيل الواقعي لتاريخ المنطقة.

ويختتم "كيث وايتلام" بحثه بالقول "إن الصراع من أجل الماضي الفلسطيني لايزال في بدايته، ومن الضروري لكي ينجح، فضح المصالح السياسية والدينية التي كانت الحافز وراء اختراع

إسرائيل قديمة في خطاب الدراسات التوراتية. وسيحتاج هذا الصراع إلى شق مسار خاص به والمساهمة في استعادة السكان الأصليين لصوتهم الذي أخرسه اختراع إسرائيل قديمة".

إشارات

1- Linda Tuhiwai Smith, Decolonizing Methodologies: Research and Indigenous Peoples, Zed Books Ltd, London & New York, University of Otago Press, Dunedin, 1999, p.34
2- Lawrence Davidson, op.cit.p.104
3- Neil A. Silberman, Visions of the Future: Albright in Jerusalem, 1919-1929, The Biblical Archaeologist, Vol. 56, No.1, Celebrating and examining W. F. Albright (Mar, 1993) p.10
4- Neil A. Silberman, Desolation and Restoration, op.cit.p.80
5- Jacob J. Finkelstein, The Study of Man: The Bible, Archaeology, and History, Commentary Magazine, Vol. 27, No. 4 (April, 1959) pp.341-350
6- إليزابيث بيرغوين، جيرترود بيل من أوراقها الشخصية: 1914- 1926، ترجمة وتحرير وتعليق نمير عباس مظفر، تقديم عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ص84.
7- جان بول سارتر، تصدير كتاب "المعذبون في الأرض"، فرانز فانون، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1963، ص15.
8- Edward W. Said, Culture and Imperialism, Vintage, London, 1994, p. 31
9- Ibid.p.12
10- Lawrence Davidson, op.cit.p.106
11- د. مروان فارس، الآداب البيروتية، نوفمبر، 1983

12- A Conversation with Jorge Luis Borges, Artful Dodge Magazine, Ohio State, April 25, 1980

13- IIan Stavans, Comments on Borges's response to Hitler, Modern Judaism, Oxford Journals, 23.1 (2003) p.1

14- نشرت هذه الوثيقة في مجلة المركز البابوي في الفاتيكان "أوسرفاتوري رومانو" في 25 حزيران 1985، وحملت توقيع الكاردينال جيوفاني ولبراندز ونائبه بيير دوبري وسكرتيره جورج ميبه. وتناولناها آنذاك مترجمة إلى العربية في مقالة حملت عنوان "الفاتيكان يتبنى أسطورة أرض الميعاد" نشرت في صحيفة "القبس" الكويتية في 1985/10/16

15- كنتر كراس، بحسب التقدير التقريبي، مجلة "ثقافة الهند" المجلد 26، العدد 3- 4 1975، ص.51

16- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، ترجمة د. زكي نجيب محمود، مراجعة د. أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1967، ص.15

17- جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الأول، ترجمة د. جورج طعمة، مراجعة برهان دجاني، تقديم د. محمد حسين هيكل، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت – نيويورك،1965، ص.105

18- المرجع السابق، ص250.

19- المرجع السابق، ص253.

20- المرجع السابق، ص254.

21- Walter Lacquer, The History of Zionism, Tauris Parke, New York, 2003, p. 189

22- Bruce G. Trigger, Archaeology and the Image of the American Indian, American Antiquity, Vol. 45, No.4 (Oct.,1980) p.663, Published by: society for American Archaeology

23- أسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، الجزء الثاني، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1964، ص291.

24- المرجع السابق، ص299.

25- Suzanne Marchand, op.cit.p.467

26- Linda Tuhiwai Smith, op.cit.p.25

27- إرنست دوبلهوفر، رموزومعجزات: دراسة في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة الكتابات واللغات القديمة، ترجمة وتقديم د. عماد حاتم، الدار العربية للكتاب،ليبيا – تونس، 1983، ص.227

28- أندريه مالرو، لامذكرات، الجزء الأول، ترجمة فؤاد حداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص.63

29- سانت جون فيلبي، أرض الأنبياء: مدائن صالح، تعريب عمر الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، 1962، ص.5

30- المرجع السابق، ص.6

31- المرجع السابق، ص.7

32- المرجع السابق، ص.40

33- Richard Hall, Empires of the Monsoon: A history of the Indian Ocean and its invaders, Harper Collins Publishers, London, 1996, p.157

34- إرنست بلهوفر، ص.56

35- المرجع السابق، ص.137

36- المرجع السابق، ص.138

37- المرجع السابق، ص.174

38- توركيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدي، دار العودة، بيروت، 1983، ص.23

39- المرجع السابق، ص.24

40- المرجع السابق، ص.25

41- المرجع السابق، ص.71

42- المرجع السابق، ص192.

2

43- روجيه غارودي، حوارالحضارات، ترجمة د.عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت – باريس، 1978، ص39.
44- Arnold Toynbee, A Study of History, The one-volume edition, Thames and Hudson, Oxford University Press, 1988, p. 10
45- Martin Bernal, Black Athena: The Afroiasiatic Roots of Classical Civilization, Vintage, London, 1991, p. 415
46- صموئيل نوح كريمر، السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د. فيصل الوائلي، منشورات وكالة المطبوعات، الكويت، 1973، ص152 وص168.
47- صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية: دراسة في المنجزات الروحية والأدبية في الألف الثالث قبل الميلاد، ترجمة يوسف داود عبد القادر، منشورات جمعية المترجمين العراقيين، بغداد، 1971، ص148. وكذلك، إي. رويستن بايك، قصة الآثار الآشورية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مراجعة لطفي الخوري، منشورات جمعية المترجمين العراقيين، بغداد، 1971، ص126.
48- روجيه غارودي، ص 8
49- Kamal Salibi, op.cit.p.1
50- Thomas L. Thompson, op.cit.p.12
51- Philip C. Hammond, Reviewed Works, The Bible came from Arabia by Kamal Salibi, International Journal of Middle East studies, Vol.22, No. 3 (Aug,1990) p. 344
52- Hisham H. Ahmed, Palestine or ‘Asir, Reviewed Works, Secrets of the Bible people by Kamal Salibi, Journal of Palestine Studies, Vol. 18, No. 3 (Spring, 1989) p. 151
53- Ibid. p. 151
54- Kamal Salibi, Secrets of Bible People, Brooklyn, NY: Interlink Books, 1988, p. 23
55- Lawrence Davidson, op.cit.p.105
56- بديعة أمين، قراءة أولية في كتاب " التوراة جاءت من جزيرة العرب"، مجلة آفاق عربية، السنة الثانية عشرة- آذار 1987، ص110.
57- المرجع السابق، ص111.
58- د. كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، الطبعة العربية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،1985، المقدمة، ص12-13.
59- Arthur Koestler, The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and its Heritage, Picador, London,1976, p.175
60- Ibid.p.198
61- Ibid.p.175

62- Ibid.p.196

3

63- Keith W. Whitelam, op.cit.
64- Haim Gerber, Zionism, Orientalism, and the Palestinians, Journal of Palestine Studies, Vol. 33, No. 1 (Autumn, 2003) p.25
65- Ibid.p.36
66- Ibid.36-37

الفصل السابع

القدس في المخيلة الاستعمارية

في معرضَ نقدها لنهج الحفرياتِ الأثريةِ الذي هيمنَ على مجالِ علم الآثار الفلسطيني- السوري، تشير الباحثة كارول ميريز إلى "أن جدولَ أعمال النصوص هو الذي حدّد جدولَ أعمال حفرياتنا"(1). ويمكن أن أضيف بناءاً على قراءاتي في ماكتبهُ عددٌ كبيرٌ من الباحثين والمنقبين في هذا المجال، أن الخيالَ لعب دوراً أوسع في تحديد جدول أعمال الحفريات وقراءة ما يعثر عليه المنقبون. وأضيف أيضاً مع الباحث كيث وايتلام، أن "صياغة المفاهيم وتمثيل الماضي هنا تكتنفهما الصعوبات، ليس لمجرد قلة وإبهام المعطيات، بل لأن إنشاء التاريخ، سواء كان مكتوباً أو شفهياً، وسواء كان تاريخا للماضي أو الحاضر، هو فعل سياسي"(2)

ولكن الأكثر لفتاً للنظرأن خطاب الاستشراق الغربي الغالب في تعامله مع حاضر وماضي فلسطين والوطن العربي عموما، جمع هذه السمات الثلاث على صعيد واحد. فهو باعتماده أولا على حكايات النص التوراتي، وثانياً على خيال المهووسين بهذا النص إلى حدّ إصابتهم بلوثةٍ عقلية اصطلحوا على تسميتها باسم "لوثة أورشليم" (3) وثالثاً على استراتيجيات السياسات الاستعمارية، وضع جدولَ أعمال التنقيب والبحث والتفسير، ولم يعد قادراً على قراءة العاديات الأثرية خارج هيمنة واستبداد هذا الثالوث العجيب.

وقصة هذا الخطاب الذي يغذّي خيالَ عامة الناس والباحثين والأدباء والرسامين والرحالة والمغامرين العسكريين القادمين من الغرب إلى وطننا العربي يمكن أن ترويها بتركيز وجلاء أكثر حكايتهم مع القدس العربية.

ولنبدأ بمخيلةِ الشاعر الإنكليزي وليم بليك وكيف تصوّر القدس وأسقطها على إنكلترا، ثم تمازج هذا الخيال مع نصّية مشروعات صندوق استكشاف فلسطين، وتجسد في ما بعد على الأرض في مشروع استعمار فلسطين.

بالطبع، القدسُ العربيةِ في خيال بليك هي" اورشليم" التوراتية، وتحت هذا التصور نظم قصيدة له شهيرة باسم" اورشليم" أسقط صورتها في البداية على إنجلترا:

لن أتوقف عن الكفاح الفكري
لا ولن ينام سيفي في يدي
إلى أن نبني أورشليم
في أرض انكلترا الخضراء السعيدة

بدأ بليك بنظم وطباعةِ نسخ من قصيدته هذه بطريقة الحفرفي العام 1804، وعدتْ من أكثر قصائده التنبؤية أهمية، وتخطتْ في النهاية عنوانها لتصبح أكثر أعماله قدرةً على البقاء؛ لقد أصبحت صرحاً إنكليزيا تقدم كترنيمةٍ في المناسبات الكبرى في كل صيف. وفهم الجمهورُ هذه القصيدة كلٌ على شاكلته؛ لدى بعضهم كانت حلماً بجنةِ عدن ريفية وتعهداً قويا بإعادة بناء اورشليم السماوية على الأرض، ولدى آخرين استحضاراً لأخيولة طوباوية عن انكلترا اشتراكية تخيلها الفنانون بدءا بوليم مورس وانتهاءا بموريسي الذي كان كثيراً ما يصعد إلى خشبة المسرح في جولاته الغنائية وترنيمة اورشليم تصدح في خلفية المشهد. أما بالنسبة لأولئك الذين كانت تثيرهم بسهولة فخامة قاعة ألبرت الملكية، فكانت القصيدة تحتشد بعظمة إنكلترا الإمبراطورية بمرارتها وحلاوتها، وتثير فيهم الأملَ في أن المجد مازال في متناولهم. ولاشك أن هذا هو السبب وراء اختيار القصيدة كنشيد رسمي لفريق كرة القدم البريطاني في مباريات اوروبا في العام 2000.
كل هذه " الأورشليمات"، العلمانية والدينية والإشتراكية والقومية، تشترك في سمة واحدة؛ إنها تبدو، برسوخها في التربة الإنكليزية، وكأنها لاتملك إلا القليل تفعله بشأن سميتها "الأصلية" حسب تخيلهم في الشرق الأوسط. ولكن حين نعود إلى رؤيا بليك ذاته وجذورها في ثقافة تسعينات القرن الثامن عشر، كما دفع النقادُ طويلا، نكتشف أنه كان يتخيل بناءَ اورشليم هذه في انكلترا الخضراء السعيدة في الوقت نفسه الذي كانت فيه إنكلترا تتحرك وتقترب أكثر وأكثرمن القدس العربية في فلسطين، أو أورشليم كما في مخيلة مفسري التوراة(4)
وبالفعل، فإن الأحداث المضطربة ذاتها التي أعادت الأمل بأورشليم العدالة الإجتماعية في الأوساط الراديكالية في انكلترا، وتحديداً أحداث الثورة الفرنسية وحروب نابليون، كانت بالقدر نفسه أداة تؤشر على مرحلة جديدة من الإنخراط الإنكليزي في قضية الأرض المقدسة. ففي حزيران 1799 شاركت قوات فرقاطة بحرية ملكية المدافعين العثمانيين عن عكا في دحر قوات نابليون بونابرت. وستلتفتُ بريطانيا، الحريصة على حماية طريقها إلى الهند، من الآن فصاعداً إلى فلسطين التفاتا متزايداً مدفوعة بمصالح استراتيجية وسياسية وإقتصادية ودينية متشابكة. ولهذا كان أمراً عادياً، على سبيل المثال، أن تشهد أعمال صندوق استكشاف فلسطين البريطاني الذي تأسس في العام 1865 لمسح الأرض الفلسطينية ورسم خرائطها، رجالَ دين يعملون جنبا إلى جنب مع الضباط العسكريين (بل وأن يرجع العسكريون من أمثال كيتشنر وكوندور إلى الأسماء الجغرافية التي ألصقها لاهوتيون في القرن الرابع الميلادي، أمثال اوسبيوس مطران قيسارية، بالأرض الفلسطينية)، ويعلن أسقف يورك الذي افتتح أعمال صندوق الاستكشاف بعبارة واضحة الرؤية والهدف:
"هذا البلد فلسطين ينتمي لكم ولي، إنه لنا من حيث الجوهر. لقد مُنح لأب إسرائيل بهذه الكلمات "إمش في الأرض طولا وعرضاً، لأنني سأعطيكَ إياها"، وغايتنا أن نمشي في فلسطين طولا وعرضاً، لأن هذه الأرض أُعطيت لنا.. إنها الأرض التي يمكن أن ننظر إليها بروح وطنية صادقة كما ننظر إلى هذه الانكلترا العجوز الغالية التي نحبها حباً جماً"(5)
والواضح أن وزارة الحرب أسعدتها سعادة بالغة رعايتها لمشروعات الصندوق؛ لقد تعزّزت تعززاً كبيرا أهمية فلسطين الإستراتيجية مع افتتاح قناة السويس في العام 1869، واحتلال مصر في العام 1882. وتُوّج التغلغلُ البريطاني التدريجي في ديسمبر1917، إثر معركة دامية في تلال فلسطين الشرقية، بأن قاد الجنرال اللنبي الجيش البريطاني المنتصر إلى القدس (متخيلا أنها "اورشليم"). وسنجد بعد بضعة أشهرنشيدَ وليم بليك الذي وضع موسيقاه السير هربرت باري يقدم للمرة الأولى أمام حشد جماهيري واسع.
وفي مكان آخر، يلاحظ جان ويتكي أن قصيدة وليم بليك هذه نبذها النقادُ فور نشرها في العام 1811، واعتبروها قصيدة مخبولة، ولاحقا ظلّ حتى النقاد الذين أدخلوها في عالم الأدب يعتبرونها

شظايا قصيدة وليست قصيدة كاملة. ولم تكتسب قيمتها إلا في عشرينات القرن العشرين، أي بعد الإحتلال البريطاني لفلسطين(6).

*

نأتي الآن إلى مخيلة رسام من وزن الرسام الهولندي رمبرانت. أنتج هذا الرسام أكثر من 70 رسماً دينياً تعكس الميل الهولندي إلى تفسير قصص التوراة بتعابير سياسية ودينية معاصرة، وتنقل حدثاً توراتيا من مدينة فارسية إلى القدس، باستخدام تقانة الحفر والطباعة استجابة لسوق هولندي مزدهربالموضوعات الدينية. واستُخدمت هذه الأعمالُ المنشورة كمجموعاتٍ من قبل المستهلكين كرسوم إيضاحية ترافقهم في القراءة اليومية للكتب المقدسة التي كانت من سمات القرن السابع عشرفي شمالي الأراضي الواطئة. وفي هولندا البروتستانتية، اهتم الناسُ الذين تماهوا بقوة مع العبريين القدماء، والذين رأوا في أنفسهم ورثة "ميثاق إسرائيل مع الله"، بالعهدِ القديم كما بالعهد الجديد، واستعاروا بحريةٍ بالغة قصصاً وأبطالا من التوراة العبرية كي يمنحوا معنى لحياتهم الأرضية والروحية على حد سواء.
الأبرزُ بين هذه الرسوم تمثيلُ رمبرانت لحدثٍ شائع من أحداث "سفر أستير" في رسمٍ أطلقَ عليه اسم "انتصار مردخاي" طُبع في العام 1642، يروي قصة إنتصار مردخاي، عم أستير اليهودية زوجة الملك الفارسي، على مؤامرة وزيره هامان للإيقاع به، وتجلّى هذا الإنتصارباكتشاف الملك أن مردخاي أنقذ حياته، فأمر بتكريمهِ في موكب جماهيري على أن يقود حصانه الوزيرالمتآمرذليلا مهاناً.
عكست هذه القصة وتمثيلها الميلَ الهولندي نحو تفسير قصص العهد القديم على أرضية الإهتمامات السياسية والدينية المعاصرة، ورمزالرسمُ إلى المثل الوطنية للمقاطعات المتحدة بوصفها "أورشليم" جديدة. وفُسّرت القصة على الأرجح، في ضوء الإهتمام الواسع الذي حظي به تمثيل رمبرانت لهذه القصة الشائعة في شمالي الأراضي الواطئة، في سياق النزاع العسكري مع اسبانيا الذي لم يتوقف إلا مع توقيع معاهدة وستفاليا في العام 1648 بعد مذابح الأوروبيين الدينية طيلة أكثر من ثلاثين عاماً.
لقد قرأ الهولنديون في هامان القصةِ اسبانيا الكاثوليكية (أرض عبدة الأصنام كما تصوراللاهوتيون البروتستانت آنذاك)، وفي مردخاي وأستيرصورة مواطني هولندا المتسامحين العادلين الذين انتصروا على العاهل الإسباني وحفظوا المقاطعات المتحدة، أورشليم الجديدة.
على أن اللافتَ للنظر بعد كل هذا التماهي والتمثيل، أن رمبرانت ينقل مكانَ الحدث (عاصمة الملك الفارسي سوسة) إلى القدس العربية، ولايجد ما يستوحي منه الصورة المتخيلة للمعبد التوراتي الخيالي إلا مسجد قبة الصخرة، متابعاً في ذلك تقليداً ساد منذ عصر النهضة الإيطالية في استخدام قبة الصخرة لإستحضار صورة ذلك المعبد في رسوم الحفر والطباعة.
ويشير الاستنادُ إلى المصادر إلى أن ربط رمبرانت لقصة أستير بالمعبد كان يجد أرضيته في التفسيرات المسيحية (البروتستانتية بخاصة) واليهودية على حد سواء. ولابدّ أن رمبرانت كان واعياً بالأهمية الخاصة لموضوعةِ أورشليم وقصة أستير في الثقافة الهولندية. فمع اعتزاز الهولنديين آنذاك بأنهم"إسرائيليون" قدماء كانوا يشيرون أيضا إلى "إمستردام" والمقاطعات المتحدة بوصفها أورشليم جديدة، أو الأرض التوراتية الموعودة.
في ضوءِ هذه الإستعارة، يمنح استحضارُ المدينة المقدسة في مشهدٍ من مشاهد القصة "إنتصار مردخاي" صلة بالعصر الراهن فعالة، ليس باستحضارها في العاصمة سوسة كما قيل في التوراة، ولكن في إمستردام القرن السابع عشر أيضا. وهي قراءة كانت ذات معنى كبير أيضاً بالنسبة

للهولنديين اليهود الذين فرّوا من الجزيرة الإيبيرية، ورأوا في معاناتهم، هم الذين أجبروا في اسبانيا على اعتناق الكاثوليكية، معاناة العبريين أنفسهم في زمن أستير، فتماهوا معهم، ورأوا في إمستردام "أورشليم" الجديدة ومكانَ لجوءٍ وتسامح وحياة جديدة(7).

*

لم يكن مهماً بالنسبة للإثنين، الشاعر والرسام، معرفة واقع هذه المدينة في ماضيها وحاضرها، القدس التي أسقطوا عليها صورة "أورشليم" التوراتية، أو لم يكن يعني لهما هذا الواقع شيئا، مادامت المعرفة اللاهوتية التي تقدمها التوراة كافية في نظرهما وفي نظر الجمهور الواسع من المؤمنين بأن النص اللاهوتي يعكس الجغرافية والتاريخ بأمانة.
وسيجد هذا الإيمانُ صداه في كل المشروعات الاستعمارية بدءا من مشروع كولومبوس للدوران حول الكرة الأرضية والوصول إلى القدس في القرن الخامس عشر، وصولا إلى مشروع الحركة الصهيونية في إحتلال فلسطين وإبادة سكانها في القرن التاسع عشر، اولئك الذين كانوا يسكنون أرضاً "خالية " وغير "موجودين" في الوقت نفسه في نظرالقادمين بحماية حراب الإمبراطورية البريطانية. هذه الذروة الأخيرة يلخصها أوفى تلخيص المؤرخُ إيلان بابيه، وهو أحد أبناء أسرة ألمانية يهودية هاجرت إلى فلسطين في ثلاثينات القرن العشرين، وعمل محاضراً في جامعة حيفا فترة من الزمن، قبل أن يهاجر إلى بريطانيا ويعمل في جامعة اكستر منذ العام 2007، في مطلع كتابه" تطهير فلسطين عرقيا"؛ إنها ذروة مشروع إبادة تضمنه المشروع الصهيوني منذ إنطلاقه.
يقول إيلان بابيه، أن غالبية قادة الحركة الصهيونية ربطوا بين حركتهم القومية التي ظهرت في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر في وسط وشرقي أوروبا، وبين استعمار فلسطين، وظلّ آخرون بما فيهم مؤسس الحركة تيودور هيرتزل متأرجحين، ولكن بعد موت المؤسس في العام 1904، تثبت إتجاه الحركة نحو استعمار فلسطين وحظي بالإجماع، وإدعى الزعماء الصهاينة ملكية الأراضي التوراتية وأعادوا خلقها أو اخترعوها بالأحرى، في سياق "قومنتهم" للديانة اليهودية، كمهد لحركتهم القومية الجديدة. وفي ضوء هذه الرؤيا كانت فلسطين في نظرهم أرضاً يسكنها"غرباء"، ويجب أن يعاد امتلاكها. وعنوا بالغرباء هنا كل من هوغير يهودي يعيش في فلسطين منذ الفترة الرومانية.
ويرى بابيه أن الكثير من الصهاينة حين وصلوا إلى فلسطين في العام 1882، لم يروا فيها حتى أرضاً "محتلة"، بل كانت أرضا "خالية"؛ أهلها الفلسطينيون الذين يعيشون فيها كانوا في نظر هؤلاء"لامرئيين"، أو إذا لم يكونوا كذلك فهم ظاهرة طبيعية مؤذية، ولذا يجب التغلب عليهم وإزاحتهم عن أرضهم. ويجب أن لايقف شيء، لاالحجر ولاالفلسطينيون، في طريق "الإنبعاث" القومي للأرض التي اشتهتها الحركة الصهيونية (8).
وبالعودة إلى كولومبس، فمن الشائع عن رحلته البحرية أنها إنطلقت غرباً بهدفِ استكشاف طريقِ الى ثروات الهند عبرالمحيط الأطلسي، ووقعت بالمصادفة على العالم الجديد، أي الأمريكيتين، وهناك اكتفت إسبانيا بهذه الغنيمة، تاركة الشرق للبرتغال ومن تبعهم من غزاة هولنديين وفرنسيين وإنكليز. ولكن دراسة فريدة من نوعها للباحث عباس الحمداني في العام 1979 ألقت ضوءا جديدا هو الأول من نوعه على هذه الرحلة وأهدافها، وهذا تلخيص موجز لهذه الدراسة (9):
لاحظ الباحثُ، بعد قراءةِ يومياتِ كولومبس والدراساتِ التي نُشرت حولها، أنها تشير إلى مشروع كولومبس الحقيقي الذي ولد في ظلِّ إيمانٍ قروسطيّ حافظ على حلّ مشكلاته بالتوسع، ولكن هذه

المرة بالدوران حول الأراضي الإسلامية والوصول إلى الهند. فإذا لم "يعد ممكناً إنتزاع الضريح المقدس في اورشليم من قبضة الأتراك بالوسائل العادية، فليكن مسعى أوروبا إلى وسائل جديدة في ما وراء البحار، وسيكون كولومبس حاملُ رسالة المسيح الأداةَ المتواضعة لتجديد أوروبا" على حد تعبيرصوموئيل موريسون. وشدد أنطونيو باليستيروس على دوافع كولومبس في البيئة الصليبية التي شاعتْ في إسبانيا القرن الخامس عشر. وأشار الباحثُ الحمداني إلى أن واشنطن إيرفنج أول من لفت الإنتباه إلى "هدف كولومبس الصليبي باحتلال أورشليم "، ولخص أهدافه بثلاث مراحل تتبع إحداها الأخرى؛ اكتشاف العالم الجديد وهداية الأغيارواستعادة الضريح المقدس.
إلا أن إيرفنج شأنه في ذلك شأن الباحثين المشار إليهما لم يذهب عميقاً في استكشاف العلاقة بين الرحلة غرباً واستعادة الضريح المقدس. ولكن الباحث جون فيلان في السنوات الأخيرة قدم دراسة عن علاقة كولومبس بطائفة الفرنسيسكان وتطوّرعقليته في ضوء هذه العلاقة. ويعتقد فيلان أن المثال الصليبي التقليدي كان دافع كولومبس مابين العامين 1492 و1498، إلا أنه مابين العامين 1501 و1502 ربط الموروث الصليبي برؤيا آخروية عن نفسه كمخلص. أي أن فكرة غزوه للقدس كان فكرة رمزية.
هنا يتقدم الباحث الحمداني، بعد تمحيص ماسبقَ من أفكار، برؤيتهِ عبر قراءة اليوميات والأحداث التاريخية ويتوصل إلى أن كولومبس لم يكن رجلَ خيال فقط بل كان رجلَ عملٍ أولا. ومن هنا "كانت رغبته الحقيقية هي الإنتزاع الفعلي لأورشليم" من أيدي المسلمين وشق طريقٍ جديد من أجل تحقيق هذه الغاية.
يقول الباحثُ إن الوصول لهذا الهدف كان وفق كولومبس يمر بثلاث طرق:
1- الإتصال بخان المغول الأكبرالمساند للمسيحية في الشرق، ذلك الذي يفترض أنه ذاهب إليه عبر المحيط غرباً. وسيؤدي هذا الإتصال بين المسيحية الغربية والشرقية إلى توحيد الكفاح لإستعادة اورشليم من حكم المسلمين.
2- إستخدام موارد الأراضي الجديدة المكتشفة في غزو أورشليم خلال ثلاث سنوات.
3- قوة الشخصية المسيحانية، قوة المخلص، التي رأى كولومبسُ ذاته فيها وفق تنبؤات عدد من القديسين أشاروا إلى أن المخلص سيأتي من إسبانيا.
ويتضمن هذا المشروع تطويقَ وسحقَ ماكان آنذاك يمثل قوة الإسلام المركزية، مماليك مصر وسوريا، حراس الأماكن الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة، الذين رأى فيهم العالم الإسلامي قادة له. كان المماليك هدفاً رئيسيا، فهم "مسؤولون عن أخذ أورشليم أخيراً في العام 1244، وانطاكيا في العام 1268 وعكا في العام 1291. وبهذا أجبروا الجيوش الصليبية على الجلاء تدريجيا عن شرقي المتوسط. إضافة إلى أنهم كانوا مسؤولين عن إحباط التحالف الكبير الذي كان السعي إليه محموماً بين البابا وأمراء المسيحية من جانب وبين خان قراقوم الأكبروبكين وإليخانات تبريز وبغداد من جانب آخر، التحالف الذي استهدف إعادة إحتلال القدس مشاركة. وجاء هذا الإحباط حين أوقف المماليكُ في العام 1260 إندفاع المغول، حلفاء المسيحية، غرباً في عين جالوت إيقافا لارجعة عنه.
كان هذا بعداً من أبعاد مخطط كولومبس، ولكن كان هناك بعدٌ آخر، ذلك هو البعدُ التجاري. فنظام المماليك يقع على طول امتداد طريق التجارة الدولي من الشرق إلى الغرب لأنهم يمسكون بالمناطق المحاذية للبحرالأحمر.وقد احتلّ السلطان المملوكي الأشرف بارسباي(1422-1438) قبرص في العام 1424، ووضع نهاية لمملكة صليبية قامت هناك لزمن طويل، واحتكر تجارة السكر وفرض رسوماً على التجارة الأوروبية مع الشرق مما أثار احتجاجات دول المدن البحرية الإيطالية. وتم خنق التجارة الأوروبية أيضا حين قُطع الطريق البري إلى الصين بعد العام 1368 حين غزا أباطرة أسرة منغ الصينية منغوليا وأواسط آسيا، وعزّزوا طريقاً تجارياً منافسا يبدأ من موانيء الصين الجنوبية عبر المحيط الهندي باتجاه الشرق الأوسط وشرقي أفريقيا تحت قيادة أمير البحر الصيني المسلم تشنغ

هو. وإنقطع أيضا الطريقُ البري جنوب بحر قزوين بعد أن تبنى إليخاناتُ فارس الإسلام، وترسخت سلطة التيموريين في آسيا في العام 1379. ولم يعد الطريقُ شمال بحر قزوين موضع نقاش بعد أن بدأت غزوات العثمانيين في أواسط أوروبا منذ العام 1389.

في ضوء كل هذا، لو عثرتْ اوروبا على طريقٍ تجاري جديد إلى الشرق لاستقلت اقتصادياً عن الشرق الأوسط الإسلامي. وبالفعل بدأ بعض الأوروبيين يفكر بأن حصاراً تجاريا للشرق الأوسط قد ينتج خنقاً اقتصاديا يؤدي في المطاف النهائي إلى سقوط البلدان الإسلامية سياسياً، وبهذا تتحرر أورشليم، ويُفتح الشرق الأوسط مرة أخرى للحملات الصليبية والإستعمار. ودافع عن هذه الفكرة بقوة أحد نبلاء البندقية المدعو مارينو سانودو، وقدّم إلى البابا جون الثاني والعشرين مخططاً في العام 1321 لتحرير المقدسات،يحتوي ضمناً مفهوم حملة صليبية جديدة، تبدأ بفرض حصارٍ بحري على مصريؤدي إلى انهيارها، على أن تتبعه موجتان من الإجتياحات العسكرية الأوروبية. هذه الغاية التزم بها البابا والمدنُ الإيطالية وحكامُ البرتغال وحكامُ إسبانيا وكولومبس ذاته. ولكن تنوعت شدة هذا الإلتزام بين هذا الفريق أوذاك.

وأعطى حدثان كبيران آنذاك حافزاً إضافيا لعمليةِ العثورِ على طريق جديد نحو آسيا؛ إحتلال العثمانيين للقسطنطينية في العام 1453، وأخذ غرناطة، آخر موقع إسلامي في إسبانيا على يد الإسبان في العام 1492. كان الحدثُ الأول هزيمةً صدمتْ العالم المسيحي وأنعشت النشاط الصليبي، وكان الثاني نصراً شجّع إسبانيا على ملاحقةِ العدو الإسلامي حتى عتبة بيته. وهناك في غرناطة، بعد إحتلالها ببضعة أشهر، تم التوقيع على مشروع كولومبس، ووضع العاهلان الإسبانيان عليه ختمهما.

ويشيرالكاتب الأمريكي لورنس ديفيدسن (10) إلى هذا النوع من الرؤى الاستعمارية، التي لاترى إلا ما ترغب في رؤيته وما يخدم مصالحها، في متابعته لسياق استكشاف فلسطين المكثف على يدِ علماء الآثار الغربيين، وبخاصة في العقد الأول من القرن العشرين بعد الإحتلال البريطاني بوقت قصير. فينقل عن ناشر مجلة علم الآثار التوراتي الصهيوني الهوى هيرشل شانكس قوله ".. نحن لانصلُ إلى الماضي بمجردِ الحفرِ عميقا.. الفهمُ يتضمن الإسقاطَ. نحن توقعيون. نحن لدينا فهمٌ مسبق لما وجدناه"

ويتابع ".. كان هذا العقدُ عقدَ نشاطٍ آثاري كبير مع تسهيل البريطانيين وتنظيمهم الوصولَ إلى البلد أمام علماء الآثار الغربيين.. وأعطت المادة 22 من وثيقة الإنتداب (وهي في الحقيقة وثيقة استعمار فلسطين) الحرية الكاملة لأعضاءِ عصبة الأمم في إجراء أبحاثهم الآثارية. ومع أن الولايات المتحدة لم تكن عضواً في العصبة، إلا أنها امتلكت مدخلا مفتوحاً مماثلا. واستجاب علماءُ آثار التوراة الغربيون بحماسة يشعلها "التوقع" و"الفهم المسبق"، وتحديداً " الفهم المسبق" بأن التوراة كانت صحيحة تاريخيا، "وتوقع" أن مدخل علماء الآثار الجديد إلى فلسطين سيثبت هذا.

ربما كان البريطانيون مدفوعين نحو تشجيع النشاط الأثري بكون النتائج ستعمّمُ على نطاق جماهيري الروابطَ التوراتية التي تربط المنطقة بتراثِ الغرب المسيحي- اليهودي. وكان المتصوّر أن فلسطين ذات صلة دينية- صوفية بالغرب. فهي في هذا التصور مولد يسوع و"الأرض الموعودة" للشعب اليهودي. وكان تأكيد هذا بوساطة علم الآثار التوراتي يعني الدفاعَ عن مزاعم حق الغرب في امتلاك المنطقة كما لاحظ نيل آشر سلبرمان. وتضمنتْ وثيقة تأسيس نظام الإنتداب (الإحتلال) الذي وضع المنطقة تحت الحكم البريطاني (أي المسيحي) وعينها أيضا كوطن قومي يهودي هذه المزاعم.

وهكذا يمكن أن يُنظر إلى علم الآثار التوراتي كأداةٍ لعقلنة السيطرة الإمبريالية.

أما بالنسبة لعلم الآثار التوراتي الأمريكي فسيعيد تنشيط عصر إفتتان قديمٍ بالأرض المقدسة. فمنذ أن وفد البيوريتان على أمريكا ، أقام الأمريكيون صلة مفاهيمية بين "أرضهم الموعودة" وفلسطين التوراتية. وخلال القرن التاسع عشر رعت أمريكا البروتستانتية عدداً من مشاريع الإرساليات في

الأرض المقدسة. ونظروا إلى إعادة الإستيلاء والسيطرة المسيحية على فلسطين كخطوة تقود إلى تحريرالأرض. وهكذا، بالنسبة للأمريكيين كما للأوروبيين، فإن فرض الإستعمار الغربي على فلسطين كان متصوراً على أنه نعمة إلهية إيجابية.. تؤكد عظمة المجتمع الغربي التي نُظر إليها أيضا على أنها من نعم الله. وكان من السهل خلال عملية إنشاءِ السيطرة قبولَ فكرة أن العرب سكان البلد الأصليين يجب تجاهلهم أو الحط من قدرهم. وسيلعب علم الآثار في الوطن العربي، وفي فلسطين بخاصة، دوراً في هذه العملية" (11).
وكان الغربيون قد "عقلنوا" مثل هذه الرؤية من قبل خلال حرب الإبادة المادية والثقافية التي شنوها على سكان القارة الأمريكية الأصليين، حين تعرض السكان الأصليون الذين أصطنعوا لهم تسمية الهنود الحمر "على مدى خمسمائة سنة لحملات غزو إسبانية وبرتغالية وفرنسية وهولندية وإنكليزية سلبتهم إنسانيتهم، وأنزلت بهم فنوناً عجيبة من القتل والتدمير، ونظرت إلى حياتهم ولغاتهم وأديانهم باحتقار.. وكان الإنكليز وحدهم الأكثر عنجهية وعدوانية وإصراراً على تدمير الحياة الهندية واقتلاعها من الذاكرة الإنسانية.. وهم وحدهم من جاء بفكرة مسبقة عن أمريكا نسجوها من لحم فكرة إسرائيل التاريخية (التوراتية المتخيلة)؛ فكرة إحتلال أرض الغير، واستبدال شعب بشعب، وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ، فاستنسخوا بذلك أحداثها وتقمصوا أبطالها وجعلوها قدرهم المتجلّي" (12).

*

كل هذه المشاريع استندَ وتغذّى على صورةٍ متخيلة للقدس وفلسطين، أي على خريطة لاتمت للتضاريس الأرضية بصلة، على رؤيا لجوهرٍ ثابتٍ لايتغير مع الزمن، لاتغيّرهُ أي نظرة جديدة إلى لتاريخ، ولا تغيّره مكتشفاتٌ آثرية، ولا أيُّ تقدم من أي نوع في مضمار أي علم من العلوم المعنية بالإنسان والمجتمع والطبيعة، وعلى غايةٍ تسعى إلى استعادة هذا الجوهر وتحويل المكان الواقعي إلى فضاءٍ خالٍ من سكانهِ ومعالمهِ الواقعية ليحلّ فيه هذا الجوهرُالمفترض أو يُفرض عليه ويتجسّد مادياً.
ويشرح الباحث نيل آشر سلبرمان هذا المنحى الخيالي- النصي بالقول:
"كان جوهرُ الأرض المقدسة التاريخي بالنسبة للكثير من الزائرين والمستكشفين أكثر جاذبية بكثير من واقعها الراهن. فبدءاً من خمسينات القرن التاسع عشربدأ علماءُ الآثار الغربيون بالحفر في الأرض للعثور على آثارٍ ملموسة لهذا الجوهر، لامجردَ الإنكباب على الخرائط.. للحفرأفضلية على الدراسة الجغرافية، فما ينتج عنه يمتلك أهميةً عاطفية ودينية يمكن مقارنتها بآثار وأكفان وعظام قديسي الأزمنة القديمة. فما أن يتم التعرّف على المدن التوراتية حتى يمكن أن تُبعث مادياً وتتخذ مكانها كمقاماتٍ في جغرافية مقدسة جديدة. وقدم الحفرُ في أورشليم بخاصة رسالة جلية. فقد عنت عناوينُ تقارير التنقيباتِ وملخصاتِ القرن التاسع عشر والعشرين التاريخية، مثل"إستعادة أورشليم" (ولسون ووارين 1871) و "أورشليم تحت سطح الأرض" (وارين1871 وفنسنت 1911) و "أورشليم الباطنية" (جودريش فرير 1904) ضمنياً ، بوعي أو من دون وعي، إن اورشليم المعاصرة اليوم ذات أماكن العيش والعمل والعبادة والأسواق كانت بطريقة ما وهماً، وأن أورشليم الواقعية ضاعت بطريقة ما، طُمرت أو أخفيت قبل وصول علماء الآثار الغربيين. ولم يكن تأثير مثل هذا النوع من الترميم التاريخي مجرد تأثير أكاديمي، فبوساطة استبدال جغرافية "توراتية" بمشهد قائم، كان يتم تحديد هوية جديدة للأرض تحديداً مؤثراً. إن حدود "أرض التوراة" كما حددها أولا

روبنسون، وبعد ذلك صندوق استكشاف فلسطين بمسوحاته لغرب فلسطين(لا أي تقسيمات سياسية عثمانية قائمة) برهنت على أنها كان حاسمة في تخطيط وتشكيل أرجاء فلسطين الإنتدابية بعد الحرب العالمية الأولى. وحتى في مابعد، في القرن العشرين، ساهمت مباديء الجغرافية التاريخية الأوروبية وبعد أن أنشأت الخطوطَ العريضة، على حشدِ الخريطة بالتفاصيل. فخلقت مصادقة حكومة الإنتداب على التبني الرسمي، ألسنياً وتاريخياً، لتسمياتِ الأماكن بالأسماء التوراتية(1929)، ثم تبني لجنة الأسماء الأكاديمية الإسرائيلية للأسماء العبرية، جغرافيةً معاصرة مختلفة جذرياً عن تلك المعروفة لدى سكان فلسطين ومستكشفيها في القرن التاسع عشر.. وبإعادة تصنيع جغرافية وتاريخ فلسطين على غرار صورة فهمها التوراتية، كان مستكشفو وعلماء قوى الغرب الكبرى أدواتٍ في الشرعنة الأيديولوجية لتحول إقتصادي وسياسي لايقلّ في مداه عن ماتحقق من نجاحٍ تام في مدن أمريكا التي حملت أسماء كنعان الجديدة وبيت لحم والناصرة واورشليم"(13) .

الرؤيا الثابتة هي الرؤيا اللاهوتية، ولكنها مع مطلع العصور الحديثة، ومع التطلع إلى استعمار فلسطين، ستصبح هي ذاتها الرؤيا الموجهة للسياسي والعسكري والمستكشف الجغرافي وعالم الآثار وعالم اللغات والمؤرخ والفنان.

يحلل د. جوزيف حجار في كتابه "أوروبا ومصير الشرق العربي" وثائقيا السعي الأوروبي إلى اقتطاع "مناطق نفوذ" خاصة في الشرق العربي بعد العام 1840، أي بعد أن نجح أن التحالف الرباعي الشهير(انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا) في تصفية القوة المصرية وفرض الوصاية على الباب العالي العثماني. وبدأت كل حكومة أوروبية بتقديم أو تأييد مشاريع تميل إلى إعطاء فلسطين عامة والقدس خاصة وضعاً من الإستقلال السياسي والديني تحت النفوذ والمراقبة المباشرة لأوروبا.

في هذا السياق برز مشروعان كبيران تحدثت عنهما مصادرُ معاصرة عديدة، ويبدو أن مؤرخي الأزمة الشرقية الكبرى في العامين1840 و 1841 تجاهلوا أو طمسوا هذين المشروعين المتعلقين بإسكان اليهود الأوروبيين في فلسطين وتدويل القدس وضواحيها. ويتناول د. حجار هذين المشروعين في إطارهما التاريخي الواقعي فيزعزع الكثير من الآراء السائدة، ويكشف بعض الجوانب المموّهة بعناية تحت مظاهر النشاط الديني والكنسي.

الواقعتان اللتان مهدتا لهذين المشروعين الخطيرين تتعلقان بالقدس تحديداً، وهما شراء المبشر نيكولايسن قطعة أرض في جبل الزيتون الذي يطلقون عليه اسم جبل صهيون لبناء هيكل عبادة، وتعيين قنصل انكليزي في القدس في العام 1838 ، كقاعدتين أساسيتين للنفوذ السياسي ـ الديني لبريطانيا في القدس. في متابعة هذه المشاريع لعب اللورد آشلي، وقريبه بالمرستون، أحد رؤوساء الوزارات البريطانية، دوراً فعالا. وتكشف مذكراتُ آشلي عن حلمه منذ العام 1838 باستعمار اليهود لفلسطين تحت الحماية الإنكليزية. ولم يكن هذا المشروع من وحي عبقريته، بل كان بريطانيون آخرون قد سبقوه في إطلاق هذه الأحلام، من أمثال جيمس بيتشنو الذي أصدر كتابا منذ العام 1800 ينادي فيه ببعث اليهود. في البداية كان صاحب الكتاب يأمل أن تكون فرنسا هي أداة العناية الألهية في تحقيق مشروعه، إلا أن فشل نابليون في استخدام اليهود كأداة سياسية دفع أمله إلى بريطانيا. كان التفكير واضحاً منذ البداية؛ سيكون تجميعُ اليهود في فلسطين وسيلة لتشكيل مستعمرة للإقتصاد البريطاني الآخذ في التوسع (14).

في سياق هذه الرؤيا الثابتة ستتوالى مشروعاتٌ مرافقة؛ فرضَ خريطة توراتية على الأرض الفلسطينية في العام 1838 على يد لاهوتيين من أمثال الأمريكي إدوارد روبنسون، والتخطيط لاستكشاف فلسطين من منظور الإستيلاء على الأرض كما تجلى في خطاب صندوق استكشاف فلسطين البريطاني الذي أشرنا إليه، وإشاعة رؤيا عممها مبتدع مصطلح" علم الآثار التوراتي" وليم فوكسويل البرايت، مفادها إن الأرض التي انبسطت أمام عينيه حين دخل القدس بعد الاحتلال البريطاني مباشرة " هي ذاتها الأرض التي انبسطت أمام عيون الآباء العبريين"(15).

*

ورد ذكر أخبار خريطة اللاهوتي إدوارد روبنسون في عدة مصادر، أقدمها كتاب لعالم الآثار الإيرلندي ماك آلستر(1920)، وأحدثها ما كتبه نيل آشر سلبرمان، وآخرها ما ورد في كتاب إدوارد فوكس (2001). يأخذ آلستر على خريطة روبنسون أنها لم تكن معنية بأي معرفة قائمة على تنقيبات علم الآثار ولا على تمكن ألسني من اللغة العربية ولا بأي دراسات أنثروبولوجية أو اجتماعية أو طبيعية (16) . بينما يلاحظ عليه سلبرمان أنه جاء حسب تعبيره" ليفتح لأول مرة كنوز الجغرافية التوراتية التي رقدت طيلة قرون بلا اكتشاف، فتراكمت عليها قمامة وغبارُ قرون عديدة، بحيث نُسي حتى وجودها". ويعلق سلبرمان "..ومع أن "القمامة والغبار" (وهما التقييم الأوروبي المشترك لثقافات فلسطين المعاصرة) يمثلان تاريخاً من المؤكد أنه ليس أقل معنى لسكان البلد من عصوره القديمة، إلا أنهما بالنسبة لروبنسون ومن تابعه مجرد عائق غير سار يجب محوه"(17)
ويربط إدوارد فوكس بين الدوافع البروتستانتية التي ألصقتْ روبنسون بحرفية التوراة وبين انتهاكه لمبدأ أولي من مباديء الجغرافية؛ إن المشهد الطبيعي أكثر أهمية من الخريطة، وبدلا من ذلك رأى الخريطة التوراتية أكثر أهمية من المشهد. وينقل اعتماداً على روبنسون أن رحلته إلى الأرض المقدسة كانت استيفاءً لطموحه الحياتي، وهو طموحٌ نتج عن تجربة نشأته في ثقافة نيو انجلند، حيث ارتبطت أسماء مثل سيناء واورشليم وبيت لحم والأرض الموعودة بذكرياته المبكرة ومشاعره. ويقول فوكس أن جغرافية الأرض المقدسة، وهي مفهوم تجريدي لاعلاقة له بجغرافية فلسطين الواقعية، كانت بالنسبة لملايين الأمريكيين من مختلف التوجهات متراكبة مع جغرافية شمالي أمريكا. فالمستعمرون الأوائل في القرن السابع عشراستوردوا معهم رؤيتهم لأمريكا كإسرائيل جديدة، كمجتمع يتمتع بالعناية الألهية منفصل عن بقية البشر، مدينة" فوق تل"، وظلت هذه جزءاً أساسيا من فكرة أمريكا عن نفسها. وفي استكشافه لفلسطين، كان روبنسون بمعنى من المعاني يستكشف نيو انجلند، كان يغوص في أغوار تجربته وهويته (18).
ويتوّج كل هذا، فرضُ الخريطة والرؤيا واستعمار الأرض، بإقامة متحفٍ بلا عاديات في قلعة مملوكية، أطلق عليها المستعمرون الصهاينة اسم " قلعة داود"، يروي حكاية القدس عبر العصور، ويُزجّ في هذه الرواية بعصور توراتية لاهوتية متخيلة، عبر الصور الهولوغرامية والتسجيلات الصوتية .
جاء في لقاء للباحثة نادية أبو الحاج مع أمينة هذا المتحف الخيالي في القدس، أن هذه الأخيرة أكدت أنه صُمم لكي يكون" متحفاً بلا عاديات"، يقوم على البعد المعماري وبعد القصة. أي قصة ما تدعوها أورشليم. والمعمار المقصود هو القلعة التي بناها المماليك فوق أنقاض مبنى صليبي من القرون الوسطى بعد تحرير القدس، والتي ألصقت بها سلطات الإحتلال الإسرائيلي اسم" قلعة داود"، ويشير إليها الباحثون الغربيون باسم" قلعة هيرود". وفي هذا المبنى وُضعت للعرض أشباهٌ أثرية غير أصلية تحاكي آثاراً لاوجود لها إلا في النص التوراتي. أما الأثران "الحقيقيان" اللذان لاحظتهما الباحثة فهما من آثار المرحلة الإسلامية؛ كتابة عربية ومحرابٌ هما جزء من معمار غرفة عرضا فيها، ولكن بلا أي إشارة إلى هوية هذين الأثرين لأنهما حسب تعبير أمينة المتحف ليسا جزءاً من المتحف. وفي جو هذه القلعة، وبين أمثال هذه البقايا الأثرية " الصامتة" تُعرض أمام الزوار صورٌ

هولوغرامية متخيلة لما يسمى المعبد الأول، ويُعرض نموذجٌ لما يسمى المعبد الثاني، وأفلامٌ عن تاريخ القدس القريب منذ الإحتلال البريطاني حتى قيام دولة الإحتلال الإسرائيلي. خارج هذا المتحف توجد حديقة نثرت فيها بقايا أثرية محدودة ،يونانية وصليبية وعربية.. إلخ يطلّ عليها الزوار من بعيد فقط، في إيماءة واضحة إلى أن هذه الآثار ليست جزءاً من تاريخ القدس الذي يروى في الداخل بالصور الخيالية.

وتلاحظ الباحثة نادية أبو الحاج أن هذا الإنشاء جاء نتاجَ محاولة صياغة ماض للقدس "بتحويل المكان وصناعة مشهد جديد" وتقديم تفسيراتٍ للعاديات الأثرية إثر إحتلال القدس القديمة في العام 1967 ، وبداية توسيع رقعة الإستعمار الإستيطاني فورا(19) .

وهناك ظاهرةٌ أصبحت عامة في ما يتعلق بالاثار الفلسطينية، وهي تلفيق الصهاينة التوراتيين وتزويرهم لقطع أثرية، بل ولحقب وحضارات متخيلة، وفرض تفسيرات على النصوص الأثرية، أو حتى تحريف بعضها كما كشف الباحث توماس تومسن(20) ورافقت هذه الظاهرة مسارَ التنقيب في الأرض الفلسطينية منذ أواخر القرن التاسع عشرولا تزال متواصلة حتى الآن، والهدف لايتغير، وهو خلق وجود أشخاص ومراحل تاريخية وممالك وأحداث، وتوزيعها على متاحف تخشى، حتى بعد انكشاف عمليات التلفيق الإسرائيلية، الإعتراف بأن " نفائسها" مجرد نفايات ملفقة لاقيمة لها.

يقوم عمل صناع القطع الأثرية المزيفة على إختلاق قطع، حجرية أو طينية أو رقوق، ونقش نصوص "تؤكد" "وتبرهن" على وجود معبد سليمان في القدس، ووجود أشخاص وأحداث توراتية ذات علاقة بالأرض الفلسطينية. وكثيراً ما يستشهد باحثون على ظاهرة تلفيقات من هذا النوع بسيرة أشهرالملفقين، البولندي المدعو موسس فلهلم شابيرا الذي أفتتح بقالة عاديات في القدس في العام 1862 (21) ، بل ومضى بعضهم إلى الإعتراف أن هذا الملفق الذي أنهى حياته منتحراً اخترع بوساطة قطع أثرية (كتابات وتماثيل) "وجود حضارة كاملة" تدعى حضارة مؤاب(22).

أما تزوير وتحريف قراءة النصوص المكتشفة، فهي ظاهرة شائعة وأشد خطراً على المجال العلمي، وخاصة حين يقف وراءها ويروجها "علماء" من ذوي النفوذ الأكاديمي، كما حدث مثلا حين أساء رئيس فريق بعثة فيلادلفيا الأمريكية للتنقيب قراءة نقش مسلة الملك المصري رمسيس الثاني المكتشفة في بيسان (1923)، فجعله يتحدث "عن استخدام" الإسرائيليين"في بناء مدينة هذا الملك، بينما كان النص الأصلي يتحدث عن قبائل العامو والشاشو التي قدمت فروض الطاعة للملك(23).

ومثال ذلك إكمال وليم البرايت في العام 1941 لنص على كسرة فخارية من تل الدوير بزج كلمة "سقوط اورشليم" للبرهنة على تاريخية هذا الحدث وفوق الأرض الفلسطينية أيضاً (24). الأخطر من هذا أن هذه" القراءات" الزائفة يتم تكرارها في الكتب العلمية والمدرسية حتى بعد الكشف عن ضلالها. في السنوات الأخيرة، اضطرت حتى الدوائر الصهيونية إلى الإعتراف بوجود الكثير من العاديات الملفقة في متاحفها ومتاحف العالم حسب ما أوردته صحيفة هاآرتس الصهيونية ذاتها (25).

الباحثُ الصهيوني يوفال جورين، تناول ظاهرة التلفيق منذ وقت قريب، وسرد قصصاً تتعلق بالتلفيق والملفقين في مقال تحت عنوان" لوثة ظاهرة اورشليم المرضية"، حلل فيه نوعاً من الأعراض المرضية أو الخبل الذي يصيب من يزور القدس أو يعيش فيها فيحوّله" إلى انسان يتصرف تصرفات شاذة وتنتابه هلوسات توراتية". وربط بين هذه اللوثة وبين ملفقي الآثار الذين يستغلونها لرفع أسعار منتجاتهم، وتساءل "عما إذا كان مايزال يسيطرعلى علم الآثار التوراتي الهواة والدجالون(26). ولكن هذا الموظف في دائرة الآثار الإسرائيلية يتجنب ربط هذه الظاهرة القديمة قدم وفود علماء الآثار التوراتيين على فلسطين بالفكرة الصهيونية المخبولة القائمة على محو المكان الفلسطيني بماضيه وحاضره، بسكانه وعمائره وجغرافيته وتاريخه، وإحلال مكان وهمي مصدره الروايات اللاهوتية محله، وتوسل كل الوسائل في سبيل هذه الغاية.

وقد تبين من التحقيقات التي جرت في أوائل القرن الحالي أن هناك شبكة محتالين واسعة يعمل فيها ملفقو قطع أثرية ونصوص وناشرون صحفيون وخبراء لغات وعلماء تاريخ .. إلخ. ولوحظ أن أسماء معينة تتردد في كل حالة ينكشف فيها تزوير أو تلفيق، مثل اسم عالم الساميات الفرنسي أندريه لوميبه والناشر لصحيفة علم الآثار التوراتي الشعبية الأمريكي هيرشل شانكس، وظيفتهم هي الترويج لهذه القطع حال ظهورها بالقول "أنها أدلة ملموسة" أو أنها"قطع لاسبيل للشك في أصالتها".. وما إلى ذلك (27). كما لوحظ أن هذه المطبوعات الترويجية تمتنع عن نشر كل رأي أو فحص يشكك بما يروجه أصحابها كما هو واضح من رسالة نشرها د. راينهارد ج. ليمان من جامعة مينز الألمانية كشف فيها مثلا عن زيف ماسمي " نقش يهوآش"، بعد أن رفضت مجلة هيرشل شانكس نشرها رغم أنها هي التي طلبت رأيه في هذا النقش، فاضطر إلى نشررسالته في موقع من مواقع الانترنت (28).

*

في هذا السياق، لاتخرج صورةُ القدس عن إطار هذه الرؤيا اللاهوتية، فهي ترتسم في المخيلة اللاهوتية أولا؛ ثم يأتي عالم الآثار فيبدأ التنقيب مسلما بوجود ما هو ذاهب للبحث عنه إلى درجة أن هذا التسليم يتحول إلى هوس مرضي.

وإلى هذا النوع من علماء الآثاريشير الباحث بيتر جيمس حين يقول:

"اجتذب هذا الحقل سلالة من العلماء اللاهوتيين السعداء بالحفر مع معول في يد وتوراة في اليد الأخرى. فإذا كان المنقب يؤمن بناءاً على النص اللاهوتي أن مرتفعا قديماً يجب أن يحتوي على مبنى من عصر سليمان مثلا، فمن المؤكد تقريبا أنه سيجد مبنى أو مباني وينسبها فوراً إلى معتقده، ويمكن أن يجعل هذا الإيمان المسبق هذا النوع من "التعرف" ثابتا رغم إي دليل معاكس. وفي هذا الجو تنشأ صناعة سياحية صغيرة تبدأ بالنمو حول هذا "الدليل" (29) .

وقبل ذلك بسنوات طويلة كان عالم الآثار ماك آلسترقد ضرب مثلا على ما يولده هذا الهوسُ المرضي من آثار تؤدي إلى محو وطمس ما قد يكون قد عثر عليه المنقب وخالف إيمانه، أو لم يمنح إيمانه دليلا ملموسا، بهذا الحكاية الإيرلندية:

"دخل في رأس بعض الناس في إيرلندا أن تابوت العهد الإسرائيلي مدفون تحت مرتفع من مرتفعات تارا، وفي سعيهم وراء هذا الوهم حفروا ودمروا المرتفع. لم يجدوا التابوت، ولكن عرف أنهم وجدوا أشياء معينة ومباني قد تكون ذات فائدة للتاريخ المحلي ضاعت بسب السعي وراء هدف وهمي محدد" (30).

ومنذ وقت قريب أطلق عالمُ الآثار الإسباني رودريغو غالان اسم "الجرائم الأثرية الفظيعة" على هذا النوع من التنقيب، وأشار، كأنه يتحدث عما يحدث في القدس والأراضي الفلسطينية، إلى أن"هذه الجريمة ماتزال تتكرر دائما.. ذلك أن المنقب يبدأ عمله بتفكير مسبق عما يجب أن يجده.. باحثاً عن أدلة ومستندات تاريخية، على فكرة يريد أن يثبتها ويبرهن عليها، وأحيانا يصل إلى مايريد، إلا أنه سيدمر شواهد وطبقات أثرية يمكن أن تتناقض مع نظرياته.. وبذلك يكون قد قام بتزييف للتاريخ، إضافة إلى حرمان علم الآثارمن وثائق يتجاوزها إثناء الحفر كان يمكن أن تساعدنا على وضع علم حقيقي بتاريخ المنطقة التي يتم التنقيب فيها"(31).

ويجيء بعد ذلك دورُ مؤرخ من نوع عجيب، يحول الرواية الشعبية إلى وقائع تاريخية لمجرد أنها رواية "دينية" غير آخذ في اعتباره الفرق بين التاريخ بوصفه حكاية عن الماضي يحكيها كل عصر بشروطه المعرفية، والتاريخ بوصفه ماحدث في الماضي. ويعبرعن هذا الموقف أفضل تعبيراللاهوتي الاسكوتلندي إيان بروفان في إظهار قلقه وخشيته على "تاريخية" القصص التوراتي من تأثير الأبحاث الجديدة التي انتزعت تاريخَ فلسطين من قبضة اللاهوت، ويأخذ على باحثين من أمثال توماس تومسن ونيلز ليميش وآالستروم وفيليب ديفز نهجهم في إقامة البحث التاريخي على "العاديات الأثرية والمباني والنقوش المكتوبة التي خلفها أناس الأزمنة القديمة، والإنتباه إلى التغيرات المناخية وتنقلات السكان.. أي الفصل بين القصة والتاريخ" (32). ولايرى في "التاريخ" إلا قصة تروى من وجهة نظر المؤلف، أي أنه يخلط بين التاريخ بوصفه "حكاية عن الماضي" وبين التاريخ بوصفه "ماذا حدث في الماضي" كما جاء في نقد فيليب ديفزله (33).
الطريف أن هذا اللاهوتي الاسكوتلندي يضع على قدم المساواة كتابات مؤرخي مختلف العصور، من عاش في ظل عصر السحر ومن عاش في ظلام القرون الوسطى ومن عاش في عصر العلوم الراهنة، فكلهم يكتبون قصصاً، وكلهم لايمكن أن يكون "موضوعيا". فلا وجود لحادثة يمكن أن يلاحظها المؤرخ مباشرة، ولاوجود لوقائع صلبة يُبنى عليها، ولا وجود لمؤرخ لايغرق في الماورائيات، أي الميتافيزيقيا. وهكذا فالتاريخ مجرد "رواية" عن الماضي لا أكثر ولا أقل. فلماذا إذن يطالب هؤلاء الباحثون بنزع قبضة اللاهوت عن التاريخ مادامت كل كتابة للتاريخ هي قصة؟ ولماذا إقامة هذه الفجوة بين التاريخ والقصة؟. إذا كان التاريخ كله كتابة ورواية قصص من وجهة نظرهذا اللاهوتي، إذن هو لايختلف بين قديم وقروسطي وحديث. وليس منطقيا الاحتجاج بأن رواة "التاريخ" القدماء لم يمتلكوا الأدوات المنهجية الضرورية لكتابة التاريخ يمكن مقارنتها بما لدى المؤرخين المعاصرين، مادامت كل الآثار" صامتة" ولايمكن أن تنطق إلا عبر نص توراتي.
اللافت للنظر أن مايزعج هذا اللاهوتي ويجعله يلجأ إلى كل هذا التخليط هو الخلاصات التي يلح عليها المؤرخون الذين يشن هجومه عليهم، مثل قول الستروم "إن علم الآثار الفلسطيني هو الذي عليه أن يصبح المصدر الرئيس لكتابة التاريخ"، وليس كتبة توراة لم يكن همهم الحقيقة التاريخية كما هو هم أي مؤرخ معاصر. ومثل قول نيلز ليمش "لايجب أن يعمل الباحثون المعاصرون كناطقين باسم كتاب التوراة في ما يتعلق بالكنعانيين، بل عليهم أن يشكلوا أراءهم هم غير المنحازة عن حياة وثقافة الكنعانيين" (34).
ويرافق كل هذا النشاط "الآثاري" و"التاريخي" نشاط العسكري الاستعماري الذي يحتل الأرض ورسام الخرائط الذي يمحو أسماءها، ويلصق بها الأسماءَ اللاهوتية المتخيلة. وقد كشف أكثر من مصدر عن التزييف الذي أدخله عسكريون وعلماء لاهوت وسياسيون صهاينة على أسماء المواقع الجغرافية والمدن والتلال الأثرية الفلسطينية، والكيفية التي تم بها إلصاق الأسماء التوراتية الغريبة بمعالم هذه الأرض الغريبة عنها.
من هذه المصادرما كتبه باسهاب الصهيوني ميرون بنفنستي عن لجنةٍ تشكلت من تسعة باحثين فور الإستيلاء على النقب الفلسطينية في العام 1949 بأمر من بن غوريون لعبرنة أسماء الأماكن ومعالمها، ويشير إلى أن عمل أعضاء هذه اللجنة كان قد بدأ في العام 1920 حين عُين اثنان منهم كمستشارين لحكومة الإحتلال البريطاني في كل ما يتعلق بوضع الأسماء العبرية، فجاهدا طويلا وبشدة لإقناع السلطات البريطانية بوضع أسماء أماكن عبرية توراتية على خريطة فلسطين بدلا من الخرائط العربية التي كانت قيد الإستخدام (35). ومن هذه المصادر القريبة العهد التحقيق الذي أجراه توماس تومسن خلال عمله في القدس في العام 1986، وكشف فيه عن وجود عمل منظم ودؤوب لتجريد كافة أنحاء فلسطين من أسماء المواقع العربية منذ العام 1948 وصولا إلى السنوات الأخيرة (36).

ولاحظ عالم الآثار الإيرلندي ماك آلستر منذ وقت مبكركيف أن بعض معالم القدس التاريخية قد تم الإعتداء على ماضيها، فأطلق الصهاينة على قلعة هيرود اليونانية اسم " قلعة داود" ،وعلى بوابة الخليل اسم" بوابة يافا" الذي أطلقه الفرنجة، وكلا الاسمين خطأ (37). ومنذ وقت قريب زعمت أوساط صهيونية أن المسجد المرواني الملاصق للمسجد الأقصى ليس سوى ما يدعونه " اصطبلات سليمان" وبدأت وكالاتُ الأنباء تتداول هذه التسمية (38) ، متجاهلة أن هذا الإسم ذاته سبق للمنقبين التوراتيين أن أطلقوه على عمائر في تل المتسلم جنوبي جبل الكرمل، ثم عادت عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينون في آخر محاضرات لها قبل وفاتها بوقت قصير، إلى التأكيد على أن الأخبار المتداولة حول وجود اصطبلات سليمان في ما أصطلح المنقبون التوراتيون على انها مدينة مجدو التوراتية لاتعدو كونها أخباراً مختلقة (39).

وظلت هذه التسمية حائرة في الهواء تبحث عن مكان تحط عليه، شأنها في ذلك شأن الكثير من الأسماء اللاهوتية التي ألصقت بالماضي الفلسطيني، مدنا وعمائر وتضاريس جغرافية ونقوشاً، عنوة وبلا أي دليل ملموس سوى الهوس في نسبة هذه الأرض لطائفة دينية مرت في تاريخها كما مرت الكثير من الطوائف، ثم تلفيق صلة نسب بين هذه الطائفة وجملة من معتنقي الدين اليهودي المعاصرين؛ أتراك وأثيوبيين ومغاربة وصينيين، وما إلى ما هنالك من شعوب أعتنق بعضها الدين اليهودي كما هو شأن بعض آخر اعتنق ديانات أخرى أو تخلّى عن الإيمان الديني. ولم يعد خافياً أن إصرار الحركة الصهيونية على ربط الدين اليهودي بالعرق وتحويله إلى رابطة قومية ليس سوى استغلال للرابطة الروحية التوراتية المنشأ التي تشد يهوداً من مختلف القوميات والأعراق إلى فلسطين، وتزويد مطامعها الإستعمارية بالوقود البشري والمالي .

اليهودية شأنها شأن أي دين آخر انتشرت بين عددٍ من الشعوب، ولا يمتلك أي منتم لهذا الدين حقا تاريخياً في أي أرض لمجرد أن يهوداً أقاموا فيها تتجاوز حقه الوطني في أرضه هو مثلما توهم الصهيونية. ووجود منتمين لهذا الدين في فلسطين وغيرها لايمنحهم حقا خرافياً من النوع الذي تحاول الصهيونية إثباته.

في أواخر سبعينات القرن العشرين، وفي دراسة معمقة لإمبراطورية قبيلة الخزرالتركية مثلا، تلك التي امتدت في العصور الوسطى بين البحر الأسود وبحر قزوين، ومن القوقاز إلى نهر الفولغا، يعرض الكاتب الهنغاري آرثر كوستلر لتحول هذه القبيلة إلى اليهودية تحت ضغط مقاومتها لضغوط القوتين العالميتين آنذاك؛ قوة بيزنطة وقوة بغداد المسلمة. ويدرس الكاتب باستفاضة تفكك هذه الإمبراطورية ونزوح بقاياها إلى أوروبا الشرقية، تلك البقايا التي شكلت غالبية معتنقي الديانة اليهودية في العالم الذين يطلق عليهم لقب الأشكناز، وهم الذين شكلوا مادة موجات الهجوم الاستعماري الأول على فلسطين (40).

من جانبه، يسخر الكاتب والموسيقار والناشط السياسي جلعاد آتزمون الذي فر من فلسطين المحتلة بعد خدمة في الجيش الإسرائيلي إلى بريطانيا حيث درس الفلسفة، من الفكرة الصهيونية القائمة "على تجريد اليهودية من محتواها الديني وتحويلها إلى عرق، أي إلى مفهوم عنصري.. فسبقت بذلك النازية زمنياً في الحديث عن "الدم" اليهودي و"النسل" اليهودي، في وقت لم يكن فيه هتلر إلا رضيعا في لفائفه".

يقول في لقاء موسع معه "إننا لانستطيع توجيه النقد إلى اليهود كجماعة متجانسة لأنهم لايشكلون شعباً أو استمرارية عنصرية أو حتى هوية إثنية أو ثقافية.. الإختلافات الثقافية بين اليهود السفارديين والأشكناز قائمة، وأبعد من مجرد الإختلاف الثقافي".

ويميل آتزمون إلى الاعتقاد بأن كل الأشكناز خزريون ولا شأن لهم، او الغالبية العظمى منهم، بكنعان (41).

صحيح أن هؤلاء لايمتلكون سوى النص اللاهوتي والخيال وسيلة لإثبات حضورهم، كما يقول عالم آثار فلسطيني للباحثة نادية أبو الحاج، وأن الإنسان لايحتاج إلى تخيل المعمارالعربي حين يتجول في عكا أو في أي مكان أخر في فلسطين، لأنه واقعة قائمة في كل قرية وفي كل منطقة، ولكن هذا العالم يخفق بالفعل كما تقول الباحثة، في أن يأخذ في اعتباره أحد جوانب المخيلة الإستعمارية المهمة " فقد لفقت هذه المخيلة، بحقول متراكبة من الممارسة العسكرية والقانونية والسياسية والبحثية (أثرية ومعمارية وتخطيط مدن وتصميم متاحف)، التاريخ والتأريخ على حد سواء" (42).
ولايمكن التخفيف من آثار هذا البعد الإستعماري، أو استبعاده كأداة تفسير، لأن الكيان الاستعماري المسمى إسرائيل "يسقط على القدس فكرة لاتناقض تاريخها فقط بل وواقعها المعاش ذاته، فيحولها من مدينة متعددة الثقافات والديانات إلى مدينة يهودية منطلقا وغاية، موحدة إلى الأبد تحت السيادة الإسرائيلية حصراً.. والوسائل هي تغيير طوابعها المعمارية والسكانية والسياسية تغييرا كاملا، لتتوافق من ثم مع الصور والإسقاطات " كما يقول إدوارد سعيد (43).
بالإضافة إلى هذا الإسقاط الذي شمل كل الأرض الفلسطينية، وتسلط على جغرافيتها وتاريخها حتى قبل قيام هذا الكيان في سياق تنافس القوى الاوروبية على أراضي الدولة العثمانية مع نهاية القرن الثامن عشر، إختصّ الإستعمارُ الصهيوني القدس طيلة أكثر من ستين عاما بعمل مكثف دؤوب تناول تشريد سكانها وهدم أحيائها. ولم يكن إحتلال شرق القدس في العام 1967 سوى الفصل الثاني الذي كتب في مصير هذه المدينة، أما الفصل الأول فقد حدث في العام 1948 حين تم احتلال الشطر الغربي من المدينة، وشرد الصهاينة المحتلون 30 ألفاً من سكانه الفلسطينيين واحتلوا أحياءهم، وأقاموا في بيوتهم. هذا تاريخ خسارة لم يُكتب كما يرى إدوارد سعيد، ولم يسمع أحد صوت الفلسطينيين. وفقط في السنوات الأخيرة بدأت تظهر الرواية الصهيونية للسياسات المبرمجة لمحو وجود الفلسطينيين ومحو آثارهم، وتحويلهم إلى كائنات غير موجودة (44) .
أما الفصل الثاني فلم يكن سوى مواصلة لهذه السياسات منذ اللحظة الأولى لاحتلال شرق القدس وهدم حي المغاربة التاريخي والاستيلاء بالقوة على بيوت سكانها وتشريد المزيد من الفلسطينيين، وترسيخ الواقع الاستعماري.
وحسب وصف أولي لما بدأ يحدث، وتكثف خاصة بعد ما تدعى اتفاقيات اوسلو، ترسم الباحثة آنيتا فيتولو صورة لخطط إسرائيل السرية منذ العام 1991، وهي لم تعد سرية، مثل الاستيلاء على غربي سلوان وحي الشيخ جراح، وإقامة شبكة طرقٍ سريعة حول القدس، مثل الطرق الأخرى في فلسطين الشرقية، هدفها واضح في ربط المستعمرات الصهيونية وتطويق وإغلاق الأحياء الفلسطينية وتحويلها إلى معازل أو غيتوات حسب الإصطلاح الغربي.
وتلاحظ الباحثة منذ ذلك الوقت أن الطريق رقم 1 الذي شقته سلطات الإحتلال بمحاذاة حدود العام 1967 والكتلة الضخمة التي نشأت حوله يستهدف تحويل الأحياء الفلسطينية إلى "غيتوات" في المستقبل، وفي الوقت نفسه "إنشاء حضور يهودي". وتُظهر جولة في شمال شرق القدس موجاتٍ من المجمعات الاستعمارية تقوم واحدة بعد الأخرى.. وتكتسب عملية استعمار دواخل المدينة القديمة زخماً أعلى في باب الواد والحطة وعقبة الخالدية. هنا تم الاستيلاء على أكثر من ثلاثين ألف بيت ومبنى، والهدف هو تفتيت الحي الاسلامي وإجبار الفلسطينيين على الخروج منه. وتتضمن عملية الاستيلاء على البيوت والمباني شبكة معقدة من الإجراءات، تزوير الأختام، ونزع ملكية من يسمون "الغائبين" والتلاعب في مسألة المواريث العربية، والرشاوي والخدع الضريبية.. واستخدام القوة المجردة (45).
والنتيجة هي إقامة مشهد طوبوغرافي مشوش وملفق يدعى "اورشليم"، يجمع بين بناء أحياء خاصة باليهود والتنقيب واستخراج آثار معمارية قديمة تنسب إلى من يسمون"الإسرائيليين القدماء" إعتباطاً، وإقامة متاحف تروى بين جدرانها قصص توراتية لاعلاقة لها بهذه الجدران ولا بما احتوته من

عاديات أمام سواح يتعرضون للإيهام بأن ما يشهدونه هو ماضي "اورشليم" اللاهوتية، بينما الحقيقة هي أن مايشهدونه هو ماضي القدس المغيب بسطوة النص والتلفيق والإحتلال، ولاشيء غيرهذا.

*

الصورة المتخيلة للقدس، ولفلسطين بعامة، هي نتاج خطاب غربي ضغط بمسلماته على ميدان البحث في تاريخ فلسطين الحقيقي، وغيب هذا التاريخ،وقدم للعالم، والغربي بخاصة، صورة مستلة من المرويات التوراتية الدينية. هذه هي الخلاصة التي يصل إليها الباحث كيث وايتلام خلال دراسته لتاريخ فلسطين القديمة متناولا الوقائع المادية والأيديولوجيات وديانات المنطقة، وأخذاً في الإعتبار موضوعات التاريخ الواسعة مثل الإستيطان والسكان والإقتصاد. لقد وجد نفسه، بتعبيره، في مواجهة مشكلة رئيسية، هي أن أي مشروع دراسة من هذا النوع عليه أن يواجه عقبة كبرى ويتغلب عليها، تلك هي ما يمكن تسميتها "خطاب الدراسات التوراتية"، الذي هو جزء من شبكة معقدة من العمل البحثي عرّفها إدوارد سعيد بوصفها "خطاب الإستشراق". لقد تجاهلت الدراسات التوراتية وأخرست تاريخ فلسطين القديمة لأن موضوع اهتمامها هو إسرائيل قديمة تم تصورها وعرضها على أنها الجذر الذي نبتت منه الحضارة الغربية... ومن أجل هذه الغاية ركزت هذه الدراسات على واخترعت على نطاق واسع كينونة إسرائيل قديمة، وتجاهلت واقع التاريخ الفلسطيني كله (46).
وفي هذا السياق انتقد كيث وايلام حتى إدوارد سعيد لأنه لم يشر إشارة واحدة إلى خطاب الدراسات التوراتية، "لأن هذا الخطاب كان عملياً جزءاً من الإستشراق (موضوع كتاب سعيد الذي يحمل هذا العنوان نفسه)، ذلك الاستشراق الذي تخيّل الأوربيون ومثلوا بوساطته الشرق الأبدي كما أرادوا أن يروه، وليس كما كان، أو كما يؤمن سكانه. وبهذا النوع من الاستشراق خلقت الدراسات التوراتية "إسرائيلاً"، قامت خارج بيئتها، وجاءت، إفتراضاً، بالحضارة والتقدم إلى المنطقة، وهو ما أعادت الأيديولوجية الصهيونية تعزيزه، وأعاد تعزيزه أيضاً اهتمام أوروبا بجذورها هي... لقد أقصى هذا الخطاب الغالبية العظمى من سكان المنطقة، وتحول إلى خطاب قوة انتزعت من الفلسطينين أرضهم وماضيهم"(47).
ومن جانبه إعترف إدوارد سعيد بأن وايتلام كان محقاً في نقده، وأضاف "أن موضوع وايتلام هو التاريخ القديم، وكيف أن حركة سياسية مغرضة يمكن أن تخترع ماضيا يمكن أن يكون في خدمتها، ويصبح جانباً أساسياً في ذاكرة "إسرائيل" الجماعية المعاصرة. وضرب مثلا بمزاعم عمدة القدس المحتلة قبل بضع سنوات حين إدعى أن المدينة تمثل ثلاثة ألاف عام من الهيمنة الإسرائيلية الكاملة التي لم تقطعها أي هيمنة أخرى، فكان بذلك يجند قصة مخترعة لأغراض سياسية لدولة ما تزال تقتلع الفلسطينين من أرضهم، وتنظر إليهم على أنهم غرباء تتحمل وجودهم على مضض" (48).
لقد تم تثبيت هذه القصة المخترعة على يد الخطاب التوراتي، ولكن الأمر لم يتوقف هنا، فحاول علماءُ أثار يطلقون على أنفسهم لقبَ علماء آثار توراتيين، وحاول علماءُ لغات ورسامو خرائط وعسكريون من جنسيات اوروبية مختلفة إيجاد أدلة مادية تدعم هذه القصة أو "الجوهر الثابت" بتعبير نيل سلبرمان. وفي هذا الإطار ركزت التنقيبات الصهيونية في القدس على"تحويل المكان وصناعة مشهد جديد، واختراع استخدامات جديدة، وإعادة تفسير العاديات الأثرية" (49). وتوضح هذه العملية كيف عمل علم الآثار الصهيوني على تحويل وتغيير الحقائق في القدس القديمة، محدثا نسقاً جديدا بين وقائع تاريخية مخترعة ووقائع معاصرة مختلقة أيضا، وفي نطاق كل هذا تمت

صياغة مزاعم إمتلاك الحاضر والمستقبل وليس الماضي فقط. فما كان يتوصل إليه الصهاينة من استنتاجات كان موجوداً في " نظرية" جاهزة سلفاً؛ هناك قصة مسبقة تقوم على مصادر نصية لاهوتية توجه التنقيب، وتعمل كإطار للتفسير والتعرّف على هوية الآثار، وتعيد إنتاج الدليل الموجود سلفا... لم يكن الأمر سوى حفر الأرض لكي تظهر الآثارُ للعيان، ليس بمجرّد تحويل الغائب إلى حاضر فقط ، ولكن بتحديد أكثر، بخلق زوايا رؤية معينة تعاد صناعة المشهد بوساطتها.

ويشبه هذا العمل كما يشير أحدهم، باستعارة من عالم النحت، افتراض وجود تمثال ما في قلب قطعة رخام، وكل ما على الباحث والمنقب عمله هو إزالة طبقات الرخام لإخراج هذا التمثال، أي بالتنقيب واستخراج مايؤمن المنقب بوجوده سلفاً قبل أن يضرب بمعوله في الأرض (50).

ولكن التنقيب في الأرض الفلسطينية المتواصل منذ أكثر من قرنين لم يخرج بالتمثال المأمول، بل أخرج آثارَ سكان هذه الأرض منذ اقدم عصور تحضرها، وأظهر أن طوابع هذه الأرض ظلت على مدار عصورها تشي بطابع كنعاني لا أثر فيه لأي جزء من أجزاء الصورة المتخيلة. فبعد كل هذا الزمن، يلخص مؤلفا كتاب "علم الآثار والتوراة" البريطانيان، جوناثان تب و روبرت تشابمان، الأدوار الحضارية التي سادت في فلسطين منذ بواكير عصر البرونز مروراً بعصر الحديد ووصولا إلى مرحلتي الهيمنة اليونانية فالرومانية، ويكشفان على أساس حقائق التنقيبات وليس على أساس الخيالات اللاهوتية، أنها أدوار حضارة واحدة هي الحضارة الكنعانية التي لم يدخلها أي عنصر غريب من حضارات أخرى. وهذا معناه أنه لامكان بالفعل لما يسمى "دولة إسرائيل" ولا خريطتها في فلسطين. ثم يتوصل المؤلفان في ضوء هذا إلى "أن العلم الحديث يرفض لحسن الحظ (حسب تعبيرهما) الميل الذي هيمن خلال أكثر من قرن نحو استخدام علم الآثار كأداة لإثبات أو نفي صحة التوراة كوثيقة تاريخية" (51).

من هنا وأمام هذا الواقع الصلب الذي بدأ يستند إليه باحثون غربيون في رفض تاريخية المرويات التوراتية بدأت تشيع في كتابات الصهاينة على اختلاف جنسياتهم، نظرية أن سكان هذه الأرض القدماء حتى وإن كانوا ليسوا "إسرائيليين قدماء" لايمتون للعرب بصلة، إنطلاقا من مبدأ ينمّ عن الخبل الإستعماري في أوضح صوره؛ ربط الوجود القومي بالعقيدة الدينية، وهكذا يروج الصهاينة لمقولة أن الوجود العربي في فلسطين، بل وفي المنطقة كلها، ارتبط بظهور الإسلام، أي أن حضوره في فلسطين حديث لايتجاوز 1300 عام تقريبا. وهنا لايفوت أي باحث ملاحظة أن تنكر كتاب ومؤرخون صهاينة للوجود العربي في فلسطين التي كانت جزءاً من جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ببضعة ألوف من السنين، وحصر هذا الوجود بالمرحلة الإسلامية، يقوم على التلفيق الصهيوني نفسه الذي يجعل الدين دليلا على الرابطة القومية. وقد أوردت الباحثة ناديا أبو الحاج مقتطفات من هذه الأقاويل الساذجة التي تربط هوية الشعب بالدين، فقط لتأييد الزعم بأن لاصلة لمن اعتنق الدين الاسلامي من العرب بالقبائل العربية الكنعانية التي امتد وجودها الحضاري المكتشف فعلياً على سواحل سوريا الكبرى منذ أربعة آلاف عام ق. م، وخرجت آثارها إلى النور في مدن فلسطين ولبنان وسوريا (52).

وسيمتد هذا النفي للواقع العربي، والفلسطيني بالتالي، إلى العصور الحديثة، وسيتحول هذا الحضور بأقلام الصهاينة إلى وجود متخيل غير واقعي، أو مضى على الأقل وتلاشى، حتى أن الذين يحتلون الآن قرى الفلسطينيين ومدنهم ويقيمون في عمق القدس التي تحاصر هؤلاء الغرباء بطرقاتها ومبانيها لايرون حسب ما يرى الروائي الصهيوني يزهار سميلانسكي إلا"مكاناً غادر مكانه ولاشيء آخر. لايوجد أعداء هنا ولا غير- أعداء. هنا مجرد قصة تقول ماحدث بصيغة الفعل الماضي" في إشارة إلى المشهد الذي اختلقه الصهاينة(53).

إشارات

1- Carol Meyers, Engendering Syro- Palestinian Archaeology: Reasons and Resources, Near Eastern Archaeology, Vol. 66, No. 4 (Dec., 2003) p. 187
2- Keith Whitelam, The Invention of Ancient Israel, the silencing of Palestinian history, Routledge, London and New York, 1996, p.11
3- Yuval Goren, The Jerusalem Syndrome in Biblical Archaeology, Society of Biblical Literature Forum, March 2005, sbl-site.org
4- Etian Bar-Yosef, The Holy Land in English Culture 1799-1917, Oxford University Press, 2005, pp. 1-3
5- Edward Fox, Palestine Twilight: The Murder of Dr. Albert Glock and the Archaeology of the Holy Land, Harper Collines Publishers, London, 2001, p.55
6- Joanne Witke, A Synoptic poem, Comparative Literature, Vol. 22, No.3 (Summer, 1970), p.265. Published by: Duke University Press.
7- Shelly Perlove, An Irenic Vision of Utopia: Rembrandt's "Triumph of Mordecai" and the New Jerusalem, Zeitschrift Fur Kunstgeschichte, 56., H.I (1993) Berlin, pp. 39-40
8- Ilan Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine, One world Publications Limited, Oxford, 2006, pp. 10-11
9- Abbas Hamdani, Columbus and the Recovering of Jerusalem, Journal of the American Oriental Society, Vol. 99, No.1 (Jan., Mar, 1979), pp. 39-41
10- Lawrence Davidson, Biblical Archaeology and the Press: Shaping American Perception of Palestine in the First Decade of Mandate, The Biblical Archaeologist, Vol. 59, 2. (Jun., 1996), pp.104-105
11- Ibid, op. cit.
12- منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الانكليزية، رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت، 2009، ص 9
13- Neil Asher Silberman, The Impact of a Biblical Concept on Near Eastern Archaeology, The Biblical Archaeologist, Vol. 54, No. 2(Jun., 1991), pp. 79
14- د. جوزيف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمه عن الفرنسية بطرس حلاق وماجد نعمة وراجعه حسن فخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، الصفحات من 216 إلى 239
15- Jack M. Sasson, Albright as an Orientalist, The Biblical Archaeologist, Vol. 56, No.1 (Mar., 1993), p.6

16- R. A. S. Macalister, A century of Excavation in Palestine, The Religious Tract Society, London, 1925, pp. 22-23
17- Neil Asher Silberman, op. cit. p. 78
18- Edward Fox, op. cit. pp. 53-54
19- Nadia Abu El-Haj, Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israel Society, The University of Chicago Press, Chicago & London, 2001, pp. 130-170-174
20- Thomas L. Thompson, The Bible in History: How Writers Create a Past, Jonathan cape, London, 1999, p.12
21- Stephen L. Cagier, Archaeological Facts and Fancy, The Biblical Archaeologist, Vol. 9. No.3 (Sep., 1946), p.62
22- Hershel Shanks, Fakes: How Moses Shapira Forged an Entire Civilization, Archaeology Odyssey Magazine, Sep/Oct., 2002, pp. 33-44
23- Stephen L. Cagier, op. cit. p. 64
24- W. F. Albright, The Lachis Letters after five years, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No. 82 (Apr. 1941), p.22
25- Jonathan Lis and Nadav Shragai and AP, Alleged Forger of Holy Land Antiquities held, Haarets, 23/7/2003
26- Yuval Goren, op. cit.
27- David Brown, Is Oded Golan behind scholarship's biggest fraud ring? An unholy row goes to court, The Daily Telegraph Magazine, May 14 2005
28- Reinhard G. Lehmann, The Jehoash Inscription: it isn't because it is too much at the same time!, Orientalisti. net, March, 25, 2004
29- Peter James, Centuries of Darkness, Pimlico, London, 1992, p. 162
30- R. A. S. Macalister, op. cit. pp. 32-33
31- رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، تعريب وإضافة د. خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1998، الصفحات 18-19
32- Iain W. Provan, Ideologies, Literary and Critical: Reflections on Recent Writing on the History of Israel, Journal of Biblical Literature. Vol. 114, No.4 (Winter, 1995), pp. 585-606
33- Philip R. Davies, Method and Madness: Some Remarks on doing History with the Bible, Journal of Biblical Literature, Vol. 114, No. 4 (Winter, 1995), pp.700-701
34- Philip R. Davies, op. cit. p. 703
35- Meron Benvenisiti, Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, 2000, pp. 11-12
36- توماس تومسن، في حوار عن تاريخ فلسطين القديمة بين العالم والخرافات والأساطير، أجرى الحوار زياد منى، صحيفة" الحياة" اللندنية، العدد 13882، مارس 2001، ص 21
37- R. A. S. Macalister, op. cit. p. 49

38- وكالة رويترز، 8 ديسمبر 1999
39- كاثلين م. كينون، التوراة والمكتشفات الأثرية الحديثة، تعريب سليم زيد وشوقي شعث، دار الجليل، دمشق، 1988، ص 46 -36
40- Arthur Koestler, The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and its Heritage, Picador, Published by Pan Books, London, 1976, pp. 175-176
41- Gilad Atzmon, Interviewed by Manuel Talens, La belleza como arma politica, Momoria, Mexican monthly magazine, No. 202, December 2005
42- Nadia Abu El-Haj, op. cit.pp.199-200
43- Edward W. Said, Projecting Jerusalem, Journal of Palestine Studies, Vol. 25, No.1 (Autumn, 1995), p.6
44- Ibid. pp. 7-8
45- Anita Vitullo, Erasing Arab Jerusalem, Middle East Reports, No. 175, (Mar- Apr. 1992), pp. 24-25
46- Keith W. Whitelam, op. cit. pp. 1-13
47-Ibid, op. cit. P. 235
48- Edward W. Said, Invention, Memory, and Place, Critical Inquiry, Vol. 26, No. 2 (Winter, 2000), p.187
49- Nadia Abu El-Haj, op.cit. pp.130-131
50- Ibid. pp.130-131
51- Jonathan N. Tubb And Rupert L. Chapman, Archaeology and the Bible, British Museum Publications, London, 1990, p. 7
52- Nadia Abu El-Haj, op. cit. pp. 250-251
53- Meron benvenisiti, op. cit.p.4

الفصل الثامن

فلسطين المفقودة

في مقدمة كتابه "اختلاق إسرائيل قديمة .. إخراس التاريخ الفلسطيني"، يضع المؤرخُ الاسكتلندي "كيث وايتلام" على رأس العقباتِ التي واجهته في تعاملهِ مع وقائع منطقتنا المادية والأيديولوجية والدينية ما أطلقَ عليه مصطلح "الخطاب التوراتي" (1). كان تصوّرهُ أن الالتفات إلى موضوعاتِ التاريخ والاستيطان والجغرافية البشرية والاقتصاد كفيلٌ بإيجادِ ترياقٍ مضادٍ للتواريخ المعتمدة في الغرب لإسرائيلَ قديمة تقوم على الموروثاتِ التوراتية المهيمنة على الدراسات التوراتية منذ القرن التاسع عشر، إلا أن مشروعاً كبيراً بهذا الحجم لم يكن محكوماً بالفشل فقط لأن السيطرة على مادةٍ ذات مدى واسع مثل هذا تتجاوز قدراتِ فردٍ واحد، بل لأنه واجهَ مشكلة أعمقَ، هي أن مشروعاً مثل هذا عليه مواجهة عقبة كبيرة ويتغلب عليها، تلك هي "خطاب الدراسات التوراتية" الذي هو جزءٌ من شبكةِ عملٍ بحثي معقدة حدّد إدوارد سعيد هويتها بوصفها "خطاباً استشراقياً" (2). أي ذلك الخطاب الذي لا يخلق معرفةً فقط، بل يخلق أيضاً الواقعَ الذي قام ليصفه، وبمرور الزمن تخلق هذه المعرفةُ وهذا الواقعُ المختلق تراثاً يتحكم في أي باحثٍ يقتحم مجاله.

في هذا الخطابِ المتعدّد الوجوه وُلد شرقٌ توراتيٌّ منطلقه هيمنة النصّ اللاهوتي (التوراة) بمضامينهِ الثقافية والسياسية ، لا وقائع الجغرافية الطبيعية والبشرية التي تدل عليها الآثارُ والمصادر التاريخية الموثوقة ، شرقٌ تظلّ فيه فلسطين أرضاً خالية طيلة أكثر من ألفي عام في انتظار عودة "اليهود " إليها (3). وتقدم يوميات الوافدين الغربيين على فلسطين، شعراءَ وحكاماً وعلماءَ آثارٍ ورسامين وعسكريين .. إلخ ، صورة عن بوادر هذا النهج النصّي وتشير إلى قبضةِ اللاهوت المحكمة على العقلِ الغربيِّ الذي لا يستطيع مقابلة فلسطين إلاّ عبر شبكةٍ من القصص التوراتي.

يكتب الشاعر الفرنسي "ألفونس دي لامارتين" في كتاب "رحلة إلى الشرق " هذه السطور:

" لو عشتُ في القدس، أنا الشاعر المتواضع الذي وُجد في زمنٍ منحط وصامت، لاخترتُ مكان إقامتي ومتكئ الحجري في المكان الذي اختارَ فيه "داود" مكانه ومتكأه في "صهيون". إنه أجمل مشهد في اليهودية وفلسطين والجليل، فعلى اليسار هنا القدس بهيكلها وصروحها التي كان بمستطاع الملك أن ينظر إليها ملياً دون أن يُرى" (4).

ويكتب الأمير النمساوي "ردولف" الذي زار فلسطين في سبعينات القرن التاسع عشر:

" الخطوة الأولى على تربة الأراضي المقدسة تُذكّر، في المدن ، بذكرياتِ الحكم المنضبط للمملكة اليهودية وحكمة الملك سليمان .. كما تُذكّر بالصور الريفية التي تمر أمام عين العقل، والتي كانت ترفرفُ حولنا ونحن نقرأ الكتاب المقدس في طفولتنا" (5).

ويكرر الرؤيا نفسها من كان يُنظر إليه في النصف الأول من القرن العشرين بوصفه عالمَ آثار ومؤرخاً بارزاً، أعني الأمريكي "وليم فوكس آلبرايت"، فيكتب وهو يدخل القدس في العام 1919، بعد الاحتلال البريطاني:

" إن الأرض التي انفتحت أمام عيني هي ذاتها الأرض التي شاهدها الآباء العبريون" (6).

بل ويوسع من مدى هذا الوهم اللاهوتي ، فيغطي جغرافية شاسعة وزمنا أكثر اتساعاً ، فيصبح علم آثاره شاملا لما يسميه " كل الأراضي التوراتية الممتدة من الهند إلى إسبانيا، ومن جنوب روسيا إلى

جنوبي الجزيرة العربية، ويضم زمنيا تاريخ هذه الأراضي كلها منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد، بل وأقدم من ذلك، وصولا إلى الزمن الراهن" (7) .
ولكن هذه القبضة اللاهوتية المحكمة على تاريخ فلسطين في الماضي والحاضر، بكل ما رافقها وتلاها من حفريات عن الآثار وتحويل قصص عن الماضي إلى "أحداث تاريخية وقعت في الماضي"، لم تكن مجرد جزء من الخطاب الإستشراقي الذي وصفه إدوارد سعيد، بل ولم تكن تعبيراً عاديا عن "الإستشراق" بل أضفت " طابعاً رومانسياً على جانب من جوانب المعتقد الديني الغربي، ليحل محل الشرق "الوضيع" و "الغريب".
يلاحظ الباحث الأمريكي "لورنس ديفيدسن" أن مسرح علم الآثار الذي أقامه علماء آثار أطلقوا على أنفسهم اسم "علماء آثار التوراة "، وصحافة كانت مصدر القارئ الغربي عن كل ما يعرفه عن فلسطين منذ احتلها البريطانيون بالقوة العسكرية في العام 1917 بهدف إقامة مستعمرة على طريق من طرق توسعهم الإمبراطوري، أن هذا المسرح:
"استبدل قديماً يهوديا/مسيحيا رُفع إلى مستوى المثال حسب طلب الاستهلاك الغربي بجزءٍ من ماضي الشرق، أي فلسطين. وبهذا المعنى كان هذا خطوة تتجاوز "الإستشراق" بالقدر نفسه الذي تمثل فيه صورة الأرض المقدسة اللاهوتية تجاوزاً لصورتها الواقعية؛ إن الأمر بمجمله محو "الآخر" الشرقي. ويشير هذا الذهاب إلى مابعد- الإستشراق في تركيزه على فلسطين إلى أن الغرب نظر إلى هذه المنطقة كمستعمرة طبيعية له على خلاف مصر البريطانية وسوريا الفرنسية ؛ لقد كانت فلسطين في نظره جزءاً من وقف أعطاه الله للغرب وتمت إعادة الاستيلاء عليه" (8).
ويضيف هذا الباحث :
" بينما كان الصهاينة يعملون مادياً على تحويل فلسطين إلى ما سماه البريطانيون "وطنا قوميا يهودياً "، كان عمل علماء الآثار كما غطته وسائط الإعلام الأمريكية ، ونيويورك تايمز بخاصة ، يساهم نفسياً في تحويل الأرض المقدسة إلى أرض يهودية" (9).
وقبل احتلال فلسطين، ومنذ اللحظة الأولى التي نشأ فيها "صندوق استكشاف فلسطين" البريطاني في العام 1865، وسط حماس جماهيري كبير ورعاية ملكية، افتتح أسقف يورك أول اجتماع تأسيسي للصندوق بهذه الكلمات:
" هذا البلد فلسطين ينتمي لكم ولي. إنه لنا من حيث الجوهر، وقد مُنح لأب إسرائيل بهذه الكلمات "إمش في الأرض طولا وعرضاً لأنني سأعطيها لك"، وما نريده نحن هو أن نسير في فلسطين طولا وعرضاً لأن هذه الأرض أعطيت لنا .. إنها الأرض التي علينا أن ننظر إليها نظرة وطنية صادقة مثلما ننظر إلى هذه الانكلترا القديمة العزيزة التي نحبها حباً جماً " (10).

*

كلُّ هذا التركيب من هوسٍ لاهوتي توراتي تقاطعَ مع مشروعٍ استعماري غربي ، يكاد يكون سمة عامة من سماتِ حركة الاستيطان الاستعماري في عدد من مناطق العالم ولم يكن خاصا بفلسطين وحدها. ويلخص الباحث الفلسطيني نور الدين مصالحة هذه السمة الجامعة بالقول :
"إن كل منظومة مشروعات الاستيطان الاستعماري الغربي في الأزمنة الحديثة استخدمت روايات التوراة الكبرى. واستُعمل سفر الخروج، الأول والثاني الأكثر أهمية بين كتب التوراة العبرية، على نطاق واسع كرواية/إطار للاستعمار الغربي ورسالته "التمدينية" المزعومة، بينما استخدمت

نصوص توراتية أخرى لتوفير سند أخلاقي للغزوات الاستعمارية في أفريقيا وآسيا وأستراليا والأمريكيتين " (11).
ومن الأمثلة الدالة التي يذكرها ، استخدام سفر يوشع التوراتي لتبرير الاستعمار البريطاني لايرلندا، حيث ماثل البروتستانت الإنكليز الايرلنديين الكاثوليك بالوثنيين الكنعانيين. وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر دأب وعاظ الإنكليز في مستعمرات العالم الجديد على مماثلة سكان أمريكا الأصليين بالعماليق والكنعانيين والفلستيين الذين يجب أن يتحولوا إلى المسيحية، أو يجب إبادتهم إن رفضوا (12).
ويؤكد هذا الترابط بين اللاهوت التوراتي والحركة الاستعمارية، ونموذجه قائم الآن في فلسطين، على الجوهر الاستعماري للأنشطة المتنوعة التي كان موضوعها فلسطين؛ التنقيبات الأثرية، واختلاق اسرائيل قديمة تكون سندا لاحتلال الأرض بالقوة واصطناع إسرائيل حديثة، وطمس ماضي فلسطين وحاضرها في وقت واحد معاً ومحوها من ذاكرة ثقافات الشعوب الغربية والشرقية على حد سواء.
ولكن إذا كان مفهوماً أن يسيطر الخطابُ التوراتي على مجالاتِ البحث والإعلام والتربية في الغرب، وإذا كان مفهوماً السبب الذي يجعل الغربي بسبب تربيته اللاهوتية المضلّلة يرى في فلسطين أرضاً خالية تنتظر "شعباً" يعود إليها، فمن غير المفهوم أن نجد هذا الخطاب يبسط هيمنته على العقلية العربية في عدة مجالات، وبخاصة في مجال التاريخ والتعاليم الدينية، ووسائط الإعلام وكتب الباحثين. فكثيرا ما نصادف القصص التوراتية تدور على ألسنة خطباء مساجد مسلمين يفتقرون إلى أبسط المعارف الألسنية والتاريخية والاجتماعية ، بل وعلم الأديان المقارن، ونجدها تتغلغل في وسائط إعلام فضائية واسعة الانتشار تجهل حتى الآن أن كل ما حفل به النصف الأول من القرن العشرين من تزوير للوقائع التاريخية وتفسير لاهوتي لآثار المنطقة العربية، وفلسطين بالذات، قد ثبت بطلانه وزيفه في أبحاثِ عدد كبير من العلماء والباحثين الغربيين والعرب.
بل والمفارقة العجيبة أن يخضع المترجمون العرب لقوالب الذهنية الغربية اللاهوتية، فما أن يرد اسم مدينة توراتية مثل "جيريشو" في الكتابات الغربية، والصهيونية منها بخاصة، حتى يسارع المترجم فيترجمها إلى "أريحا"، وتزداد سرعته حين يرد اسم "أورشليم" فيترجمه إلى القدس. ولم تفلت من هذا حتى "الموسوعة الفلسطينية" بأجزائها الأربعة التي أضافت إلى الجغرافية الفلسطينية مدناً ومواقع لا وجود لها إلا في التوراة، ولا دليل أثري على وجودها على الأرض الفلسطينية (13). ومن يتصفح هذه الموسوعة التي نشرت في العام 1984 ، يشعر أنها بحاجة إلى مراجعة جذرية في ضوء الأبحاث النقدية الجادة التي حررت الجغرافية الفلسطينية والتاريخ الفلسطيني من قبضة الخطاب التوراتي وقصصه التي عاملها واضعو الموسوعة معاملة الوقائع التاريخية.
صحيح أن المسرح الذي أقامه أصحاب الخطاب التوراتي، وحشدوا على خشبته كل ما أمكنهم من صورٍ تمثيلية لفلسطين، قد تمكن من العقلية الغربية، ونجح في مدّ الهجمات العسكرية برأي عام واسع يقف وراءها، إلا أن هذا المسرح بدأ يتهاوى منذ سبعينات القرن الماضي، وبدأ باحثون متميزون يكشفون أبعاد تضليل وتزييف واسعة في مجال التاريخ والآثار لحقت بفلسطين والبلدان العربية بعامة. أبرز العاملين في هذا المجال هو الباحث الأمريكي "توماس تومسن" الذي توصل ، هو ومجموعة من الباحثين الآخرين، ومن مواقع علمية مختلفة، إلى " انهيار النظرة القائلة بأن التوراة وثيقة تاريخية". وأن "قضية البحث عن الأصول التي هيمنت على البحث المعاصر في التوراة إنما تنتمي إلى اللاهوت لا إلى التاريخ" (14).
من المفيد هنا الالتفات إلى ظاهرة رافقت اختلاق إسرائيلَ قديمة وإخراس التاريخ الفلسطيني، و"إنشاء القسم الأكبر من تاريخ فلسطين القديم بإقحام القصص التوراتي" على حد تعبير توماس تومسن(15) ثم "تهاوي هذه التركيبة المصطنعة كبيتٍ من ورق " كما يضيف تومسن أيضا (16)؛

تلك هي ظاهرة تلفيق وتزوير الآثار واللجوء إلى أي وسيلة لتعزيز السرديات اللاهوتية وتحويلها من ثم إلى وقائع تاريخية. هذه الظاهرة ليست جديدة، بل رافقت البحث الأثري والتاريخي في أرضنا منذ بدايات التنقيب في الأرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لن نحصر كل وقائع التلفيق والتزوير هنا، وهي عديدة، بل سنكتفي بوقائع شهيرة ودالة.
أول واقعة مثيرة كانت تلفيق وجود حضارة تدعى "حضارة مؤاب" لتنسجم مع ما يعتقد توراتيون أنه يؤكد تاريخية قصصهم. بدأ هذه الواقعة تاجر عاديات بولندي يدعى "موسس شابيرا" أقام في القدس دكاناً في العام 1862 لبيع العاديات الأثرية للسائحين. وقيض لهذا الملفق أن تكون له صلة بالمفاوضات التي دارت للحصول على حجرٍ أُكتشف آنذاك في أراضي شرق الأردن، شمال الكرك تحديداً، بين الفرنسيين والألمان والبريطانيين والقبائل المحلية التي اكتشف الحجر في أراضيها. هذا الحجرُ الذي عُرف في الأدبيات الغربية باسم "حجر مؤاب" كان يحمل نقشاً بالكتابة الكنعانية يروي فيه ملكُ قرية يدعى "ميشع" أخبار حروبه مع ملك قرية أخرى يدعى "عومري"، ولأن اسم هذا الأخير وارد في التوراة أُعتبر النص المكتوب نصاً تاريخياً يؤكد قصة من قصص التوراة. ولكن قراءة قام بها د. كمال الصليبي ومن بعده توماس تومسن، أظهرت أن لا صلة لهذا الحجر بفلسطين التاريخية.
من جانبه كشف الأول عن أن هناك إساءة ترجمة للنقش من الكنعانية إلى العبرية ، حولت اسم قرية "أم الياب" إلى مرتفعات "مؤاب"، وأن أسماء القرى الواردة في النقش يمكن العثور عليها في مرتفعات الطائف الحجازية (17). أما الثاني فقد مضى إلى ما هو أبعد، رأى في النقش نصاً يرجع إلى تراث القص الأدبي النمطي عند ملوك الماضي ، وتمجيدا لهم بكل ما يحفل به هذا التراث من أخيلةٍ ومعتقداتٍ أسطورية، ولم ير للحجر قيمة كمصدر تاريخي لدراسة من أطلقوا عليهم تسمية "المؤابيين" و "الإسرائيليين" (18).
في ضوء الإشاعات الأولى عن الحجر والقراءة الخاطئة للنقش المكتوب عليه، بدأ شابيرا ومساعدٌ له خزاف يدعى "سالم القاري" ، باختلاق عدد كبير من التماثيل الطينية والأوعية والقطع نقشا عليها كتاباتٍ مستنسخة من نقوش ذلك الحجر والزعم بأنها آثار حضارة تدعى "حضارة مؤاب". وقام هذا بحملات يدفن خلالها هو ومساعده ما اختلقاه من عاديات ليصار إلى الحفر والكشف عنها في ما بعد . واقتنت عدة متاحف مثل متحف برلين آلافاً من هذه القطع الملفقة، وطرحَ عدد من "العلماء" نظرياتٍ عن هذه الحضارة. ولكن تحرياً قام به عددٌ من الباحثين، ومنهم الفرنسي "كليرمون" أوصلتهم إلى مصدر التلفيق بل وإلى المكان الذي كان الملفقان يجلبان منه الطين لصناعة هذه التماثيل والأوعية. وأقر شابيرا بعد ممانعة بالتلفيق إلا أنه زعم أن سالم القاري الخزاف هو الذي كان يخدعه (19).
الملفق الاخر الذي مارس تلفيقا صريحا كان عالم الآثار والمؤرخ والمستشرق وليم فوكس آلبرايت. وبين ما قام به ، إضافة كلمات على نقش مكتشف في تل الدوير القريب من قرية فلسطينية تدعى "أم القيس " نُقل اسمه مع تحوير اسم القرية، حين يقرأ بالحروف اللاتينية "أم لكس"، إلى "لاخيش " التوراتية. ما فعله آلبرايت أنه تناول نقشاً طُمست بعض كلماته مكتشفا في هذا التل باللغة الكنعانية يقول " مولاي... أن لا تكتب .. فعلت هكذا .. سلم "، وأضاف إليه وحوره ليصبح "والآن يا مولاي هل لك ان تكتب لهم قائلا لماذا فعلتم هكذا بأورشليم ؟ "، ونشر ما لفقه في العام 1941 تحت عنوان "رسائل لاخيش بعد خمس سنوات "(20).
على أن أكثر فضائح التلفيق التوراتي دوياً حدث منذ وقت قريب، وتناقلت الصحافة الغربية مجرياته بتوسع. بدأ رفع الستار عن هذا المسرح بإعلان صدر عن ما يدعى متحف إسرائيل بأن "الرمانة العاجية" التي يمتلكها، وهي قطعة يفترض أنها تحمل نقشاً يدل على علاقتها بما يسمى معبد سليمان، هي قطعة ملفقة. بعد ذلك بأسابيع قليلة تحركت ما تسمى وزارة العدل الإسرائيلية ووجهت

اتهامات بالتلفيق إلى حلقة من خمسة أفراد يتزعمها "اوديد غولان"، وذلك بعد ما يقارب 18 شهراً من كشف الأوساط العلمية في متاحف عالمية عن زيف ما يدعى "صندوق عظام لحفظ عظام الموتى " الذي نقش عليه "غولان " كلمات إرَميّة تقول "يعقوب بن يوسف شقيق السيد المسيح " وعن زيف نقش من يدعى "يهوآش" الذي قيل انه يحكي قصة إصلاحات في المعبد في أورشليم.
أطلقت الصحافة على المحاكمة التي جرت في العام 2005 لهذه الحلقة المكونة من خمسة أفراد ، أربعة منهم تجار عاديات أثرية، واثنان هما، "غولان" صاحب مختبر يجري فيه تلفيق الآثار في تل أبيب، وآخر كان يشغل منصب رئيس مختبر العاديات في متحف إسرائيل. على أن اللافت للنظر هو مشاركة أساتذة من أمثال الفرنسي قارئ النقوش السامية "أندريه لوميه"، ودوريات بحثية وصحف بارزة في تلقف ما كانت تلفقه هذه الحلقة، والترويج له على أنه "أثار أصيلة لا يتطرق إلى أصالتها الشك"، وخلق دائرة جماهيرية واسعة تهلل لهذه الآثار الملفقة، ثم يأتي بعد ذلك دور الفضائيات مثل السي.أن.أن، وإن.بي.سي، و سي.بي.أس وغيرها في تقديم تقارير مثيرة (21).
أمثال هذه القصص ، ومنها هذه الأخيرة، تبدأ عادة بإطلاق أبواق الانتصار الروحي ثم تنتهي كمهزلة، شأنها في ذلك كل تلفيقات الخطاب التوراتي التي تساقطت واحدة بعد أخرى طيلة السنوات الماضية.
ولا يتوقف الأمر عند تلفيق وتزوير آثار تسعى إلى إثبات تاريخية قصص لاهوتية، ولا عند نسبة كل ما يخرج من الأرض الفلسطينية إلى "إسرائيل قديمة " مفترضة، بل يمتد إلى توظيف القصص الخيالي والمكتشفات العلمية على حد سواء. ففي ستينات وسبعينات القرن العشرين انتشر قصصٌ خيالي ورواياتٌ استثمرت واقعة غزو الفضاء والوصول إلى القمر وتزايد فرص وصول الإنسان إلى كواكب بعيدة، وافترض كتابها أن من الممكن أن تكون كائنات فضائية متقدمة علمياً زارت الأرض في الأزمنة السحيقة، وأن شعوب تلك الأزمنة البدائية رأت من الزائرين أعاجيب لم تستطع وصفها بدقة فتركت لنا أخبار تلك الكائنات ومنجزاتها، مثل بناء الأهرامات والصروح العملاقة، في أساطيرها وملاحمها وقصصها الديني، بل ومضى بعضهم، تعزيزاً لفرضياته، إلى القول إن التوراة تضمنت إشارات إلى الكائنات الفضائية ومراكبها الطائرة (22)، وهنا وجد بعض المهووسين بتحويل اللاهوتي التوراتي إلى تاريخي فرصتهم أيضا. في العام 1956 كان موسس.ك. جيسوب، عالم فيزياء الفضاء كما يقال ، قد نشر كتاباً تحت عنوان " "الصحون الطائرة والتوراة " جاء فيه:
" ينبع الكثير من الشك في صحة القصص التوراتي من انعدام احتمال وقوع الأحداث والتنبؤات الواردة فيها، ولكن وجود كائنات فضائية ذكية، واحتمال أن يكون هناك عرق متفوق قد استخدم وسائل ملاحة جوية يناسب كل الشروط التي نحن قادرون على نسبتها إلى الصحون الطائرة، مما يجعل الأحداث الواردة في التوراة معقولة" (23).
والتقط عالم روسي آخر هذه الوصفة، كما التقطها آخرون، "فافترض وجود علاقة مباشرة بين بعض الأحداث الموصوفة في التوراة وزيارات الكائنات الفضائية للأرض (24).
وعلى صعيد استغلال المكتشفات العلمية وزجها في سياق تأكيد القصص الأسطورية، لفت نظرنا إقدام مجلات علمية على نشر مقالات تسعى بأي طريقة ممكنة لإثبات واقعية أحداث أسطورية سجلها كتبة التوراة. من هذه المجلات مجلة "العالم الجديد" . تنشر هذه المجلة ما يلي بمناسبة اكتشاف رماد بركاني في دلتا نهر النيل :
" الآن ، وبعد العثور على رماد بركان "سانتوريني" في رواسب دلتا النيل، فهذا يعني أن الظلام الذي سببته ثورة البركان ربما امتد إلى مصر. ويشير هذا الاكتشاف الجديد إلى ان "سانتوريني" ربما كان مسؤولا عن "احتجاب الشمس "الذي تشير إليه عدة وثائق قديمة بما فيها سفر الخروج التوراتي الذي يشير إلى "ظلمات على الأرض" . ولأن المسافة بين موقع الانفجار ودلتا النيل هي

فقط 800 كيلومتر ، فإن علماء الآثار وعلماء طبقات الأرض استنتجوا أن من الممكن أن تصل الغيوم إلى مصر " (25).
وحسب هذه المجلة ، ما أن سمع أحد المهووسين بإثبات تاريخية الرواية اللاهوتية في جامعة هوبكنز بقصة الكسر البركانية التي تعود إلى 3595 ق.م حتى سارع إلى الخروج بنظرية مفادها "ان أحداث الخروج وقعت ما بين 250 إلى 200 سنة قبل التواريخ المعتمدة تقليدياً ، أي أنها وقعت في العام 1477 ق.م (26).
وتروي مجلة "علم " الاكتشاف بالطريقة نفسها ، ولكنها تضيف شيئا يفسر سبب هذا الربط بين ثورة بركان على بعد 800 كيلومتر ووجود كسر بركانية في الدلتا وبين ما يقال عن خروج بني إسرائيل من "مصر" (27).
ونلاحظ على هذا النهج "العلمي" أن أصحابه يتجاهلون تماماً، أو يجهلون إذا أردنا الدقة، أن لا وجود لدليل أثري، لا في النقوش القبطية ولا في لغة أهلها على وجود جماعة الخروج في أرض قبط في أي عصر من عصورها، وأن إلصاق مترجمي التوراة السبعينية إلى اليونانية اسم "مصريم" بأرض القبط (Egypt)، لتصير أرض القبط هي "مصريم" التوراتية هو الذي يقف وراء كل هذه التخيلات (28).

*

أين نحن من كل هذا؟
لم يفقدنا الخطاب التوراتي ماضي فلسطين فقط، بل امتدت شبكته إلى حاضرها أيضاً، وحاولت بجهود مستميتة ومتواصلة خنق المكان الفلسطيني، فاعتدت على سماته وأسمائه، وفعلت الأمر نفسه بالإنسان الفلسطيني، فاعتدت على شخصيته الإنسانية وحاولت تشويه واقعه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وسلبه أنماطه المعمارية وأزياءه وأغانيه.
على صعيد الاعتداء على المكان، نستحضر هنا شهادة عالم الآثار الايرلندي "روبرت آلكساندر ستيوارت ماك آلستر" الذي كان أول من نقل إلينا أخبار خريطة الأمريكي "إدوارد روبنسون " التي وضعها لفلسطين خلال رحلتين، الأولى في العام 1838، والثانية في العام 1852، فنثر عليها أسماء أماكن غير موجودة إلا في التوراة، ومحا أسماء المدن الفلسطينية.
يقول "ماك آلستر":
" سافر (إدوارد روبنسون) من القاهرة ، عبر سيناء، قاطعاً حدود فلسطين، ووجد نفسه في "بيرشيبا". كانت توقعاته متواضعة، ومقاصده أيضاً، إلا أنه جنى محصولا وفيراً غير اعتيادي. وخلال شهرين تجول في البلد؛ التوراة في يده، متتبعاً كل الملامح الأرضية (الطوبوغرافيا) التي توفرها صفحاتها، وملحقاً بها ملحوظات بما حصل عليه من معارف خلال دراسته الأولية للأدب.. اهتماماته كانت محددة بصرامة، فكرس نفسه لما توحي به توراته من ملامح للأرض. كان علم الآثار بالنسبة له ثانوياً، ولم يقترب من التاريخ الطبيعي والقصص الشعبي وفروع الدراسة الأخرى إلا عرضاً.
كان هدفه الرئيس التعرف على المواقع التوراتية معتمداً اعتمادا رئيساً على ما تبقى من أسماء الأمكنة القديمة في الكلام المعاصر" (29).
على هذا النهج ، يعلق "آلستر" بالقول:
" نعرف الآن أن هذا أساس من الخطورة بمكان الاعتماد عليه كحجة ، فمثل هذا التعرف يحتاج إلى امتحان بوسائل أخرى، وهناك أدلة على أن أسماء الأمكنة لم تكن ثابتة بلا تغيير في البقعة ذاتها خلال مسار عصور طويلة تفصلنا عن عصر التوراة ، وأحياناً يحمل اسمٌ قديمٌ تماثلا زائفا مع اسم

معاصر، وبخاصة حين يُكتب بحروف أوروبية ، ويخفي عن المرء غير اليقظ تعارضاً فقهيا لغويا تاماً" (30).
كان هذا في العام 1925 ، ولكن الكاتب "إدوارد فوكس" يوجه في زمن قريب من زمننا هذا نقداً جوهريا لعمل "روبنسون" وحصاده "الوفير " فيكتب :
" لم يقتصر عمل "روبنسون" على انتهاك مبدأ أولي من مبادئ الجغرافية وضعه قديماً جغرافي وفلكي القرن الثاني الميلادي بطليموس، المبدأ القائل بأن التضاريس الأرضية أكثر أهمية من الخريطة، حين قدم الخريطة التوراتية على التضاريس الأرضية، بل ارتكب تشويهاً خطيراً، وهو عدم الاهتمام بأي شيء في فلسطين وتاريخها لا شأن له بتوراته" (31).
ويفسر "نيل آشر سلبرمان"، بعد أن يروي من جانبه أيضاً حكاية رسام الخريطة ومساعده "إيلي سمث"، دوافع طمس الواقع الجغرافي والإنساني الراهن والقديم بالقول :
" إن جوهراً تاريخياً اعتقدوا إنه سمة ملازمة للأرض المقدسة كان أكثر جاذبية بكثير من واقعها الراهن بالنسبة للمستكشفين والزائرين. ومن هنا بدأ علماء الآثار الغربيون منذ خمسينات القرن التاسع عشر التنقيب في الأرض للعثور على أدلة ملموسة تدل على ذلك الجوهر المفترض" (32).
ووفق المبدأ نفسه سار كتاب الرحلات والفنانون والعسكريون الذين أشرنا إليهم آنفاً. وسيتابع الصهاينة المحتلون رسم الخرائط ، واغتيال الأسماء الفلسطينية طيلة السنوات الماضية وحتى الوقت الراهن.
يتحدث الصهيوني "ميرون بنفنستي" بتفاصيل دقيقة عن عمل الحركة الصهيونية قبل أن تتمكن من استعمار فلسطين وبعد ذلك، على تغيير أسماء المواقع الجغرافية الفلسطينية، ويلفت نظره أن الزعيم الصهيوني "بن غوريون" اهتم في العام 1949 اهتماما ملحوظاً بتكوين لجنة من تسعة باحثين في حقول رسم الخرائط وعلم الآثار والجغرافية والتاريخ، مهمتها تسمية تضاريس الأرض الفلسطينية ومدنها وقراها بأسماء عبرية (33).
يقول "بنفنستي" بوضوح:
" تماما ، مثلما عبّرتْ الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ، بأبحاثها وحملاتها في قلب أفريقيا وكندا ، عن الرغبة البريطانية في معرفة العالم من أجل الاستيلاء عليه وضمه إلى الإمبراطورية ، عبرت جمعية استكشاف إسرائيل عن الطموح اليهودي لامتلاك أرض الأجداد" (34).
هذا الزعم تكرس في ما سماه "انتصار الخريطة" ، ويعني انتصار خريطة أبيه التي يقول إنها "حولت تملك الأرض الرمزي إلى تملك واقعي في الكتب المدرسية التي وضعها" (35).
أما على صعيد الاعتداء على الإنسان الفلسطيني واغتيال ثقافته وتاريخه ومجتمعه، فنجد بين أيدينا آخر نسخة أعادت إنتاج الخطاب التوراتي، ليس بتعابيره القديمة التي قامت على أساطير"الأرض الخالية" ، وتجاهل وجود الشعب الفلسطيني وطمس حاضره في وسائط الإعلام الغربية، بل بنسخة معدلة قوامها "تمثيل" الفلسطيني في تحقيقات من يطلقون عليهم "المؤرخون الجدد " تتناول المذابح الصهيونية وهدم البيوت وتشريد الفلسطينيين في العام 1948. هذه الصورة التمثيلية التي بدأت تظهر في ثمانينات القرن العشرين تركز على التاريخ الفلسطيني المعاصر وتقارنه بالواقع التاريخي على الأرض كما يذهب إلى ذلك "حاييم جيربر" في مقالته "الصهيونية والاستشراق والفلسطينيين". ولكنها تقدم صورة غير واقعية مختلقة تنسجم مع رغبات الدفاع عن اغتصاب الأرض وتشريد الفلسطينيين مواربة، عمادها ثلاثة انحرافات استشراقية يحملها التراث الصهيوني هي كما يفصلها "جيربر":
" أن الفلسطينيين لم تكن تربطهم رابطة وطنية أو قومية، وأن المجتمع الفلسطيني كان مجتمعاً بدائياً متخلفاً ، وأن انهيار الفلسطينيين في العام 1948 سببه خلل متأصل في مجتمعهم .. " (36).

ويقدم "جيربر" نقداً لهذا الخطاب ولممثله الأبرز "بني مورس"، بالتدقيق في الوقائع التاريخية التي تنقض هذا الانحراف، الوقائع التي تدل بوضوح على وجود مجتمع متطورآخذ بالنمو، سياسيا وتعليميا وإدارياً واقتصادياً، على العكس تماما من هذه الصورة التمثيلية، وإن الاستعمار البريطاني هو المسؤول عن تمزيق المجتمع الفلسطيني بالوحشية العسكرية وتهيئة أرضية إقامة المستعمرة الصهيونية (37).
على أن الملاحظ أن "جيربر" هذا لا يقدم مساهمته هذه من "منطلق مناوئي للصهيونية أو حتى لما تدعى مابعدـ الصهيونية " كما يقول ، بل يقدمه كموقف "نقد ذاتي يتبناه كجزء من إدراك عميق بأن عملية المصالحة بين شعبين يعيشان في الأرض المقدسة ستتطلب مراجعة شاملة ومؤلمة لماضي كل طرف لماضي الآخر" (38)، ثم لا يمضي إلى أبعد من ذلك، إلى جذر نكبة فلسطين في سرقة الأرض الفلسطينية والإبادة والتشريد المتواصلين لسكانها الفلسطينيين وتحويلهم إلى لاجئين منذ أكثر من ستين عاماً وحتى الآن، وإقامة كيان استعماري أطلقوا عليه اسم "إسرائيل". فهل ستتضمن هذه المراجعة الشاملة الاعتراف بحق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم ؟ أم ستكون مصالحة بين اللص وصاحب البيت والأرض المحروم من العودة إلى بيته وأرضه؟
من جانبها، تتناول الباحثة "راحيلا مزراحي" بعداً آخر من أبعاد اغتيال الإنساني الفلسطيني في أطروحة لها يتمثل في سرقة تراثه وإيهام العالم إنه تراث يهودي قديم. تكتب "راحيلا":
"يمكن الإشارة إلى ثلاث مراحل في عملية سرقة التراث الفلسطيني. في المرحلة الأولى قامت الحركة الصهيونية، وبعد ذلك دولة إسرائيل، بجهود كبيرة لربط ثقافة مهاجريها الأوروبيين بالتراث المحلي الذي هو جزء لا يتجزأ من تراث المنطقة العربية، وذلك في إطار إدعاء "عودة شعب أصلي إلى وطنه بعد ألفي عام"، فقامت بسرقة عناصر مختلفة من التراث الفلسطيني وتوزيعها في العالم كتراث يهودي قديم. وفي المرحلة الثانية ، بعد العام 1967، تجند المثقف الإسرائيلي لتمثيل الصراع بين إسرائيل وشعب فلسطين كصراع متماثل، ليسند الخطاب الرسمي الذي تبناه اليسار الأبيض الذي يدعو إلى الدولتين لشعبين. وفي هذه المرحلة تم عرض وتمثيل المثقف الإسرائيلي كإنسان تقدمي ومعارض للاحتلال (طبعاً احتلال أراضي 1967 فقط أو أقل من ذلك) والجندي الإسرائيلي كضحية لهذا الاحتلال. أما في المرحلة الثالثة، منذ نهاية التسعينات أساساً، فنجد اعترافاً تاماً بعملية التطهير العرقي لفلسطين، أي نكبة فلسطين، واعترافاً بتوظيف المثقف الإسرائيلي في إطاره" (39). أي الاستيلاء هذه المرة حتى على رواية النكبة وتمثيلها، وإخراس الصوت الفلسطيني.

*

عن الماضي الذي طواه النسيان واستولى عليه التوراتيون، ينقل "كيث وايتلام" عن الباحث الأمريكي "فيليب ديفز" قوله في العام 1992 "إن إسرائيل الدراسات التوراتية القديمة هي إنشاء بحثي يقوم على قراءة خاطئة للموروثات التوراتية ومنقطع الصلة بالواقع التاريخي" (40)، وينتقد من جانب آخر كتابات إدوارد سعيد حول النضال الفلسطيني المعاصر من أجل فلسطين لكونها لم تأخذ في حسبانها "خطاب الدراسات التوراتية" الذي هو جزء من خطاب "الإستشراق".
يقول "وايتلام":
" لقد اهتم البحثُ الإسرائيلي المعاصر بتاريخ لإسرائيلَ قديمة كُتب على نطاق واسع من منظور غربي استشراقي بوصفه التعبير القديم عن الدولة المعاصرة وسكانها اليهود. ولم تنتج عن تنامي

الوطنية الفلسطينية محاولة للمطالبة بالماضي تشبه حركات المطالبة باستعادة الماضي في الهند وأفريقيا وأستراليا. المشكلة هنا هي أن فكرة "تاريخ فلسطيني" انحصرت بالفترة المعاصرة في محاولة لصياغة وإيضاح روايات كينونة وطنية في وجه فقدان الأرض والمنفى. الأمر كما لو أنه تم التخلي عن الماضي القديم لإسرائيل والغرب. المقال الختامي لكتاب إدوارد سعيد " إلقاء المسؤولية على الضحايا : الدراسة الزائفة وقضية فلسطين " (لمحة عن الشعب الفلسطيني)، يبدأ بملاحظة أن فلسطين كانت وطناً لحضارة رائعة "قبل قرون من أول هجرة لقبائل عبرية إلى المنطقة". ومر سعيد على منجزات هذه الحضارة وطبيعتها مروراً خاطفاً ببضعة جمل، بينما تركت فترة هجرة الإسرائيليين، وهي صورة تم التخلي عنها الآن كما سنرى في السطور اللاحقة، لإسرائيل من دون إضافة تعليق، ثم يركز المشاركون في الكتاب على تاريخ فلسطين منذ الفتح العربي/الإسلامي في القرن السابع الميلادي حتى الزمن الراهن. إن الفترة الممتدة تحديدا من أواخر عصر البرونز إلى الفترة الرومانية هي التي تحتاج إلى المطالبة بها واستعادتها ومنحها صوتاً في تاريخ فلسطين" (41).

ويجدر بنا هنا أن نقدر لإدوارد سعيد أمانته ونزاهته الفكرية حين تناول ما طرحه "وايتلام" في مقالة له حملت عنوان " اختراع وذاكرة ومكان " في العام 2000، فتبنى ما طرحه "وايتلام" وأضاف إليه :

" إن المعركة الأكبر التي يخوضها الفلسطينيون كشعب ربما هي حول الحق في حاضر متذكر، ومع الحاضر الحق في تملك واستعادة واقع تاريخي جماعي.. هنالك معركة مماثلة خاضتها كل الشعوب المستعمرة التي هيمنت على ماضيها وحاضرها قوى خارجية غزت الأرض أولا، ثم أعادت كتابة التاريخ لتظهر في ذلك التاريخ انها المالكة الحقيقية للأرض" (42).

ثم يقرر بوضوح :

" وايتلام محق تماماً في نقد كتاباتي حول النضال الفلسطيني المعاصر من أجل فلسطين لكونها لم تلتفت بأي شكل من الأشكال إلى خطاب الدراسات التوراتية. يقول وايتلام إن هذا الخطاب كان فعلا جزءاً من خطاب الاستشراق الذي تخيل الأوروبيون بموجبه ومثلوا الشرق الأبدي كما رغبوا في رؤيته، وليس كما كان أو كما يؤمن سكانه. ومن هنا فإن الدراسات التوراتية التي اختلقت إسرائيل، تلك المعزولة عن بيئتها، مع فرضية أنها جاءت بالحضارة والتقدم إلى المنطقة، أعادت الأيديولوجية الصهيونية فرضها، وأعادت فرضها المصالح الغربية في جذور ماضيها هي. ويستنتج وايتلام "إلا أن هذا الخطاب أقصى الغالبية العظمى من سكان المنطقة". نعم هو خطاب قوة "جردت الفلسطينيين من أرضٍ وماضٍ في وقت واحد معاً" (43).

وأخيراً، نجد في كلمات كتبها "توماس تومبسن" في كتابه "التوراة في التاريخ " جلاءً لما بدأ يتضح أمام أعين الباحثين الذين تحرروا من قبضة اللاهوت:

" ينبع التاريخ الجديد لسكان فلسطين وبداياتهم الغارقة في القدم بمجمله تقريباً من أبحاث ألسنية وأثرية تمت خلال الخمسين عاماً الماضية. ويقدم هذا التاريخ صورة غير مألوفة جذرياً، وبالغة الاختلاف عن الرؤية التوراتية، كما سيجد كتّاب التوراة صعوبة بالغة في التعرف عليها، لأن ما يدركونه بوصفه "تاريخاً" كان روايات خيالية تاريخية عن الماضي، استخدموا فيها أي مادة تصل إلى أيديهم، وما نتعلمه حين نقرأهم ليس معطيات عن أي مرحلة قديمة من مراحل الماضي، بل مقالة بما يفكرون فيه وما فهموه على أنه ينتمي إلى هذا النوع الأدبي الذي يكتبونه، ولا تفيدنا هذه النصوص تاريخياً إلا بما تتضمنه عن حاضر المؤلف وعن المعرفة المتوفرة لديه ولدى معاصريه. وهكذا فإن فهمنا للماضي مجبر على التغير كلياً (44).

إشارات

1- Keith W. Whitelam, The Invention of Ancient Israel.. The silencing of Palestinian history, Routledge, London & New York, 1996, p.1
2- Ibid .p.1
3-Neil Asher Silberman, Desolation and Restoration: The Impact of the biblical Concept on Near Eastern Archaeology, The Biblical Archaeologist, Vol.44,No. 2 (June 1991) p.77
4- ألفونس دي لامارتين ، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق ، ترجمة د. جمال شحيد وماري طوق ، مراجعة واختيار د. علي عقلة عرسان و د. إلهام كلاب ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت ، 2006 ، ص 315
5- رحلة الأمير ردولف إلى الشرق (مصر والقدس)، الجزء الثالث ، ترجمة ودراسة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996، ص 16-17
6- Jack M. Sasson, Albright as an Orientalist, The Biblical Archaeologist, Vol.56, No. 1 (Mar. 1993) p.6, Published by: American Schools of Oriental Research
7- Frank M. Cross, W.F. Albright's View of Biblical Archaeology and the Methodology, The Biblical Archaeologist, Vol.36, No.1 (Feb. 1973), p. 2
8– Lawrence Davidson, Biblical Archaeology and the Press: Shaping American Perceptions of Palestine in the first Decade of the Mandate, The Biblical Archaeology. Vol.59, No.2 (June 1996) p.113
9– Ibid. p. 112
10– Edward Fox, The Murder of Albert Glock and the Archaeology of the holy Land, Harper Collins Publishers, 2001, p. 55
11- Nur Masalha, Naji Al-Ali, Edward Said and Civil Liberation Theology in Palestine: Contextual, Indigenous and Decolonising Methodologies, Holy Land Studies 11.2 (2012) p.110
12- Ibid. p 110
13- الموسوعة الفلسطينية : القسم العام ، الجزء الأول ، هيئة الموسوعة الفلسطينية ، دمشق ، الطبعة الأولى ، الصفحات 37 ، 166 ، 182 ، 194 ، 253 .. على سبيل المثال لا الحصر ، وبخاصة الصفحة الأخيرة التي تحتشد بأسماء مدن توراتية فرضها الصهاينة على مواقع جغرافية في فلسطين تعسفا واعتباطاً.
14– Thomas L. Thompson, The bible in History: How writers create a past, Jonathan Cape, London, 1999, p.15
15- حوار عن تاريخ فلسطين القديمة بين العلم والخرافات والأساطير ، أجرى الحوار مع المؤرخ توماس تومسن الكاتب زياد منى، جريدة "الحياة" ، العدد 13882 ، 19 مارس 2001 ، ص 21
16- المصدر السابق ، ص 21

17– Kamal Salibi, The bible Came from Arabia, Pan Books, London, 1985, p.70
18– Thompson, op.cit. p.8-14
19- Hershel Shanks, Fakes: How Moses Shapira forged an entire Civilization, Archaeology Odyssey Magazine (Volume 5. No.5), 2002, sep/Oct. pp.33-41
20- W.F. Albright, The Lachish Letters after five years, Bulletin of the American Schools of Oriental research. No.82 (Apr. 1941), p.22
21- Archaeology, A publication of the Archaeological Institute of America, Volume 58, No.2, March/April 2002
22- Erich Von Daniken, Chariots of the Gods: was God an astronaut? , Effone Electronic Press, 2002, pp.48-50
(Translation copy right 1969)
23- Roland Story, The Space-Gods revealed, Barnes & Noble Books, New York, 1976, p.14
24- Ibid.p.20
25- New Scientist, 15 May, 1986
26- Ibid.
27- Science, June, 1986
28– نداء السراة: اختطاف جغرافيا الأنبياء ، سلسلة عندما نطق السراة ، جمعية التجديد الثقافية ، البحرين ، الطبعة الثانية 2006 ، ص 133
29– R.A. Macalister, A Century of Excavation in Palestine, The religious Tract Society, London, 1925, p. 22
Printed by WM. Clowes & Sons, LTD
30- Ibid, p.22
31– Edward Fox, op.cit. p.53
32– Silberman, op.cit. p. 78
33– Meron Benvincity, Sacred Landscape: The buried History of the Holy Land since 1948, University of California Press, Berkeley, Los Angeles and London, 2002, p.13
34– Ibid.p.13
35–Ibid.p.12
36- Haim Gerber, Zionism , Orientalsim and the Palestinians, Journal of Palestine Studies, Vol.33, No.1 (Autumn 2003), pp.23-41
37- Ibid.
38-Ibid.
39- راحيلا مزراحي، سرقة رواية النكبة بأيدي الأكاديميا الإسرائيلية، 2008 موقع أجراس العودة، http://www.ajras.org
40- Whitelam, op.cit.p.3
41- Ibid.p.7-8

42- Edward said, Invention, Memory and Place, Critical Inquiry, Vol.26, No.2 (Winter 2000) p.184
43-Ibid. p.187
44- Thompson,op.cit.p.103

للمؤلف :

*** الأعمال الشعرية :**

1- الغناء في أقبية عميقة (الطبعة الأولى)، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1974
2- حاولتُ رسمكِ في جسد البحر (الطبعة الأولى)، دار الطليعة، الكويت، 1976
3- لساحلكَ الآن تأتي الطيور (الطبعة الأولى)، دار بن رشد، بيروت، 1980
4- مملكة الأمثال (الطبعة الأولى)، دار العودة، بيروت، 1986
5- الأعمال الشعرية: الجزء الأول (8 مجموعات)، مرايا، المحلة الكبرى، مصر، 2009
6- الأعمال الشعرية: الجزء الثاني (9 مجموعات)، مرايا، المحلة الكبرى، مصر، 2011

*** الأعمال النقدية :**

1- مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980
2- الفن التشكيلي الفلسطيني، دار الحوار، دمشق، 1985
3- بحثا عن الحداثة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986

*** الأعمال الروائية :**

1- أطفال الندى، دار رياض الريس، لندن، 1990
2- نص اللاجيء، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، ديسمبر 1999
3- حدائق العاشق، دار العصور الجديدة، القاهرة، 2001
4- شجرة المسرات: سيرة بن فضلان السرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004
5- أطفال الندى (بالفرنسية)، دار آلبن ميشل، باريس ، 2002
6-أطفال الندى (باليونانية)، دار الكساندرية، أثينا، 2003
7- أطفال الندى (بالبرتغالية)، كامبو داز ليتراس، لشبونة، 2005
8- أطفال الندى (بالعبرية)، دار بارديس، حيفا، 2005

9- أصوات الصمت، مسعى& الدار العربية للعلوم- ناشرون، الكويت- بيروت، 2009
10- الأعمال الروائية (6 روايات في 3 مجلدات)، سلسلة الآثار الكاملة، جمعية البيت للثقافة والفنون (منشورات البيت)، الجزائر، 2009

*** السيرة الذاتية :**

1- أبعد من الجدران: لاجيء فلسطيني وإسرائيلي يعودان إلى زيارة تاريخهما (بالفرنسية)،تحرير فرانسواز جيرمين، دارآكت سود & سندباد، باريس،2005
2- ذاكرة للندى: كتاب المحاورات، مرايا، المحلة الكبرى، مصر، 2011

***الأبحاث:**

1- مستشرقون في علم الآثار، مسعى& الدار العربية للعلوم- ناشرون، الكويت- بيروت، 2010

*** الترجمات :**

1- بعد السقوط (مسرحية)، آرثر ميلر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المسرح العالمي، الكويت، فبراير 1998
2- واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق: دراسة في جماليات قصيدة الهايكو مع شواهد مختارة، كينيث ياسودا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إبداعات عالمية، الكويت، 1999
3- ست وصايا للألفية القادمة (محاضرات)، إيتالو كالفينو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إبداعات عالمية، الكويت، ديسمبر 1999

كلمـــــــــــة على صفحة الغلاف الأخيـــــــــرة، من الخلف

عزيزي محمد
يالها من متعة أن يصلني خبرٌ منك، ومعه مطبوعة مدهشة مثل هذه. كتابكَ كتابٌ مهمٌ جداً، وفي الوقت ذاته أعتقد أن علم الآثار تغيّر بالطريقة التي تريدها. لقد كان علمُ الآثار التوراتي لزمن طويل سجين الرغبة في "البرهنة" على ما تقوله التوراة. وانطباعي هو أن غالبية رجال اللاهوت الكاثوليك في هذه الأيام، ورجال اللاهوت البروتستانت بعامة، لم تعد تقبل التوراة ككتاب تاريخ، ولكن بوصفه كلمة الله معبّرٌ عنها بكلمات زمنها. وتغيّر علمُ الآثار أيضاً. أنت استشهدتَ بالباحث "سلبرمان"، كتب هذا وما كتبه مع "فنكلشتاين"، تكتب تاريخاً جديداً جدة تامة للفلسطينيين وإسرائيل.
المشكلة الكبيرة في كل هذا، أن الكثيرين حاولوا النظر إلى هذه الآراء الجديدة من زاوية أنها تناقض موقفهم في النزاع السياسي الراهن (قال شارون، لايجب أن يقرأ أطفال إسرائيل أعمال علماء الآثار الإسرائيليين، بل عليهم قراءة التوراة)، وهذا ليس من العلم في شيء، وليس هناك وجود متواصل حتى اليوم، لا لبني إسرائيل التوراتيين قبل ثلاثة آلاف عام ولا للفلستيين. في أوروبا كان لدينا اعتقاد شبيه بهذا في القرن التاسع عشر؛ أعتقدَ الفرنسيون أنهم أحفاد شعب "الغال"، ونحن اعتقدنا أن الشعوب الجرمانية كانت أسلافنا.
أسعدني أنك أرسلتَ إليّ نصَّ كتابك الكامل، وقرأتُ جزءاً كبيراً منه وليس كله، ولكنني استخرجت نسخة مطبوعة منه وسأقرأ البقية في مقبل الأيام.
إن إرسال النص الكامل أمرٌ عملي تماماً، شكراً لك، وتهانيّ على عملك هذا، فعلى حدّ علمي لم يسبق أن قدم أحد هذه الموضوعات إلى الجمهور الناطق باللغة العربية. إنها موضوعات مهمة.
تمنياتي الطيبة
فرنر داوم*
برلين
2009/9/5

---

*فرنر داوم: مستشرق ألماني معاصر، باحث في المأثورات الشعبية اليمانية. من مؤلفاته البارزة كتاب "الديانة السامية الأصلية" (1985)، وكتاب "3000 عام من الفن والحضارة في العربية السعيدة" (1987).